تسجيل الدخول

كوبر هاجن.. كتاب أخطر الخبايا.. في أكبر سجن سياسي بالسودان

خريجو كوبر أو شـالا وزالنجي..جمعتهم المعتقلات وذكريات السـنوات العجاف

(الحلقة الأولى)

خليل الياس

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئسياً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

تقديم:

سخر المعتقلون السياسيون وفي أول القائمة الشيوعيون والديمقراطيون.. سخروا من ما كانوا عليه فأطلقوا على سجن كوبر (كوبرهاجن) على وزن كوبنهاجن العاصمة الأوربية المعروفة بنضارتها ورقيها وجمالها.. ومن هنا جاء اسم هذا الكتاب وعنوانه0

والكتاب الذي يسعدني ويشرفني أن أقدم له هو مجموعات من مذكرات للكاتب فيها صدق وفيها طرافة وفيها مُلحةٌ ثم هي كشف وإيضاح لحقائق عاشها وعايشها الشيوعيون والديمقراطيون السودانيون، وكل ناشط في النضال في مواجهة الأنظمة العسكرية الأول منها والثاني0

وعندي أن جوهر ما في هذه المذكرات أيضاح أساليب الصمود التي كانت سمةً أساسية في كيف واجه التقدميون السودانيون ذلك القهر، واجهوه بالصمود والإيمان بقضيتهم وبالصبر الثوري والقدرات الخارقة في إبتداع مجموعة من الخطوات والسياسات أبطلت مفعول (السجن) كما أراده السجان، فجعل من تلك المعتقلات مرافئ للدراسة ومحطات للترفيه ومواصلة للنضال من وراء الجدران. وكان مؤلف هذا الكتاب واحد من فرسان ذلك الجهد وذاك التحول0

الأستاذ الأخ الزميل خليل الياس، أحد قادة إتحاد الشباب السوداني الذي أسس في الخمسينيات من القرن الماضي، وما كان له أن يتقلد ذلك المنصب الرفيع لولا أن نضاله أحاله لذلك، فكانت ثقة جموع الشباب والشابات السودانيات فيه بتسليمه القيادة. وفي عام 1955م صار إتحاد الشباب السوداني، بعد أن قوى بنيانه وتنامى وتوسع تقديره صار عضواً في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي (العضوية اكثر من 100 اتحاد شباب على نطاق العالم). وكان ابلغ احترام لإتحاد الشباب السوداني ان أسندت له وظيفة نائب رئيس للإتحاد العالمي. وما كان هناك من خيار افضل من الأستاذ خليل الذي ظل يشغل هذا المنصب العالمي ليتحمل مسئولياته للفترة من 1982- 1985م. وأنطلق

الخليل ليؤسس علاقات مثمرة مع كل شباب العالم الديمقراطي ستظل رصيداً للحركة الثورية السودانية رغم تعاقب السنوات0
إن الأنظمة الدكتاتورية ما كانت تحتمل بقاء تنظيم ديمقراطي للشباب السوداني فتعرض هذا الصرح لأكثر من إعتداء عليه كان أبرزها حله وتحريمه عام 1971م على يد السفاح نميري ثم مرة أخرى على يد نظام (الإنقاذ) الذي حاول ومازال أن يشكل تنظيماً للشباب يكون طوع بنانه، ولكن مع الديمقراطية الجديدة الأن فإن إتحاد الشباب السوداني يستعيد حيويته ويبشر بأنه سيكون عملاقاً يسهم في الدفع الجماهيري نحو تحقيق نظام ديمقراطي مبرأ من كل عيب0

أما كتابنا هذا فقد جاء في إسلوبه شيقاً بسيطاً أقرب إلى ما يسمى بالسهل الممتنع. وغطى كثيراً من الأحداث والوقائع في سجن كوبر وسجن شالا وفي غيرهما من سجون الأنظمة المعزولة من شعبها. وعبرت كلمات الكتاب بحق عن شخصة الكاتب ثقةً فقد كان وهذه شهادة من رأى بعينيه زهرة المعتقلات تنشر المرح حيث كان وتنثر الطرفة والنكتة يمنةً ويسرةً ويرفه عن زملائه المعتقلين ولا يكون السجن سجناً كما أسلفت وتلك ملكات وقدرات لا تتوفر عند كثيرين مهما كانت عندهم من طاقات ثورية0

الكاتب فوق طاقات الصمود عنده شاعر وفنان وملحن ممتاز وإن كان ذاك باب لم يتفرغ له. والخليل صاحب صوت رخيم جميل ولكنه ضنين بالعطاء في هذا المجال إلا في حالات نادرة، ولكن تلك الملكات كان إنعكاسها فيما كتب ولو بين السطور0

القارئ العزيز.. إن كان لي أن أضيف إلى ما أسلفت فهو أنني لم أعط هذا الكتاب (كوبرهاجن والذكريات في سجون جعفر نميري) ما يستحق من وصف وتقديم، ولكن نصيحتي للقارئ أن يقتني هذا السفر الشيق ويقيني أنه لو بداء في الإطلاع عليه فلن يتركه قبل نهاية الصفحة الأخيرة0

وللكاتب الصديق تهاني بهذا الإنجاز وليته يكون مقدمة لمزيد من الإنتاج0

محجوب عثمان
2006/3/22م

كوبر: هاجن والذكريات في سجون جعفر نميري

تمهيد:

كلما التقينا مجموعة من (خريجي) كوبرهاجن أو شالا زالنجي وغيرها من المعتقلات التي حفلت بمئات الوافدين من أحزاب وتجمعات وشخصيات سياسية وغير سياسية، كلما طغت على جلساتنا ذكريات تلك السنوات العجاف التي قضيناها بكل تداعياتها من قسوة وعنف وتشريد وما حوته كذلك من مفارقات وطرف ونوادر، وكثيرا ما شاركنا بعض الأصدقاء والأبناء الذين لم يخوضوا تلك التجارب أو لم يولدوا حينئذ وبعضهم كان طفلاً صغيراً لا تعي ذاكرته الأحداث، وقد أثارت فضول الكثيرين منهم فرغبوا في الإلمام بتفاصيلها وظلوا يلحون علينا بتسجيلها، وقد وعدت مرات عديدة بالاستجابة لتلك الرغبة ولكن تعذر علي ذلك، ليس بسبب ضعف الذاكرة وتداخل الأحداث فحسب، وإنما لتعدد المعتقلات والأقسام الكثيرة خاصة في سجن كوبر وما حوته من تجارب وخبرات لا تقوى مثل ذكرياتي هذه على رصدها كاملة، وكم حرصت كثيراً على ملاحقة الزملاء لكي يعيدوا إلى الذاكرة بعضاً منها0 ورجائي من الرفاق الأصدقاء السابقين واللاحقين مراجعة ما أقدمت عليه تصحيحاً أو إضافة أو حذفاً، خاصة أولئك المحاربين الأوائل الذين أفادونا بتجاربهم مع الحكم العسكري الأول، وصاروا لدى حراس السجن (زبائن) يشيرون إليهم بالأسماء وحولوا الاعتقال بمحصولهم الثر من خبراتهم المفيدة إلى معين لا ينضب من التحصيل الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وكل منافع العلم والمعرفة. الشيء الذي ملأ الأفئدة ثباتاً وصموداً وخرج المعتقلون أكثر تماسكاً ومقدرة على مواصلة المشوار.

شكراً لكل من ساهم في تلك المناشط وما تزال بصماته تنير الدروب. ومعذرة لمن تجاوزتهم ذاكرتي أو أخطأت في إيراد مناشطهم وأسمائهم، لقد حدث ذلك سهواً أو سقط مع شيخوخة الذاكرة. وأرجو في سياق هذا التمهيد ومن خلال مؤشرات هذه الوقائع من الخواطر والذكريات أن أوكد للقارئ الكريم بأنني سأسعى جاهداً للإدلاء بدلوي ضمن من يهتمون بحقائق الحركة الوطنية ومادة التاريخ.. لهذا فقد شرعت منذ الآن بالإعداد لطبعة ثانية لاحقة قريباً أرجو أن تتوفر فيها الإضافات والإيضاحات التي أتوقعها من رفقتي وزملائي الذين عاشوا فترة مماثلة إستكمالاً وإثراء لرسالة هذه الصحائف كوثيقة مرجعية. ذلك فضلاً عن الإخراج الطباعي المصور والمتميز فنياً

وتقنياً0

مقدمة:

في الثمانيينات صدر كتابان أولهما للأستاذ عوض الصافي والثاني للمرحوم مبارك أحمد صالح المحامي، وكلاهما عن تجربتهما وما تخلل تلك التجربة في سجن كوبر، لقد تعرض كلاهما للاعتقال التحفظي بعد الهزيمة الدامية التي تعرضت لها حركة 19 يوليو بقيادة الشهيد الرائد هاشم العطا ورفاقه. وتلي ذلك في التسعينيات إصدار (كوبر مذكرات سجين سياسي) للمؤرخ الدكتور محمد سعيد القدال.

أربعة وثلاثون عاماً تفصل بين هذه الإصدارات وحركة 19 يوليو 71 الباسلة. ثلث قرن من عمر ملئ بالخبرات والتجارب، مرها وحلوها، يجئ بعدها كتابي هذا (كوبرهاجن والذكريات) أقدمه للقراء الذين يعرفونني أو لا يعرفونني، لا فرق فإن السيرة الذاتية الواردة فيه ذات وشائج حميمة وتجربة جيل كامل 1949-1985م، تجربة تعبق بأريج السنوات المشبعة بالتعب والإرهاق والأفراح والكفاح من أجل الإنسان وآماله في الحرية والتقدم الإجتماعي.

كتبت هذه الذكريات حيث لا ينفصل الراوي الشاهد عن الأحداث وبين أبطال الحدث أنفسهم. ويجئ عنوان الكتاب (كوبرهاجن) مأخوذاً عن ما كان يتردد من إبداعات مصدرها المعتقلون وأصحاب الرؤى المبدعة وأن فيما تضمنته هذه الذكريات عن السجن، رسالة أردت أن أنقلها للأجيال التي لا تعلم بصورة كافية ما دار في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ السودان وأقصد فترة حكم الطاغية جعفر نميري. أنني أنطلق من قناعة راسخة أن لمثل هذه الذكريات رسالة ننقلها لبنات وأبناء الوطن عن طريق السرد القصصي المبسط. وليس عن طريق المواعظ السياسية والأيدلوجية المباشرة كما في الخطاب السياسي المعروف إلى مسائل مختلفة تتراوح بين أنظمة الحكم والفساد والإستبداد وما ينتج عن ذلك من جرائم تبدأ بالسجن والتشريد والإعدام إنتهاءاً تدمير مقدرات الشعب وإطاحة أمانيه في حياة تليق بالإنسان المعاصر.. ولعله يكون مفيداً أن يسعى آخرون لكتابة تجاربهم وذكرياتهم خلال الحقب المظلمة في تاريخنا المعاصر لسد النقص الفادح والذي لا ينسجم مع الحيوية التي تتصف بها الحياة السياسية في السودان. وليغفر لي الأخوة والرفاق الذين لم ترد أسماؤهم في هذه الأحداث إذ لم يكن سهواً أو تجاهلاً ولكن كهولة الذاكرة أسقطت عني الكثير آملاً في إسهامهم بالإيضاح والتصحيح والأثراء بمخزونهم المفيد والمثير في تلك الرحلة العصيبة الطويلة الغنية بالأحداث.

مسلسل الإعتقالات :

لم تكن الإعتقالات السياسية سمة تميز الحكومات العسكرية وحدها في البلاد وإن تجاوزت الكثير من القهر والعنف والتشريد وانتهاك حقوق الإنسان ولكن الإعتقالات بدأت منذ الحكم الاستعماري حين نهضت الحركة الوطنية مطالبة بإنهاء الاستعمار وتحقيق الاستقلال. وتواصلت حملة الإعتقالات حينما نشأت الحركة النقابية وخاصة نقابة عمال السكة حديد في عطبرة. وتكون اتحاد نقابات عمال السودان. وأتسع نشاطه واقترن بالعمل السياسي الوطني من أجل الجلاء وإستقلال البلاد فتضامن مع جنود البوليس في إضرابهم الشهير،وكذلك مع طلاب مدرسة خور طقت الذين فصلوا من الدراسة وكان عددهم قد تجاوز المائة طالب فاعتقلت حكومة السودان الاستعمارية قادة الاتحاد محمد السيد سلام الرئيس والشفيع أحمد الشيخ السكرتير العام وقدمتهما لمحكمة قضت بالسجن سنة للرئيس واثنتين للسكرتير.

وكذلك فعلت الحكومة الوطنية الأولي بعد الاستقلال في فبراير 1956 ولم يمض علي تسلمها مقاليد الحكم ثلاثة أسابيع حتى قامت باعتقال المزارعين حيث قادوا مظاهرة في كوستي يطالبون فيها بمعرفة حساباتهم فتصدي لهم البوليس بالرصاص وأردي منهم خمسة وعشرين قتيلاً وزج بالباقين فيما عرف بعنبر جودة فمات منهم عدد أخر بالاختناق. واستنكر المواطنون بفئاتهم المختلفة استهلال الحكم الوطني بتلك المجزرة وتضامن معهم العمال والمحامون وطلاب الكلية الجامعية، وحشدت الجبهة المعادية للاستعمار (الحزب الشيوعي) جماهير الشعب في مظاهرات عمت العاصمة والأقاليم فأدي ذلك إلى اعتقال قادة الجبهة ومحاكمة البعض منهم بالسجن، وتلاحقت مشاكل الحكومة الوطنية ونشأت صراعات داخل البرلمان لم تكن أسبابها قضايا التنمية أو حاجات المواطنين و إنما اللهث إلي السلطة وكسب أصوات الناخبين.

عبدالله خليل قال: دي بلد تستحق الحكم الديكتاتوري.. وبعدها ما فيش مانع الواحد يقتلوه..!

تمَّ اعتقال قطب المريخ المعروف شاخور.. لأنه تصادف أنْ كان في زيارة لرئيس الوزراء

(الحلقة الثانية)

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

إنقلاب 17 نوفمبر: 1958
الحكم العسكري الأول:
وفي شهر يوليو من ذات العام 1956 استقال واحد و عشرون نائباً من الحزب الوطني الاتحادي صاحب الأغلبية الحاكمة وكونوا حزب الشعب الديمقراطي, ليصبح منبراً مستقلاً لطائفة الختمية وتحالف مع حزب الأمة منبر طائفة الأنصار واسقطوا حكومة إسماعيل الأزهري أول حكومة وطنية بعد الاستقلال.
ولكن التحالف لم يستمر طويلا. فقد بذلت الجبهة الوطنية التي انبثقت من المؤتمر القومي جهوداً متواصلة لتوحيد حزب الشعب الديمقراطي والحزب الوطني الاتحادي و أصبحت المعارضة أغلبية كافية لرفض المعونة الأمريكية والمخطط الأمريكي لملء الفراغ في الشرق الأوسط بعد إندحار الإستعمار البريطاني وأصبح محتوماً إسقاط الحكومة، وكان عبد الله خليل رئيس مجلس الوزراء وسكرتير حزب الأمة قد راوغ كثيراً في إجراء الانتخابات وأطال عطلة البرلمان. وتحت ضغوط النواب وملاحقة الصحافة اضطر عبد الله خليل رئيس الوزراء أن يدعو لعقد البرلمان في السابع عشر من نوفمبر 1958. في هذا السياق يشير الأستاذ عبد اللطيف خليفة في مذكراته أن عبد الله خليل يماطل في إجراء الانتخابات وذهب إليه وفد من الوطني الاتحادي يستعجله للانتخابات فقال لهم عبد الله خليل: والله البلد دي تستحق الواحد يحكمها حكم دكتاتوري ثلاث سنوات وبعدها ما فيش مانع يقتلوه ويؤكد ذلك علي أن عبد الله خليل كان مبيتاً نواياه علي القيام بالانقلاب العسكري حتى لو لم يتفق معه حزب الأمة. وقالت الروايات إنه ذهب إلى هيلاسلاسي مصطحباً معه اللواء احمد عبد الوهاب من كوادر حزب الامة طلباً لمساعدة عسكرية عندما يستولى الجيش على السلطة.
كان يدرك جلياً أن الموقف داخل البرلمان بعد توحد أطراف المعارضة ليس في مصلحته وان حكومته زائلة لا محالة، فاستدعي الفريق إبراهيم عبود واللواء احمد عبد الوهاب لاجتماع قرر فيه أن يستولي الجيش علي السلطة في أو قبل السابع عشر من نوفمبر. ولما كان اللواء احمد عبد الوهاب من كوادر حزب الأمة في القوات المسلحة فقد خطط أن يستولى عبد الوهاب على مقاليد الحكم ثم يعيد السلطة إليه ولكن عبود وزملاءه استولت عليهم نوازع السلطة واستبد بهم الطموح ولم يحفلوا بتلك الأمنية بل ضاق عبود وزملاؤه ذرعاً بالمعارضة وكان قد شدد في أول بيان له على: تعطيل الدستور- حل البرلمان- حل الاحزاب- منع الاجتماعات والتجمع- منع المواكب والمظاهرات- تعطيل الصحف- ووضع قيادات الاحزاب تحت الحراسة المنزلية وفي العام 1962 امتدت يده إلى عبد الله خليل فاعتقله ومعه بعض قيادات الأحزاب الاخرى: إسماعيل الأزهري وعبد الخالق محجوب ومبارك زروق ومحمد احمد محجوب وإبراهيم جبريل

ومحمد احمد المرضي وأمين التوم وعبد الله ميرغني وعبد الله عبد الرحمن نقد الله واحمد سليمان ومصطفى محمد صالح وأبعدهم إلى سجن جوبا في جنوب السودان ولكنهم تضامنوا في إضرابهم عن الطعام فقرروا انهم لن يرفعوه إلا في منازلهم وكان الحزب الشيوعي قد أصدر بياناً جماهيرياً وملأ الجدران بشعارات تطالب بإطلاق سراحهم وأنتشرت أخبارهم بين المواطنين وما عاد أمرهم سراً، فتراجعت حكومة عبود وأطلقت سراحهم.

ومن الطريف أن اعتقالهم الذي تم في منزل عبد الله خليل وكان المواطن عبد الرحمن شاخور قطب فريق نادي المريخ قد جاء إلى عبد الله خليل لأمر لا علاقة له بذلك الاجتماع واعتقل مع الآخرين. وظل إبراهيم عبود وزملاؤه يتمسكون بالسلطة وبلغ بهم القهر والقسوة أن اعدموا شنقاً كلاً من البكباشي علي حامد والبكباشي يعقوب كبيدة والصاغ عبد البديع كرار اليوزباشي طيار الصادق محمد الحسن اليزباشي عبد الحميد عبد الماجد. أيد السيد عبد الرحمن المهدي راعي حزب الامة الانقلاب ببيان دعا فيه مواطنيه لتأييده جاء في بيانه: (لتطمئنوا جميعاً ولتغبط نفوسكم بهذه الثورة المباركة التي قام بها جيشكم المظفر، وليذهب كل منكم إلى عمله هادئ البال قرير العين، ليعين رجال الثورة السودانية بولائه وانتاجه وباستعداده التام لحماية الوطن واستقلاله.. أيدوا يا أبنائي هذه الثورة وادعوا لها بالتوفيق والسداد، و أعينوها بان يكون كل منكم عيناً ساهرة وعزماً قوياً لتحقيق ما قامت من اجله ثورتكم وما تقدم إليه جيشكم المظفر من حمل أمانة الاستقلال).

لقد تقبلنا نبأ تسلم جيش السودان بقيادة ضباطه وكذلك فعل السيد علي الميرغني راعي حزب الشعب الديمقراطي حيث جاء في بيانه ذمام السلطة في بلادنا وإننا نأمل أن تتضافر الجهود وتخلص النوايا لتحقيق الطمأنينة في النفوس، كما إننا نتوجه إلى الله المستعان أن يجعل فيما حدث الخير كاملاً والتوفيق شاملاً...). وبعث الاستاذ إسماعيل الأزهري بمندوبه خضر حمد إلى أبراهيم عبود وأحمد عبد الوهاب مهنئاً وجاء في تصريحاته أنهم لن يضعوا أي عراقيل أمامهم وسيفسحون لهم الطريق للعمل المثمر. أما الأخوان المسلمون فقد ابدوا ارتياحهم لما حدث إذ ورد في صحيفتهم (الأخوان المسلمون): إن البداية التي سارت عليها الحكومة في تصحيح الأوضاع الفاسدة تدعو للاطمئنان. ولكن الحزب الشيوعي واتحاد النقابات والقوي الديمقراطية وقفت جميعها ضد الانقلاب وفي اليوم الثاني اصدر الحزب الشيوعي بيانه الشهير الذي وصف فيه 17 نوفمبر بأنه انقلاب رجعي يجب إسقاطه.

جاء في ذلك البيان 17 نوفمبر انقلاب رجعي).

إنه عند قيام حكومة عبد الله خليل الرجعية نهضت في البلاد حركة شعبية واسعة وبدأت الجماهير الوطنية والبرجوازية الوطنية نفسها تحس بخطر التدخل الاستعماري واخذت تعارض السياسة الرجعية للحكومة.. وحتى حزب الامة شهد انقساماً داخل هيئته البرلمانية واتضح أن إنهيار النظام الرجعي المتمثل في حكومة عبد الله خليل يعني ضربة قاسمة لمصالح الإستعماريين في البلاد وفتح الباب لتحولات ديمقراطية واسعة.. فأصبح من غير الممكن حكم البلاد بواسطة نظام برلماني.. الذي حدث صباح 17 نوفمبر كان تسليماً وتسلماً من حكومة عبد الله خليل إلى زعماء الجيش. وقد تم الانقلاب تحت القيادة الرسمية للجيش ولم تقم به هيئة مناوئة من الضباط وتلك القيادة الرجعية للجيش هي في الواقع نتاج عمل منظم منذ تسلم عبد الله خليل للحكم في منتصف 1956م وأشرف على وزارة الدفاع.. إنه إنقلاب رجعي باشره الجهاز الذي كونه حزب الامة داخل الجيش. ولكن الذين دبروا الانقلاب تغافلوا عن عدة إعتبارات فالاغلبية الساحقة من الضباط في الجيش هم جزء من البرجوازية الصغيرة في بلادنا ولهم إتجاهات وطنية ديمقراطية. وستكون مهمة الاستعماريين تصفية هذه القوى في الجيش وبناء جهاز موالٍ للرجعيين بجانب تصفية الحركة الجماهيرية.

إن حزبنا مواجه بمهام تاريخية كبرى لتفشيل مؤامرة الاستعمار والرجعية وهو قادر على ذلك لان الحركة الجماهيرية في وضع متقدم، ولأن القوى الوطنية من الضباط موجودة وكبيرة داخل الجيش ويجب أن لا نترك القوى الشعبية تتقهقر.

وفي ذات السياق قبل قيام انقلاب 17 نوفمبر كتب الشهيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي في جريدة الميدان بتاريخ 3 نوفمبر 1958م أي قبل اسبوعين من الانقلاب، أفتحوا اعينكم جيداً الامريكان يستعدون لتدبير الانقلاب المقبل في السودان.. ثلاثة انواع من الانقلابات :

1/ انقلابات رجعية يدبرها الاستعمار الامريكي ضد حكومات وطنية مثل ما حدث في قواتيمالا والارجنتين ومثل ما حدث ضد حكومة مصدق في ايران.

2/ انقلابات تقوم بها جيوش مشبعة بروح الوطنية ضد نظم الحكم الموالية للإستعمار مثل انقلاب سوريا ومصر والعراق0

3/ ولكن وقعت انقلابات دبرها الاستعمار ضد انظمة رجعية موالية له. فقد رأى الاستعمار الامريكي أن الحكومات في سيام وبورما وباكستان اصبحت ضعيفة أمام هجوم القوى الوطنية عليها، ولم يعد في إمكانها تنفيذ السياسة الاستعمارية المرسومة، فسارعت امريكا واسقطت تلك الحكومات قبل ان يسقطها الشعب، وجاء بعناصر اقوى وأقدر على تنفيذ سياستها وسلمتها مقاليد الحكم عن طريق انقلاب

عسكري.

الشيوعيون وإنقلاب عبود :

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الحزب الشيوعي والقوي الديمقراطية هدفاً للإعتقال والتشريد والملاحقة والمراقبة اللصيقة. من الطريف في هذا الشأن اذكر أن عبود الذي كان يسكن في حي الأملاك في الخرطوم بحري مجاوراً لأحد أقربائي جاء يطلب منه إيجار متجر في عمارة الأوقاف مجاورا له ليستخدمه مستودعا لبيع قطع غيار السيارات لأنه كما ذكر علي أبواب سن التقاعد وان راتب المعاش الشهري لا يكفي لإعاشة أسرته ولا بد له من دخل إضافي يعينه علي حياة ملائمة. ووافق قريبي علي ذلك قبل أيام قليلة من (البيان الأول لكن عبود لم يتابع مستفسرا عما حدث لطلبه !! وحين ذهب قريبي (للتهنئة) سأله إن كان لا يزال يحتاج للمتجر فضحك (عبود وقال وهو يودعه : الحمد لله يا شيخ محمود ربنا يجيب العواقب سليمة وخليك محتفظ بالمخزن لفترة شهرين وبعدين نشوف) ولكن عبود لم ينتبه لهذه الفترة إلا بعد 6 سنوات وكان الوقت متأخراً فآثر البقاء في منزله قبل أيام من الإنقلاب. وحين أُخطر إبراهيم عبود بأن رئيس الوزراء يطلبه بصفة عاجلة في مكتبه أفزعه الخبر وخال أن أمراً تعيساً سيحيق به، وخشى أن يكون قد إرتكب خطأ لا يدركه، فيعيق تدابيره وهو على أبواب التقاعد فإستجاب مغشياً على مشاعره وذهب لمقابلة عبد الله خليل فإنتظر في مكتب مديره ولم يخطر بباله أن مفاجاءة تحيط به بلا مقدمات.

2

الحزب الشيوعي تبنى شعار الإضراب السياسي العام لإنهاء الحكم العسكري

(الحلقة الثالثة)

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

تجربة الاعتقال الأول 13 يونيو 1964م

لم تتجاوز تجربتي الأولى في الاعتقالات ليلة واحدة في زنزانة بقسم البوليس الجنوبي في الخرطوم وأوشكت أن أكون معتقلا مع المعلمين الاشتراكيين الذين كانوا في اجتماع بمنزل الأستاذ مصطفي محمد صالح بالحلة الجديدة حين داهمهم البوليس يوم كنت في زيارة

لوالدة الأستاذ مصطفي التي أقعدها المرض لفترة طويلة لم نرها فيها وكان لابد من الاطمئنان عليها وجلست معها بالداخل أروح أغدو للمجتمعين بالشاي والماء وحين جاءت (الكشة) بقيت ساكناً بالقرب من الحاجة مساعداً لها في إعداد وجبة العشاء حتى سيق الجميع إلى الحراسة واكتفوا بمن عثروا عليهم في الاجتماع وغادروا المنزل دون تفتيش!!. وكان البوليس في فترة حكم عبود يحصل علي أمر قضائي أحياناً كثيرة لكي يفتش المنزل بعد إحضار بعض الشهود من المواطنين في ذات الحي ليقفوا علي ما يحصلون عليه من وثائق أو منشورات وهو أسلوب جافته مايو والإنقاذ. وهذا ما جعلني أنجو من تلك الحملة فقد إكتفوا بمن وجدوهم في ذلك الإجتماع.

وكنت حريصاً خلال الست سنوات التي عاشها نظام (عبود) علي أداء ما يوكل إلي من مهام متواضعة وهامة في ذات الوقت، فلم أتعرض إلى تفتيش أو ملاحقة ووطدت كثيراً من علاقاتي بالأصدقاء والاخوة الذين لم يمارسوا أي نوع من النشاط السياسي فأمنت شر رجل المباحث الذي كان يسكن مجاوراً لي، لدرجة انه أطلعني مراراً علي المنشورات التي كان يوزعها الحزب الشيوعي ليقول لي تصور انهم يهاجمون حكومة أنجزت كذا وكذا، هؤلاء يستحقون قطع رقابهم وليس فقط الاعتقال. ابدى دهشة كبيرة في تلك الليلة التي فتش البوليس فيها منزلي واقسم انه لم يبلغ عني، وقد كان صادقاً فيما قال. وحقيقة ذلك الاعتقال الذي تم في 13 يونيو من عام أربعة وستين أي قبل أربعة اشهر من انتفاضة أكتوبر. وكان نظام (عبود) يلفظ أنفاسه الأخيرة وحاصرته الاضرابات والاحتجاجات والملصقات والشعارات في الجدران مما جعله يهتز أمام أي تحرك مهما كان حجمه وكان يطلق كل أجهزة البوليس السري والمباحث لملاحقة واعتقال النشطاء من السياسيين والنقابيين خاصة كلما دنا اليوم السابع عشر من نوفمبر وهو اليوم الذي تم فيه الانقلاب وعرف بيوم اعتقال الشيوعيين. في ذلك المساء دعانا الأستاذ مصطفي محمد صالح أحد قادة المعلمين الاشتراكيين وقد عرف الأستاذ مصطفي إضافة إلى نشاطه السياسي والنقابي بأنه كثير الاهتمام بالآداب والفنون وتمتع بروح مرح وعمق في العلاقات الإنسانية مع الجميع مما جعل أفئدة من الناس تهوي إلى داره بمختلف اتجاهاتهم السياسية والعقائدية الشئ الذي اقلق (البوليس السري) وجعله يشدد الرقابة والمتابعة اللصيقة التي لم تنقطع. وكان أي البوليس- يفاجأ دائما بمواطنين ليس لهم شأن في السياسة. ورغم الحصار المضروب علي الأستاذ مصطفي استطاع دائماً الإفلات منهم بطرق متعددة. اذكر مرة انه كان عليه أن يقود اجتماعا صباح الجمعة خارج منزله ودنت مواعيد البداية وكان رجل البوليس كعادته يجلس أمام المنزل متكأً على جدار الجيران متجها نحو الباب يرقب الحركة باهتمام شديد. وتصادف أن كان التلميذ احمد ابن صديق الأستاذ مصطفي يسكن معه بذات المنزل ويدرس بالمدرسة الثانوية يمتلك دراجة يتنقل بها إلى المدرسة فارتدي الأستاذ مصطفي قميص وشورت كما يفعل التلاميذ في ذلك الوقت وحمل معه جلابية وعمامة في حقيبة أشبه بحقيبة التلميذ وضعها علي المقعد الخلفي واخذ الدراجة واتجه إلى السوق حيث دكان التاجر الذي يتعاملون معه، واستأجر عربة تاكسي متجها إلى مكان الاجتماع. وعندما اقترب من المنزل الذي يعقد به الاجتماع ارتدي الجلابية والعمامة وطلب من السائق التوقف وقد تغيرت ملامحه تماما فانزعج السائق وظن انه (شيطان رجيم) فاستعاذ بالله ورفض استلام الأجرة وقال له مضطربا: روح يا شيخ الله يكفينا شرك.

وتحضرني هنا طرفة تحكى عن خضر الحاوي حينما أوقف عربة تاكسي وطلب من صاحبها أن ينقله إلى منزله فطلب صاحب التاكسي مبلغ اثنين جنيه وكان مبلغاً كبيراً في ذلك الوقت فإنفعل الحاوي وأقفل الباب بشدة وظن صاحب التاكسي أنه قد ركب العربة واغلق الباب وعندما وصل إلى منزله وأنتظر خروج الحاوي من العربة ولما لم يفعل إلتفت إلى المقعد الخلفي فلم يجد الحاوي فقام بإغلاق الأبواب وتأمينها ورفع الزجاج وقال للحاوي: والله مش تبقى حاوي.. لو ما دفعت الاثنين جنيه ما بتنزل من العربية.

وفي ذات المساء شاهد الجندي المراقب الأستاذ عبد الله حامد الأمين الأديب المعروف يدخل منزل الأستاذ مصطفى للمشاركة في ذلك اللقاء فقد كان الأستاذ عبد الله لصيقا بالقوى الديمقراطية يدعوهم مع الآخرين من الأدباء والشعراء الى (الندوة الأدبية) التي يقيمها كل أسبوع في منزله بامدرمان وبادر باقتراح بدعوة الشاعر تاج السر الحسن ووعد بإعداد لقاء خاص وانه سيعده بشكل متميز. وقال في سياق حديثه والروح المرح مداعبا الأستاذ مصطفى : كانت أمنيتي أن يكون هذا اللقاء بداري ولكني أقول: دي قولة خير والزفاف إن شاء الله عندي في امدرمان فاعدوا أنفسكم وسوف أحدد لكم وقتا مناسبا حتى يتمكن الكثيرون من المهتمين بالشعر من الحضور والمشاركة.

وتم اللقاء في منزل الأستاذ مصطفى محمد صالح بالحلة الجديدة بحضور الدكتور تاج السر الحسن الذي جاء إلى البلاد من مصر في العطلة الدراسية الصيفية كي نستمع إلى الجديد من أشعاره بعد رائعته (آسيا وأفريقيا) التي تغنى بها الأخ الفنان عبد الكريم الكابلي. و لما كان الأستاذ مصطفى مراقبا مراقبة لصيقة من (البوليس السري) حرص على ترك باب المنزل مشرعا، وكذلك نافذة (البرندة) المطلة على الشارع مع الإضاءة الكاملة لكل المنزل. أجرى كل هذه التدابير حتى لا يعتقد (البوليس) أن بمنزله اجتماعاً فيداهم الحاضرين ويفسد عليهم ذلك اللقاء. ولم تفلح كل هذه التحوطات. وما هي إلا لحظات قليلة حتى قفز من النافذة رجل المباحث الشهير (الكتيابي) شاهراً المسدس وآمراً الجميع بالثبات (عندك) ودخل في ذات الوقت ومن الباب المشرع ضابط مباحث وبصحبته مجموعة من جنود المباحث، طلبوا من الحضور مرافقتهم إلى قسم البوليس الجنوبي. وعندما شاهدوا بيننا الأستاذ عبد الله حامد الأمين جالساً على كرسي المقعدين أشاروا إليه بالذهاب إلى منزله و لكنه رفض رفضا باتاً بالرغم مما بذله الضابط من محاولات لاقناعه ولان الضابط يعلم أن وجود الأستاذ عبد الله في مثل ذلك اللقاء يؤكد انه أمر لا علاقة له بنشاط شيوعي فتفشل جهود تقاريره و متابعته وادعاؤه انه نصب كميناً لاجتماع خطير أعده الشيوعيون، وأكد الأستاذ عبد الله حامد الأمين انه أحد هذه المجموعة التي دعيت إلى الاستماع في هذه (الجلسة الشعرية) ولا مكان له إلا برفقتهم إلى حيث هم ذاهبون وكانت تلك شهادة برأت الحاضرين من تهمة إجتماع سياسي ولما تعذر اقناعه

بالعدول عن إصراره، ولم يكن لدي البوليس مكان له ولكرسيه طلبوا مني اصطحابه في عربتي (الفولكسواجن). الطريف أننا سجلنا في دفتر الأمانات عربتي ودراجته تماما كما فعلوا بتسجيل النقود والأغراض التي كانت بحوزتنا. كان في مركز البوليس الضابط كمال حسن أحمد الذي أصبح في نظام 25 مايو نائباً لرئيس جهاز الأمن قام باستجوابنا ثم صحبونا منفردين إلى منازلنا كل معه ضابط وشاويش لتفتيش المنازل في محاولة للعثور علي وثائق أو مطبوعات تعينهم علي تقديمنا متهمين إلى المحكمة.

وقد تركزت ملاحقة البوليس علي الشيوعيين والتقدميين فقد كان الحزب الشيوعي أكثر العناصر المعارضة نشاطاً وتضحية خاصة بعد أن قدم للقوي السياسية رؤاه في إسقاط النظام العسكري بأن طرح شعار الإضراب السياسي العام أداة فاعلة لإنهاء الحكم العسكري، واستغرق النقاش في هذا الشعار حيزاً كبيراً من الوقت إذ أن كثيرين من قيادات الأحزاب التقليدية لم تهضمه ورددت القول أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولكن الحزب الشيوعي صبر وثابر وأعد الكثير من اللقاءات لتلك الأحزاب لإقناعها بفاعلية الإضراب السياسي. بل أنه في كثير من المناشط كان يطبع بيانات الأحزاب ويقوم بتوزيعها ويعد لهم الاجتماعات والأماكن التي تعقد فيها. وكثيراً ما قام بترحيل مندوبيهم سراً إلى تلك الاجتماعات وقام بتوزيع منشوراتهم وأعد لهم الاجتماعات والأماكن التي تعقد فيها وقد فطن نظام (عبود) إلى هذه الحقيقة وأصبح شغله الشاغل محاولة تعطيل نشاط الحزب الشيوعي والديموقراطيين باعتقال كوادرهم وملاحقتهم وفصلهم من الخدمة وتقديمهم للمحاكم. ولم يسلم بعض النشطاء من شباب الأحزاب الأخرى من الملاحقة والمراقبة.

في ذلك المساء كنت أتوقع العودة إلى المنزل في وقت متأخر فأخذت زوجتي إلى منزل صديقي بالحي تنتظرني مع أسرته حتى أعود وتركت معها مفتاح المنزل وحينما جئت لأخذ المفتاح أصابتها دهشة كبيرة حين طلبت منها الانتظار ورأت (الشاويش)، لم تكن رحمها الله تعني بقدر كبير في السياسة ولكنها كانت تجيد إخفاء ما أودعه لديها من وثائق هامة. وعند إعطائي المفتاح همست في أذني (الزبادي) في المطبخ. وكانت هذه كلمة السر (المطبوعات) .. شاءت الصدفة أن يكون نصيبي الضابط (صلاح التيجاني) ولم أره منذ تلك السنوات ولكني أسجل هنا بكثير من الامتنان والتقدير تعاطفه معي. وحين دخلنا (الديوان) حدثني بالإنجليزية (لا تقلق) سوف لن نجد أي شئ، وشرع في تقليب الكتب بالمكتبة وكذلك الوثائق والمطبوعات مشيرا إلى الشاويش بأن هذه الأوراق والكتب كلها متواجدة بالسوق وليس فيها ما يفيدنا في التحريات وخرجا دون أن يأخذا شيئا منها. وعدت معهما بعد ذلك إلى (القسم الجنوبي) وقضينا الليلة هناك.

لم يكن لدي حتى ذلك الوقت (سجل للسوابق) في نشاط سياسي مما جعل التحقيق معي قصيرا ومحصوراً في السؤال عن صلتي بالأستاذ مصطفي والتي أوضحتها في سياق أخر خلافاً لما استغرق وقتا طويلا مع الأستاذ مصطفي وكمال عبد النبي. وفي صباح الغد أطلق سراحنا بلا قيد أو شرط وتحفظوا علي الأستاذ مصطفي محمد صالح وكمال عبد النبي الذي زعموا أنهم كانوا يبحثون عنه فترة طويلة وعثروا عليه بالصدفة في هذا (الاجتماع) كما أسموه، وكذلك التحقيق مع الأستاذ عبد الله حامد الأمين لم يستغرق وقتا طويلاً وعاد الي منزله بعد أن رجوناه كثيراً بالذهاب وشكرناه على تضامنه معنا مما فرض على المباحث الإقرار بأن ذلك اللقاء لم يكن إجتماعاً سياسياً للشيوعيين.

3

نشاط الحزب الشيوعي أصاب حكومة الوطني الإتحادي بالرعب حتى أنها فكرت في حظره

(الحلقة الرابعة)

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

< خليل الياس>

ثورة أكتوبر 1964م

وبعد نضال جماهيري شرس وصبور دام ست سنوات ضد نظام عبود نجحت إنتفاضة الحادي والعشرين من أكتوبر بفضل الإضراب السياسي العام الذي بادر الحزب الشيوعي بتقديمه أداةً فعالةً للقوى السياسية وثابر وأصدر الكثير من الوثائق التي تحث الجماهير على تنفيذه وقد جاء في إحدى إصداراته في اغسطس 1961م ما يلي بعنوان : ما هو هذا الاضراب السياسي العام.. كتب يقول إنه توقف الجماهير الثورية عن العمل، ويتم تنفيذه عندما تصل الجماهير الي وضع لا تحتمل فيه العيش تحت ظل النظام الراهن.. إنه عملية مسلسلة وليست ضربة واحدة عملية من الدعاية والعمل الفكري الدائب.. من التعلم ومن التجارب.. من المعارك اليومية المختلفة.. من بناء قوى ثابتة للجبهة الوطنية الديمقراطية.. من نضال قانوني وغير قانوني.. من تحسين وتحسين الحزب الشيوعي ووضعه في القيادة وارتقاء لنفوذه الأدبي.. وكل ما يسير في هذه العملية ثوري ومفيد ويقرب الناس من الاهتمام بالإضراب والاستعداد له ثم تنفيذه. وكان هذا في البيان الأول الذي دعا إلى الاضراب كأداة فعالة لإسقاط النظام العسكري وإجابة للجماهير التي تساءلت عن الكيفية التي تنقذها من هذا الكابوس. وعادت الأحزاب التقليدية إلى السلطة عبر مخزونها من الأصوات في الدوائر الجغرافية وبعض المدن. ولكن الشيوعيين والقوي الديمقراطية حازت علي معظم دوائر الخريجين وفازت القائمة التي رشحها الحزب الشيوعي على أحد عشر مقعداً من خمسة عشره خصصت لدوائر الخريجين، وكانت هذه المجموعة تشكل الصوت الديمقراطي داخل البرلمان والمعبر الحقيقي عن قضايا المسحوقين والطبقة العاملة، فصاروا بذلك مصدر قلق للقوي التقليدية وضاقت بهم. ولم تحظ القوى الديمقراطية بالفوز في الأقاليم. ذلك لأنها ظلت طيلة الست سنوات التي قضاها نظام عبود تحارب وتعتقل وتشرد كوادرها من نشاطها المتواصل ضد الحكم العسكري في الوقت الذي ألقت فيه القوى الرجعية سلاحها وأسلمت أمرها ولم تتعرض لملاحقة جهاز الأمن بل إن بعضها إندمج فعلياً في مؤسسة الحكم العسكري الشئ الذي مكنهم من الحفاظ على مواقعهم في الريف إضافة إلى الدعاية التي يدعمها النظام العسكري تحت شعار محاربة الشيوعية.. حتى الروابط التي أنشأها أبناء تلك المناطق الريفية لخدمة مواطنيهم حاربوها تحت ذات الشعار وأعتقلوا قادتها. وحقيقة الأمر أن الأحزاب التقليدية التي استسلمت للحكم العسكري أحست بخطر الحزب الشيوعي وأثره وسط الشباب والنساء والطلاب والعمال والمزارعين والمثقفين الذين توافدوا إلى الحزب والحركة الديمقراطية وافزعها الانتصار الساحق الذي حققته دوائر الخريجين مما يعني أن القوى الحديثة قد إنحازت إلى اليسار، وكان هذا الانعطاف يضاعف قلق الأحزاب التقليدية مما إضطرها للإهتمام بهذه العناصر لأول مرة في تاريخها السياسي ومحاولة جذبها والإعتراف بدورها، الأمر الذي كان قبل إنتفاضة أكتوبر، محرماً على تلك العناصر وإهمالها وأبعدوا كل من يحاول السعي لإدخال عناصر النساء والشباب في أحزابهم وإتهموهم بموالاة الشيوعين. وبعد نجاح ثورة أكتوبر وتأثير تلك العناصر ودورها في إنجاح الإضراب السياسي العام فطنوا الي قدرتها وراحوا يخطبون ودها ويختارونها في بعض لجان أحزابهم. وأدى نجاح إنتفاضة أكتوبر إلى حصول النساء والشباب على حق الإنتخاب والتصويت وإنتزع المواطنون حق العمل السياسي وإنشاء الإتحادات المهنية والفئوية للموظفين وهو أمر أفزع الأحزاب الرجعية مما دفعها لتسعى خلف هذه القوى بكل إمكانياتها، لتحد من نشاط الحزب الشيوعي والمنظمات الديمقراطية، فقد كان ذلك النشاط محرماً قبل إنتفاضة أكتوبر 64. من الطريف أن الحزب الشيوعي حينما كان يقيم ليلة سياسية يفتتح اللقاء بالآيات الكريمة (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك وأستغفره إنه كان توابا) وكانت الآيات الكريمة تنسجم تماماً مع إنعطاف تلك القوى نحو اليسار. وأصبح هذا أمراً لا تسعد به قيادة جبهة الميثاق الإسلامي، فقد كان ذلك يضعف إتهامها للشيوعيين بأنهم ملحدون.

حل الحزب الشيوعي:

لم تكن محاولات الأحزاب الرجعية لحل الحزب الشيوعي مفاجأة للقوى الديمقراطية خاصة بعد نجاح ثورة أكتوبر والتي لعب فيها الشيوعيون والديمقراطيون دوراً بارزاً وشجاعاً. فقد عودتنا القوى الرجعية وقبل الإستقلال وخلال الحكم الإستعماري بمحاربة العمل النقابي ووصفته بالشيوعية فقد نشأت أولى خلايا اليسار السوداني بما يسمى الحركة السودانية للتحرر الوطني ورمز إليها بـ (حستو) وقامت بنشاط مميز في الحركة النقابية تحت راية الجبهة المعادية للإستعمار وأزعج ذلك النشاط الأحزاب الأخرى التي تهتم بقضايا الطبقة العاملة وأفزعها إنحياز العمال خلال الإنتخابات إلى قائمة الجبهة وبذلت القوى الرجعية جهوداً مكثفة لكي تجذب العمال إلى قائمة مرشحيها ولكن باءت محاولاتها بالفشل وسعت أول حكومة وطنية للإستعانة بالحكومة البريطانية لتدعمها لكي تعزل الشيوعيين من قيادة الطبقة العاملة.

ورد في وثائق المخابرات البريطانية أن يحى الفضلي وزير الشئون الإجتماعية يصف الشيوعيين بأنهم قليلو العدد ولكنهم في غاية النشاط ويؤكد أن الحكومة تفكر جادة الآن في وضع تشريع لمحاربة النشاط الشيوعي وأنه قد تحدث إلى رئيس إتحاد العمال في بريطانيا بهذا الشأن وقد أعترض على مثل هذا التشريع وأكد المستر (ميلر) ليحي الفضلي أن ظروف السودان تختلف عن إنجلترا، وشعبه يختلف عن الشعب البريطاني وأن تشريعاً لتحريم الشيوعية قد يناسب السودان ولكنه لا يناسب بلداً كانجلترا.

ويقول السفير البريطاني في ذات الوثائق: وزير الشئون الإجتماعية في حكومة الوطني الإتحادي عدو لدود للشيوعية وصديق لنا. وقال إسماعيل الأزهري لسفير بريطانيا في السودان : لقد أرسلت مندوبين من قبلي إلى بورتسودان وعطبرة وكوستي بأوامر صريحة لمنع العمال من إعادة إنتخاب الشيوعيين بأي وسيلة بالرشوة أو الترغيب أو الإرهاب حسب ما تقتضي الحالة. وفي عام 1956 أعلنت حكومة الوطني الإتحادي أن إتحاد عمال السودان منظمة غير شرعية ونرفض التعامل معه .

ولم تكتف القوى الرجعية بمحاولات متعددة وفاشلة لكي تستولى على النقابات أو تحد من نشاط القوى التقدمية ولم تتوقف قيادة الوطني الإتحادي عن محاولاتها لوقف نشاط الحزب الشيوعي بل طلبت مساعدات مالية من بريطانيا لمحاربة الشيوعية في النقابات. كما أصدرت منشوراً مزوراً بإسم الحزب الشيوعي يهاجم الدين الإسلامي. وبعد إنتفاضة اكتوبر 64 وحصل الحزب الشيوعي ومرشحوه على أحد عشر مقعداً من خمسة عشر في قائمة دوائر الخريجين وأصبحوا الصوت المدافع والمنحاز لقضايا العمال والمزارعين والنساء والشباب وكافة القوى الوطنية، فزعت الرجعية وسعت بكل السبل لكي توقف هذا الزحف اليساري ونشط في هذا الإتجاه الإسلاميون (جبهة الميثاق) التي لم يكن لها دور في النضال ضد الإستعمار وظلت خبيئة بستار الأحزاب الرجعية وأستغلت الندوة التي تحدث فيها شاب زعم أنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي أساء إلى بيت الرسول الكريم ورغم أن الحزب الشيوعي نفى أية علاقة له بذلك الشاب إلا أنهم عدلوا الدستور لأكثر من مرة حتى أخرجوا نوابه من الجمعية التأسيسية ومنعوهم من ممارسة أي نشاط علني. ولم تكن هذه أولى تجارب الحزب الشيوعي ولم يمارس نشاطاً علنياً إلا بعد أن أبلى بلاء حسناً في إنجاح ثورة اكتوبر ولكن حل الحزب الشيوعي كان عليهم أمراً مستحيلاً وعصياً على التنفيذ فالحزب لم يكن عقدة تحل أو أمراً يزعن إليه كي ينطوي في ذمة النسيان. بل ظل يناضل عبر تجاربه وخبراته عميقاً في أفئدة شعبه وعضويته وسيظل كذلك حتى ينجح ثانية في إرساء قواعد الحركة الديمقراطية وسلطتها التقدمية.

في هذا الشأن كتب الشهيد عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي مخاطباً وزير الداخلية نافياً علاقة الحزب بذلك الطالب.. السيد/ وزير الداخلية بعد التحية، إستمعنا اليوم إلى بيان سيادتكم حول ما دار في الندوة التي إقيمت بالمعهد العالي للمعلمين مساء الثامن من هذا الشهر ونرجو أن نبدي الآتي :

أولاً : إن الطالب الذي تحدى مشاعر المواطنين في تلك الندوة ليس عضواً في الحزب الشيوعي السوداني.

ثانياً : إن ما جاء على لسان الطالب يقابل من جانبنا بالإستنكار التام والإشمئزاز.

ثالثاً : إن الحزب الشيوعي السوداني يحترم عقائد السودانيين ويحترم الإسلام بصفة خاصة. ولا يمكن للحزب الشيوعي أن يسمح بالإساءة إليه فهو الدين الحنيف الذي تؤمن به أغلبية شعبنا وهذه الحقيقة ثابتة في دستور الحزب الشيوعي الذي صدر قبل ستة أشهر من هذا التاريخ ويود الحزب الشيوعي أن يؤكد أن صفوفه تمتلئ بالمسلمين وبإصحاب الديانات الأخرى.

..سيادة الوزير دفعنا بإرسال هذا الخطاب إليك حرصنا على سيادة النظام والقانون ومصالح بلادنا العليا التي يجب أن توضع فوق كل إعتبارات حزبية أو سياسية وننتهز هذه الفرصة أن نتوجه إلى كل القوى الشعبية الملتفة حول الحزب الشيوعي بأن تحافظ على الهدوء وتتحلى بضبط النفس0

حفظ الله السودان المستقل الديمقراطي

توقيع

عبد الخالق محجوب عثمان

قلت للوزير : «والله هذا عين الخطأ .. » فلم يعجبه كلامي وانصرف ..!

(الحلقة الــ (6))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

قضية الجنوب :

ومن بين قرارات مايو (في ايامها الأولى وبالتحديد في التاسع من يوليو 1969م أعلن نميري الحكم الذاتي الإقليمي للجنوب وكانت هي المرة الأولى التي تقدم فيها حكومة وطنية حلاً جذرياً لمشكلة الجنوب وقد جاء القرار منسجماً مع ما أدلى به الحزب الشيوعي السوداني حينما كان في بداية نشاطه السياسي بإسم الجبهة المعادية للإستعمار حيث ورد في برنامج الجبهة في إجتماعها مساء الثلاثاء الموافق 21 سبتمبر 1954م أي قبل سنتين من الإستقلال، في ذلك الإجتماع ورد ما يلي : ترى اللجنة التنفيذية للجبهة المعادية للإستعمار أن حل مشكلة الجنوب يتم على الأساس التالي : تطوير التجمعات القومية في الجنوب نحو الحكم المحلي الذاتي في نطاق وحدة السودان. إن موضوع مشكلة الجنوب يشكل مسألة هامة وعاجلة في حياتنا السياسية اليوم، حتى أصبح موضوعاً خطيراً على وحدة البلاد وعلى حرية إخواننا الجنوبيين، إن الحقيقة التي نهتدي بها لحل هذه المشكلة هي حقيقة وجود قوميات متعددة في بلادنا. ففي الجنوب توجد القوميات الزنجية وفي الشمال النوبية وفي الشرق البيجاوية وفي الوسط والغرب العربية. إن تعدد القوميات هذا قد خلق فوارق في التقدم بينها والذي يحدث دائماً هو أنه في حالة نمو بعض القوميات كما يحدث في حالات الاستقلال الوطني فإن هذه القوميات لا تتمكن من مجارات الظروف الجديدة إلا بقيام حكم محلي ذاتي لها يكون قريباً من مشاكلها فيستطيع حلها ويعمل لتطوير المناطق بما له من دراية بشئونها وعاداتها. ولقد كان قيام الحكومات المحلية في كثير من أنحاء السودان حاجة ضرورية لتطوير تلك الأنحاء التي تمشي مع التطور العام في البلاد .

إن المشكلة الناشئة في جنوب السودان مردها إلى حقيقة أن تلك القوميات كانت تعاني تأخراً شديداً في الفترة الماضية. وقبل ستين عاماً كان أهلها يؤخذون ليباعوا في سوق الرقيق وقد ساعد الإستعمار البريطاني الذي يعمل وفق سياسة (فرق تسد) ساعدها على تركها على تأخرها حتى يستغل تلك الفوارق بإطالة أمد بقائه. إننا نواجه هذه المشكلة بهذه الحقيقة، ونرى أن حلها يكون بإعطاء القوميات الجنوبية المتطلعة للتقدم الآن، إعطاءها الإختيار في وضع مشاكل إداراتها الداخلية في حدود القطر الواحد السوداني سواء أن يكون هذا الشكل حكومات محلية أو حكومات ذاتية لها برلماناتها الخاصة وحكامها الخاصون .

إن نظام الحكم الذاتي ليس جديداً بل هو موجود في دول متعددة ، كما نعلم وهو لا يعني إضعاف الصلة بين اجزاء القطر الواحد ، بل على العكس فهو يقويها لأنه مشكلة يستعصى حلها من دون ذلك، والحكومات الذاتية في داخل القطر الواحد تختص بمعالجة المشاكل الداخلية ولكنها تمثل في (البرلمان العام المركزي) أيضا ، وتخضع لدستور البلد الواحد الذي يكفل وحدة القطر وسلامته والمحافظة على تقدمه .

ونحن حينما نقدم هذا المبدأ لحل مشكل الجنوب ، نقر بأن الوضع الحالي لقوميات الجنوب ليس مدروساً لدينا ، ولا لدى غيرنا في العاصمة وأن دراسته تقتضي الذهاب إلى هناك أو أن تجئ هي من هناك ولكن نرى أن هذا المبدأ للحل هو المبدأ السليم بل هو المبدأ الوحيد وتطبيقه يعتمد على الظروف. فإذا كانت ظروف قومية واحدة، أو عدة قوميات في الجنوب ورغبة أهلها تقتضي قيام حكم محلي أو ذاتي فلهم الحق في ذلك. كذلك نقر بأنه ليست لدينا وجهة نظر محددة عن الموقف بين القوميات السودانية الأخرى في الشمال والشرق إلا أنه مما يبدو لا توجد مشكلة حالية بالنسبة لها. ولكننا من ناحية المبدأ لا ننكر أنه إذا جاء وقت حتى ولو كان بعد الإستقلال بفترة طويلة واقتضت ظروف هذه القوميات نوعاً معيناً من الحكم الداخلي فيجب أن ينفذ. إننا نرى بأن الأحزاب الأخرى لا تعالج موضوع الجنوب على ضوء هذه الحقيقة العلمية. وفي هذا خطورة على وحدة البلاد أو على مصير هذه القوميات المختلفة. ونحن نرى أن الإستعمار قد سبب ولا يزال يسبب فتناً في الجنوب ولكن هذا وحده ليس بالتحليل للموقف. إذ أن الاستعمار لم يفعل هذا وينجح فيه إلا لأنه إستغل

القوميات المختلفة وأستغل موقف الأحزاب الخاطئ إزاء المشكلة مما قسم بعض الجنوبين وراء شعاراتها المختلفة وترك أغلبية الجنوبيين فريسة للحيرة واليأس. إن وحدة الجنوبيين يمكن أن تصان في حدود إقرار حقهم في إختيار نوع الحكم الداخلي الذي يريدونه وعلى إثر ذلك تتحطم مؤامرات الإستعمار وأذنابه لإضعاف وحدة البلاد السياسية. (إنتهى)

ونحن هنا نشير إلى هذه الدراسة والمبادرة التي قامت بها الجبهة المعادية للإستعمار ونضعها تذكرة للذين يدعون أنهم بادروا لحل قضية الجنوب إتكاءً على إتفاقية نيفاشا.

مهرجان الشباب والطلاب العالمي:

وينعقد مهرجان الشباب والطلاب العالمي مرة كل عامين بمبادرة من اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي ويشترك فيه الشباب من كل البلدان بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية والعقائدية لدعم الجهود العالمية في سبيل سلم دائم وديمقراطية شعبية وتقدم اجتماعي، وقد حرصنا خلال التحضير لهذا المهرجان علي إشراك العديد من المنظمات والشخصيات الوطنية لتحقيق أهدافه. ورحب الأستاذ بابكر عوض الله وقبل رئاسة اللجنة القومية للتحضير لهذا المهرجان، وجذب المهرجان اقساماً كثيرة من شباب الأحزاب التقليدية وكانت قياداته تهاجم هذه المهرجانات وتتهمها بأنها واجهة للدعاية الشيوعية ولكن شباب تلك الأحزاب الذي اقتنع ببرنامج المهرجان وأهدافه مارس ضغطاً شديداً علي قيادته مما أضطرها للموافقة علي اشتراكهم، وانضم إلى الوفد مجموعة من حزب الأمة والاتحادي الديمقراطي بل أن زعيمهم الشريف حسين الهندي وزير المالية آنذاك تبرع للاتحاد بطائرتين لنقل مجموعة من أعضاء الوفد، أما منظمة الشباب الوطني رافد جبهة الميثاق الإسلامي فقد أعلنت مبكراً معارضتها للمهرجان ووصفته بأنه مجرد دعاية للشيوعيين فعزلت نفسها وكانت منظمة الشباب الوحيدة التي لم ندعوها للمشاركة. وكان الأستاذ بابكر عوض الله في ذات الوقت مرشح الجبهة الاشتراكية لرئاسة الجمهورية واتسعت حركة الشباب في القرى والمدن والأقاليم وتوافد مئات الشباب لعضوية الاتحاد مما مكنه من تنفيذ الكثير من برنامجه في العمل التطوعي وإنشاء مراكز صحية واجتماعية وحملات واسعة لمحو الأمية، من أجل ذلك وقفنا خلف السلطة الجديدة بكل ثقة وثبات وحينما تنكرت لبرنامجها وأدارت ظهرها وقفنا بذات الصمود والثبات ضدها مساهمين مبادرين في إسقاطها .

مؤتمر وزراء الشباب العرب 1969م

كانت أول مشاركة لإتحاد الشباب في وفد حكومي، ولما كان المؤتمر خاصاً بالشباب فقد رشحت سلطة مايو إتحاد الشباب السوداني ليكون ضمن الوفد الوزاري لحضور المؤتمر في القاهرة، وكان من المفترض أن يكون الدكتور منصور خالد وزير الشباب والرياضة رئيس الوفد ، إلا أن جعفر نميري أبقاه ليصحبه إلى جمهورية كوريا الديمقراطية، تلبية لدعوة تلقاها من كوريا، ورشح خلفاً له أحمد عبد الحليم وكيل وزارة الشباب والرياضه، وكنت العضو الثاني ممثلاً لإتحاد الشباب السوداني. وعند هبوط الطائرة في مطار القاهرة طلب قائد الطائرة من المسافرين البقاء في مقاعدهم حتى ينزل الوفد الوزاري أولاً.. وكانت تلك أولى تجاربي في وفد حكومي رسمي، وبقيت مع الآخرين بالطائرة، وكان أحمد عبد الحليم بالدرجة الأولى . ورغم أنني عضو الوفد الوزاري إلا أن موظفي الوزارة استخرجوا لي تذكرة بالدرجة السياحية، فغادرت الطائرة مع بقية المسافرين، ولم ينتبه (رئيس) الوفد لوجودي بالدرجة السياحية، فنزل منفرداً ولم يلحظ أنني لم أكن برفقته. كان في إستقبال الوفد الوزاري الاستاذ محمد أبو العز وزير الشباب المصري وكبار موظفي الوزارة وبصحبتهم طفلتان تحملان باقتين من الزهور واحدة لرئيس الوفد وأخرى للعضو، ولما لم أصاحب أحمد عبد الحليم إعتقدوا أن عضو الوفد قد تأخر فعادت الطفلة حزينة لأنها لم تحظ بالتصوير خلال تقديم باقة الزهور. وفي طريقهم إلى غرفة كبار الزوار إنتبه أحمد عبد الحليم بأنني غير موجود فعاد المستقبلون وكنت قد ترجلت خلفهم فأعتذروا إعتذاراً شديداً وسبب ذلك بعض الحرج ولكني بسطت الأمر ودخلت معهم غرفة كبار الزوار.

في ذات الوقت كانوا ينتظرون الرائد زين العابدين محمد أحمد عبد القادر عضو مجلس قيادة الثورة قادماً في مهمة تتعلق بإنشاء الرقابة العامة مستفيداً من خبرة المصريين في هذا الشأن. وعند دخوله غرفة كبار الزوار إندفع نحوي في عناق ودي لفت أنظار المستقبلين وأدهشهم أكثر أننا جلسنا منفردين نتجاذب اطراف الحديث في بساطة وإرتياح. فقد ربطتني بالرائد عابدين علاقة خاصة قبل إنقلاب 25 مايو وكان آخر لقاء لنا خلال التحضير لمهرجان الشباب والطلاب العالمي حيث قدم لنا بعض المقترحات حول إختيار الفنانين الذين أردنا ضمهم إلى الوفد، وأخذنا بملاحظاته في الإعتبار. وظللنا ندردش مع بعض لفترة طويلة بعيداً عن الآخرين، كان بين كبار موظفي الإستقبال (ج.ن) لم يصدق أن عضو مجلس قيادة الثورة الذي يجلس معي بهذه الطريقة الوديه يخاطب شخصاً عادياً، وراح بعيداً في تفكيره إعتقاداً منه أنني عضو مجلس قيادة الثورة السري وظل يلاحقني ليفيدني بأن له دراسات عن حركة الشباب والطلاب يود تطبيقها في السودان وأنه يرغب في الإلتحاق بوزارة الشباب، قلت له إننا نرحب دائماً بخبرات أشقائنا المصريين ولكن إستيعابك في وزارة الشباب شأنٌ من إختصاص الاستاذ أحمد عبد الحليم وكيل الوزارة أما أنا فليست لي علاقة إدارية بالوزارة وإنما جئت ممثلاً تنظيماً شعبياً، لكنه لم يستوعب تلك الحقيقة فظل يطاردني طيلة فترة إنعقاد المؤتمر ويؤكد لزملائه بأنني شخص متواضع إذ كيف يصعب على عضو في مجلس قيادة الثورة أن يلحقني بوزارة الشباب.. ويبدو لي أن احمد عبد الحليم بشئ من (تحايله) قد زاد قناعته لينجو من

(الورطة) وظل (ج.ن) يلاحقني في الفندق وأنا أكرر له أنني أمثل تنظيماً شعبياً فيرد علي بإعجاب وإنفعال شديدين (أصلو حلاوتك في تواضعكو ده..!) وأخيراً وبعد محاولات يائسة معي إتجه إلى وزير الشباب الكويتي وأذكر أنني كنت يوماً عائداً من وسط القاهرة بعد الظهر فوجدته وبعضاً آخر من كبار الموظفين في بهو الجامعة العربية حيث ينعقد المؤتمر يجلسون في شكل دائري وأمامهم وزير الشباب الكويتي وكأنه مدرس يلقي درساً على تلاميذه أستفزني ذلك المشهد وهو جالس على مقعده رجلاً فوق رجل وأستفذني أكثر أن كان بينهم باحث عالم كانت إحدى أوراقه في جدول أعمال المؤتمر، وبعد التحية جلست بجانب الوزير ووضعت بدورى رجلاً على رجل وواصل حديثه قائلاً أنا مثلاً رئيس نادي رياضي في الكويت النادي المنافس طلب مني مساعدة 50 الف دينار صدقت له بالمبلغ وعندما علم فريقي بذلك طلبوا 50 الف دينار أسوة بالنادي الآخر فما كان مني إلا أن رفضت طلب الأول والثاني. فقال الأستاذ الباحث (.......) والله هذا عين الصواب يا سعادة الوزير! فزادني إنفعالاً وقلت للوزير والله هذا عين الخطأ ماذا يحدث لو صدقت بمبلغ 100 الف دينار وأنت المسؤول عن الشباب والرياضة وماذا يعني هذا المبلغ لدولة بترولية مثل الكويت؟ فلم يعجبه تعليقي وانتفض من مقعده وتغطى بالشال وتهندم بالعباءه وأنصرف فعتب علي الاستاذ (.....) قائلاً : ليه يا أستاذ الياس ده حنا خلاص طببنا الوزير وكنا حنروح الكويت سنة سنتين..؟ قلت له يا أستاذ : مش حرام عليكم تتركوا عبد الناصر محروماً من هذه القدرات؟ علمت أخيراً بأن الخبير (ج.ن) قد تم إختياره وألحق بوزارة الشباب والرياضة ويبدو أنه قد أقنع أحمد عبد الحليم. بتنفيذ برنامجه للشباب والرياضة.

6

النميري وكت دخل الـدار .. الطير أم «قم قم» قدلت نهار ..!

(الحلقة الـ (7))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئسياً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

مع نميري في جنوب كردفان :

في أيام مايو الأولى أدخلت تقاليد جديدة في البروتوكولات أصبح الوفد الرسمي لرئيس مجلس قيادة الثورة يتكون من بعض المنظمات الجماهيرية إضافة إلى المسؤولين الآخرين من أعضاء المجلس ووزراء ووكلاء وزارات وكانت تلك بداية خبيثة وغير معلنة لاحتواء المنظمات الجماهيرية التي فشل المنشقون في تطويعها لتكون تحت مظلة الوزراء المعنيين. بدأت أولى الرحلات الى جنوب كردفان وكنت وعبد الوهاب الشيخ نمثل اتحاد الشباب السوداني وكانت الاستقبالات رائعة ومشحونة بالحماس والتفاؤل وتعاقب الشعراء والخطباء بتجسيد تلك العواطف الحقيقية وبساطة أهل كردفان. جاءنا في استراحة كادقلي رجل قالوا انه شاعر يود مخاطبة الريس ببعض من شعره

وكنت في تلك الرحلة أجمع كثيراً من مقولات وكلمات وردت في الاستقبالات فأشاروا إليه بمخاطبتي زاعمين له أنني سوف أبلغ الريس بما يدلي به. فوقف الرجل في حماس شديد وعفوية لا تخطئها العين ليقول :

النميري وكت دخل الدار
الطير أم قم قم قدلت نهار
الكديس خاف من الفأر
والخائن ما جاب مرة جار
وام ضريسة تاني ما بتطعن نعال
يعيش النميري
وفي (كورتاله) وقف أحدهم يهتف :
في (كورتاله) نحي الثورة نحي رجاله...
وواصل :
يعيش النميري رئيس الوزراء..
أنا كنت مقفول ودوبا مفتاحي جا..
مقفول كيف البخسه البكما..
يعيش النميري..

وكان رجال الأمن المصاحبون لنميري يرصدون تلك اللقاءات ولكن بأفئدة تجافي الظن الحسن ودفعهم إلى ذلك محمود حسيب وزير المواصلات وهو من أبناء جنوب كردفان، كان يوجه نميري نحوي كلما رآني أقف مع المجموعات التي تحمل لافتات إتحاد الشباب السوداني مشيراً إليه بأن الشيوعيين أرسلوا من الخرطوم مجموعة لكي تحرض المواطنين ضد الثورة وكان هاشم العطا يجلس بالقرب من نميري في الصيوان فأوضح له أن ذلك الشخص هو رئيس إتحاد الشباب السوداني وهو عضو ممثل له في هذا الوفد وليس موفداً من الحزب الشيوعي كما ذكر الأخ محمود، ولكن النميري لم يحفل بتعليق هاشم العطا إذ أن المسافة بينه والشيوعيين بدأت تتسع وجاءني خلال ذلك اللقاء ضابط من جهاز الأمن المرافق وحاول إجراء تحقيق معي فرفضت وقلت له : إن كان لديك شأن معي عليك أن تستفسر من رئيس الوفد نميري، لأني عضو فيه، وكان بادياً على الضابط الضيق من تعليمات حسيب.. الذي طلب منه التحقيق وأنصرف ولم يحاول مرة أخرى، وحقيقة الأمر أنه كلما دخلنا قرية في جنوب كردفان نلاحظ لافتات كثيرة مكتوب عليها إتحاد الشباب السوداني يرحب برجال الثورة وشعارات مختلفة لتأييد الثورة والتضامن معها وحرصت على التعرف عليهم وتسجيل أسمائهم وعناوينهم لكي يتم الإتصال بهم وتسجيل فروعهم حتى تتواصل الصلات معهم من المركز وايفاد ممثل مصحوب بدستور الإتحاد وبرنامجه فقد نشأت هذه الفروع دون توجيه... وفي لقاء مع أحد الفروع هناك، عقدت إجتماعاً تعريفياً ودار بيننا نقاش طريف حول الإتحاد وعضويته وأهلية المنسوبين إليه، سألني شخص قيل أنه سكرتير المالية : ممكن واحد من حزب أمة يكون عضو؟ قلت نعم.. وممكن واحد من حزب الإتحادي؟ قلت نعم.. وممكن واحد ما عنده حزب يكون عضو؟ قلت نعم.. طيب ممكن شيوعي يكون عضو؟ قلت نعم.. فوقف منفعلاً قال الآن أنكشف الغموض في إتحاد الشباب السوداني.. وقبل أن ارد عليه أعلنوا عن تحرك الوفد إلى منطقة أخرى، فوعدتهم بعودتي أو أي زميل آخر يوضح لهم أهداف وبرنامج إتحاد الشباب السوداني. ولما تم اعتقالي سألوني عن القصيدة التي زعموا انها تسئ الي نظام مايو ولم يصدقوا ما دار مع ذلك الرجل البسيط وزعموا ان تلك الكلمات ليست هي التي سمعوها وأنني أخفيت كلاماً آخر يهاجم الثورة وأدى ذلك الاعتقاد الى استدعائي في جهاز الأمن والتحقيق معي لساعات طويلة، وسألوني عن الخائن والكديس وكأنهما كلمتان ترمزان إلى جعفر نميري، وكان التوتر والقطيعة بين الحزب الشيوعي والسلطة قد بلغت مرحلة تعذر معها التفاهم والاتفاق0 ولكن جعفر نميرى ظل يقترب من المنظمات الجماهيريه بتوجيه من المنشقين بدعوى أنه سيكسب هذه المنظمات لان معظمها يحاول الهروب من نفوذ عبد الخالق في تلك الرحلة الي جنوب كردفان وعند رجوعنا الي مدينة كادوقلي وفي ساعة الإفطار سألني زين العابدين محمد أحمد عبد القادر عضو مجلس قيادة الثورة- قائلاً : عبد الخالق عاوز مننا شنو؟ قلت لماذا؟ قال انه جاء الي هنا ووزع منشورات وانه رفض الاجتماع بنميري، سألته عن مضمون المنشورات أجاب بانه لم يطلع عليها، قلت له ربما كان فيها دعوة لتأييد ودعم للثورة اما فيما يختص برغبة نميري في الاجتماع به وعند عودتنا فسوف ابلغه بذلك ولا اعتقد أنه يرفض مثل هذا اللقاء.. أما ان عبد الخالق جاء الي كادوقلي لكي يوزع بنفسه منشوراً فهذا ما لم يحدث.. فأنت تعرف مقدرة الحزب الشيوعي في توصيل وثائقه للجماهير.. وبإمكانه عبر فروعه المختلفة أن يوزع أي منشور على نطاق القطر في يوم واحد وساعة واحدة حتى في غياب قيادته حينما يودعون في المعتقلات، ولا أخالك تجهل هذه الحقيقة فأنت صديق لعدد من الشيوعيين! وعند عودتنا الى الخرطوم بالقطار ذهبت مباشرة الي منزل عبد الخالق وكان برفقتي عبد

الوهاب الشيخ عضو سكرتارية اتحاد الشباب السوداني، وجدنا معه بابكر كرار، فأستأذن منه وجلس معنا فأخبرته بما دار مع زين العابدين وعدم رغبته ?أي عبد الخالق في مقابلة نميري، لم يطنب في الحديث وقال : أنا عاوز خمسة دقائق فقط، ولكن بعض الأخوان هم الذين حالوا دون هذا اللقاء في إشارة واضحة إلى أحمد سليمان المحامي ومعاوية ابراهيم سورج وآخرين ممن خلعوا حياءهم والتزامهم الحزبي وسجدوا تحت أقدام نميري فصار يشغف بالاستماع إلى التهريج والكذب عن عبد الخالق الذي صاغه له المنشقون على نحو يغيب فيه عن الوعي وحين تفرغ كأسه ويلتمع في عينه الحقد والانتقام يتوعد بتصفية عبد الخالق وجماعته، ويؤكد له أحمد سليمان أنه بتصفية عبد الخالق محجوب ستنهار (الجماعة) و(سينحازون) إلى ثورة مايو. أما بقاؤه على قيد الحياة فهو الخطر الذي يحيق بمستقبل (الثورة) واحكموا حوله السياج كي لا يلتقي بعبد الخالق لأنهم يعلمون مدى تأثيره عليه وكشف كل أكاذيبهم ومؤامراتهم.

مهرجان الشباب في الجنوب 1970م:

وتوجنا تلك المناشط باقامة مهرجان للشباب في الإقليم الجنوبي بمناسبة مرور عام علي قرار 9 يونيو الذي أعطي جنوب السودان الحكم الذاتي الإقليمي وكان حدثاً هاماً اشترك فيه ممثلون لمنظمات الشباب العالمية وقدمت دعماً كبيراً من البعثات الدراسية والمعدات الطبية والموسيقية وخلافها، وأعلنت استعدادها لاستقبال وفد (نميري) إلى شرق أوربا.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي ينعقد فيها مهرجان للشباب و الطلاب في الجنوب مما أكسب إتحاد الشباب السوداني ثقة أشقائنا هناك، وإنخرطوا في صفوف الإتحاد في كل المديريات الجنوبية وحضره عدد من المعارضين من أبناء ذلك الإقليم وأنفعل بعضهم من قياديين الذين عادوا خصيصاً لحضور المهرجان حينما شاهدوا الشباب والشابات وهم يؤدون نماذج متعددة من المناشط التي نجح في إعدادها الدكتور حسن أبو جبل، بل إن أحد القياديين العائدين وقف بإنفعال شديد في منصة المهرجان فقال: إن ما يشاهده هنا يؤكد قدرة أبنائنا على الإستيعاب والتآخي مع أشقائنا في الشمال وإنني عائد إلى الغابة لكي نعد أنفسنا للعودة والمشاركة في تنمية البلاد وتطورها. وكان قد أعجبه العرض الرياضي الذي تم بصورة ممتازة، وفي أيام قليلة بفضل المجهود الذي بذله الرياضي المرموق الدكتور حسن أبو جبل.

وظل النظام يشرك الاتحاد والنقابات واتحادات المعلمين وخلافها في كل الوفود الرسمية التي طافت أقاليم السودان والدول الأوربية في شرق أوربا وجمهورية كوريا الديمقراطية في محاولات خبيثة لكي يستقطب التنظيم ويصبح أداة رهينة ارادة السلطة خاضعا لتوجيهات وتسيير الوزراء المعنيين .... وعندما تعذر ذلك أنشأ تنظيما أسماه (كتائب مايو) في محاولة لخلق مركز مناوي ولكن التنطيم ولد ميتا وانفض الشباب من حوله ومع ذلك أبدينا كل استعداد للتعاون في تنفيذ أي برنامج مشترك يعود بالنفع ، ولكنهم باتوا يرددون أن اتحاد الشباب السوداني (يظل تنظيما للصفوة)، ويبقي تنظيم كتائب مايو تنظيماً واسعاً ليستوعب الشباب من مختلف الاتجاهات بما في ذلك أعضاء الاتحاد وهو أمر بادر به اتحاد الشباب السوداني وضمنه دستوره منذ تأسيسه ولم يمانع في استقطاب كتائب مايو عضواً فيه إن رغبوا وتتسع بذلك حركة الشباب وتتعدد منابرها وبرامجها وذلك اقتناعاً منا بأن تنظيم الاتحاد لم يستوعب كل القوي الشابة وان فرصاً متوفرة للاستجابة إلى هذه القوي وفقاً لاهتماماتها المتعددة والتي لا يمكن أن يستوعبها تنظيم واحد.

7

قصة القرار الثوري في بلغاريا .. وكيف اندهش ابو القاسم لهذا التصرف..؟!

(الحلقة الـ (8))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي

أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

مع نميري في شرق أوربا يونيو 1970م

وواصل نظام مايو تقليداً بروتوكولياً غير مسبوق باشراك المنظمات الجماهيرية في الوفود الرسمية التي زارت الأقاليم والبلدان الاشتراكية واستثني في تلك الأيام (رومانيا) لموقفها الموالي لإسرائيل. كنت بين الوفد الذي زار كلاً من يوغسلافيا-بلغاريا-تشكوسلوفاكيا-بولندا-المجر-ألمانيا واستقبل الوفد استقبالاً رائعاً واعدت لمندوب كل منظمة جماهيرية برامج خاصة للوقوف علي مناشط المنظمة المقابلة وانهالت المساعدات بقدر كان من الممكن أن يسهم بشكل إيجابي في تطوير برامج متعددة إن هي استجيب لها من قبل السلطة. اذكر أن شباب ألمانيا الديمقراطية تبرع بإنشاء قري نموذجية في المديريات الجنوبية ومجمع معاهد لتدريب كوادر فنية ومراكز صحية. وكذلك تبرع الشباب السوفيتي الذي أعد وفداً لزيارة جنوب كردفان لحفر آبار لمياه الشرب وإنشاء حظائر للماشية والدواجن ومصنع أعلاف وتدريب عدد من أبناء المنطقة بمختلف المهن الفنية كذلك أبدت منظمات أخرى إستعدادها لتنفيذ مشروعات تقدم لها دراسات جدوى وطلبوا فقط إستعجال تلك الدراسات ووعدوا بإيفاد فنيين وإخصائيين للمساعدة في التحضير. ولكن الحساسية التي بدأت تتعاظم ضد الشيوعيين والشيوعية حرمت البلاد من مساعدات كثيرة قدمتها منظمات الشباب في البلدان الاشتراكية مثل إنشاء قري نموذجية في الجنوب ومراكز حديثة لمحو الامية ومستوصفات صحية الي جانب المنح الدراسية التخصصية في الطب والهندسة وخلافه. وكان الطلاب السودانيون في تلك البلاد في لقاءاتهم مع الوفد يوجهون اسئلة محرجة للرئيس نميري عن اسباب اعتقال عبد الخالق محجوب في الوقت الذي يضم فيه الوفد المرافق مجموعة من اعضاء الحزب الشيوعي،ولم يكن رده مقنعاً وفي كثير من الاحيان يضيق بالسؤال ويتجاهله وظل الطلاب في كل البلدان الاشتراكية يلاحقونه بالأسئلة مستنكرين تنكر (ثورة مايو) للدعم الذي وجدته من الشيوعيين والقوي الديمقراطية والطبقة العاملة. وكان احياناً يردد ما لقنه له المنشقون عن الحزب الشيوعي بأنه ليس ضد الشيوعيين وانما ضد جماعة عبد الخالق الذين وصفهم بالثورة المضادة وان سلطته لا تزال بها كوادر من الحزب الشيوعي، ويشـــير بذلك الى احمد سليمان ومعاوية ابراهيم سورج وآخرين.

الطلاب في بلغاريا:

في ذلك اليوم كنت ضيفاً

علي منظمة الشباب البلغاري في الريف خارج العاصمة صوفيا في مدينة (بلوفدوف) عدت منها مباشرة الى المطار. وعندما اقلعت الطائرة وكانت طائرة خاصة ومعدة بكراسي في شكل يمكن من الجلوس في شبه دائرة، جاءني (منير حمد أمين عام مجلس قيادة الثورة وكان ضابطاً بالقصر ومرافقاً لنميري) جاء يخطرني بأن (الرئيس) يود لقاءك. تحركت الي مقدمة الطائرة وجلست مقابلاً له، بادرني بالقول انت لم تشهد المشاكل التي بدرت من الطلاب وأنا قررت فصلهم واعادتهم الي السودان فوراً. وقد لاقي ذلك القرار استحساناً من أعضاء الوفد مرددين: قرار ثوري يا ريس!! وكنت قد علمت ذلك من أحد أعضاء الوفد. قلت لنميري: الطلبة في بلغاريا، قال أيوة!! الكانوا في المظاهرة والقاعدين في الداخليات؟ قال: ايوة، قلت له: نحن يا ريس جينا هنا وخلينا في المحطة الوسطي اكثر من ميتين طالب بدون عمل او دراسات جامعية، وبلغاريا فيها الليلة اكثر من اربعمائة طالب وفيهم واحدين في السنوات النهائية. لما يرجع عدد زي دية يعني الثورة حتكسب غضب اربعمائة والد واربعمائة والدة وجيران واصدقاء ومعارف؟ تستغلها الثورة المضادة!! وسؤال ثان يا ريس هل استفسرت عن الاسباب اللي خلت الطلبة ديل هايجين؟ قال: ابداً!! قلت له: إن هؤلاء الطلاب حريصون علي استمرار الثورة ولكي يتم ذلك انهم بالتأكيد يودون التزامها بما طرحت من شعارات وبرامج وليسوا هم ثورة مضادة. اضافة الي اننا نحتاج لكثيرين منهم الاطباء والمهندسين والمهنيين ولعل حرصهم علي نجاح الثورة هو الذي دفعهم لذلك الحماس وكان الأفضل ان تجتمع بهم وتقف علي وجهة نظرهم وتبين لهم ما يبدو لهم من تناقض او تجاوز لما ورد في بيانات الثورة وما طرح فيها من برامج, قلت أكيد فيهم ناس ما موافقين

علي الحاصل من زملائهم أو لهم رؤية أخرى لتجاوز سوء الفهم. لو تأخذ برأيي انا مستعد ارجع في زيارة خاصة إلى بلغاريا واناقش الطلبة واكتب ليك تقرير مفصل عن هذه الاحداث. وفي رأيي ان الطلبة ما يرجعو البلد.. أطرق قليلاً ثم نادي مهدي مصطفي قائلاً: يا مهدي الطلبة ما يرجعوا. وعند عودتي الي مقعدي جاءني ابو القاسم محمد ابراهيم ليقول لي: والله لاول مرة اشوف (نميري) يستمع لي زول اكثر من خمس دقائق.. قلت له: لكن دا قرار كويس عشان تقولوا (ثوري يا ريس؟؟) انت عضو في مجلس الثورة وتتحمل نفس المسؤولية ليه ما تناقشوا قرارات زي دي تصدر في حالة انفعال و(نميري) رجل مش سياسي وتجربته في الحكم كلها سنة لازم تتشاوروا في اتخاذ قرارات خطيرة زي دي!! انا شخصياً ما عرفت نميري قبل 25 مايو ولا يمكن اتفق معاه في تصرف زي دا!! لم يستطع صبراً وغاب مع (الطبالين) وهمس في اذن احدهم الزول ده غواصة لصاحبنا ويعني ما اطلقوا عليه جناح عبد الخالق وكان ذلك احد الاسباب التي وضعت اسمي في قائمة المعتقلين اضافة الي موقعي في اتحاد الشباب السوداني الذي اعتبره نميري احد المنظمات المعادية لثورة مايو.

في وزارة الشباب:

وفي فترة غاب فيها وزير الشباب والرياضة في مهمة خارج البلاد تولي (نميري) مهام الوزارة ودعانا الي اجتماع معه في وزارة الشباب نحن اعضاء السكرتارية حضره الاستاذ احمد عبد الحليم وكيل الوزارة. اشاد النميري بدور اتحاد الشباب السوداني مشيراً الي بعض المشروعات التي افتتحها او وضع فيها حجر الأساس وطلب منا ان يكون مهرجان الشباب في الخامس والعشرين من مايو بدلاً عن اليوم التاسع في يونيو الذي اخترناه ليكون الذكري الاولي لقرار الحكم الذاتي الاقليمي للجنوب ووافقنا عليه وتم بالفعل. ثم تحدث عن وزارة الشباب وما يتوفر بها من امكانات لعمل الاتحاد من الآت طباعة ومواصلات وخلافها واقترح علينا ان نعمل من داخل الوزارة في إشارة للإشاعة التي رشحت في البلد ورددها بتعيين وزير الشباب من أحد قادة إتحاد الشباب السوداني وكان اقتراحاً متناسقاً مع الأسلوب الذي اتبعته مايو لاحتواء المناشط الجماهيرية بعد ان فشلت (كتائب مايو) المنظمة الشبابية التي انشأتها وزارة الشباب ولكنها فشلت في استقطاب جماهير الشباب وحاول احمد عبد الحليم ان يجمل الاقتراح بأن يكون (اتحاد الشباب) تنظيماً للصفوة. قلنا لنميري بعد ان شكرناه علي المبادرة وخاطبناه باللغة التي يفهمها دون ان نكشف ما انطوت عليه سلطة مايو لاخضاع منظمات الشباب ومثيلاتها لنفوذ السلطة: ان اتحاد الشباب تنظيم جماهيري يعتمد علي العضوية الاختيارية والجهد الطوعي وان عمله من داخل الوزارة سيحوله الي تنظيم بيروقراطي ينتفي منه روح العطاء والبذل ويصبح اعضاؤه في النهاية موظفين في الخدمة المدنية يأتمرون بتوجيه رؤساءهم ويتحول جهدهم ومبادراتهم الي انشغالهم بمزايا الوظيفة والسعي نحو الترقيات والعلاوات وخلافه. تضجر (نميري) من الرد عليه وملأ فمه من التمباك وقال ده رأي الشيوعيين؟ قلنا له: انه تنظيم ديمقراطي ويتخذ قراراته وفقاً لأغلبية اعضائه التي لم تكن شيوعية! قال: انتو قايلين انا عندي قنبور. ونهض الي الحوض ليودع فيه (السفة) ويعود الي مقعده. قلت له: والله ما شايفين (قنبور ظاهر علي رأسك)!! كان المنشقون من الحزب الشيوعي قد اقنعوه بأن المنظمات الجماهيرية والنقابية ما هي الا واجهة لما اسموه جناح عبد الخالق ولعب دوراً نشطاً في ترسيخ هذا الاعتقاد المنشق احمد سليمان المحامي وزميله المنشق معاوية ابراهيم سورج اللذان انسلخا من اللجنة المركزية واصبحا (اراجوزاً) في يد جعفر نميري حتي اعتصرهما وأفرغ ما توفر لهما من تجارب وخبرات خلال نشاطهما في الحزب الشيوعي وحين قوي ساعده واستلقي بكلياته في احضان اليمين الرجعي اعرض عنهما ولفظهما وارتمي احمد سليمان في احضان الجبهة الاسلامية القومية فاعتصرت ما تبقي من خبراته في التآمر والانقلابات حتي اذا ما نضب معينه وجف من عوده الندى وتعري لفظته بدورها فراح يردد في مجالسه الخاصة وهو حسير: الفكاني من الشيوعيين يفكني من (...... ديل) وكان يعني الجبهة الاسلامية القومية. فتفوه بكلمات متسخة يأنف قلمي عن كتابتها.

حكايات وذكريات إعتقالات «30» مايو في سجن كوبر

(الحلقة الـ (9))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

مؤتمر إتحاد الشباب السوداني

بالخرطوم أبريل 1971م :

لم يكن في تعليق نميري ما يفاجئ أحدا فقد بدأت العلاقات في السوء مع الشيوعيين وبذلت (مايو) عبر المنقسمين من الحزب الشيوعي محاولات بائسة ليخلق بدائل للمنظمات الجماهيرية والنقابات ولكنها لم تفلح وحاولت احتواءها فأخفقت. ولم تنجح كتائب (مايو) في جذب الشباب ولم يكتب لها البقاء. ورغم ذلك أبدينا استعدادنا لتنفيذ أي برنامج مشترك ولكن دون جدوي. وبلغ العداء قمته حينما اتخذ (مجلس قيادة الثورة) قرارا بحل اتحاد الشباب السوداني. كان ذلك في أبريل 1971 خلال انعقاد مؤتمر الاتحاد وظل القرار دون اعلان حتي انتهي المؤتمر وغادرت الوفود التي حضرت من المنظمات العالمية وفي مقدمتها اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي وكان المؤتمر حدثا تاريخيا مهيبا اذ اشترك فيه شباب العالم ممثلا في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي وممثلون للشباب من : الاتحاد السوفيتي بلغاريا رومانيا المجر تشكوسلوفاكيا بولندا كوبا كوريا سوريا العراق لبنان اليمن وجميع دول غرب أوروبا وأمريكا. وانعقدت الجلسة الافتتاحية في ميدان الأمم المتحدة في تظاهرة شبابية لافته وشارك فيها بالأناشيد الوطنية الفنان محمد وردي عضو اللجنة التنفيذية لاتحاد الشباب السوداني والفنان محمد الأمين. وكان المنشقون قد بذلوا جهودا مضنية لإفشال المؤتمر وقاموا بالطواف علي فروع الاتحاد في الأقاليم اغراءا وتهديدا كي لا يشتركوا في المؤتمر وحاول معاوية إبراهيم سورج وزير العمل استغلال سلطاته لشق فروع الاتحاد ولكن باءت كل تلك المحاولات بالفشل فأوعزوا إلى نميري بحل الاتحاد وتعطيل نشاطه فأصدر بالفعل قرارا من مجلس الثورة يحظر نشاطه خلال انعقاد المؤتمر ولكن لم يعلن ذلك القرار إلا بعد أن غادرت الوفود العالمية وبدأت بعد ذلك اعتقالات قيادته في العاصمة والأقاليم وكذلك النشطاء من المنظمات الجماهيرية التي طالها أيضا الحل.

اعتقالات 30 مايو 1971م

بعد ذلك جرت اعتقالات كثيرة بين النشطاء في كل المنظمات الديمقراطية والنقابات والاتحادات الطلابية والمهنية. وفي الثلاثين من مايو 1971م وخلال ساعات العمل جاءني ضابط من الأمن في بنك السودان حيث كنت أعمل وطلب مني مرافقته فأخبرت السيد/ مهدي الفكي وكان مديرا للعلاقات الخارجية بالقسم الذي عملت به فرجاني الانتظار حتى يجري بعض الاتصالات ولكني أخبرته بأنني متوقع ذلك لأني علمت بأن قرارا قد صدر باعتقالنا وشكرته علي تلك المبادرة الجريئة، وكان جادا في محاولته لمنع ذلك الاعتقال لما تمتع به من علاقات واسعة خلال قيادته للعمل الرياضي بنادي المريخ والذي عملت بعض كوادره في الجيش والبوليس وبعضهم الحق بجهاز الامن القومي وأن بمقدوره (أي مهدي) التأثير عليهم ولكني خشيت عليه من اتهامه بانتمائه أو تعاطفه مع الشيوعيين. وكان الذعر قد بلغ ذروته في جهاز الأمن وانكروا العلاقات الإنسانية الاجتماعية التي تربط بين الأهل والأصدقاء حتى أنهم خالوا أن لقاءات الختان والزواج والسماية ما هي إلا اجتماعات سرية وراحوا يعتقلون المواطنين ويتابعون خيام المآتم وصيوانات الأفراح مما أدخلهم في كثير من الحرج. اذكر أن أحدهم كان يتابع أحد النشطاء جاء الي العزاء فجلس بالقرب من أحد أقارب المتوفى ولما كان أصحاب المأتم يودون التعرف علي المعزي سأله أحدهم فقال: كان المرحوم صديقي ولكن المرحوم كانت والدة السائل فانكشف أمره، لذا خشيت علي الأستاذ مهدي

الفكي من أن تفسر مبادرته تلك تفسيرا خاطئاً ويلحقون به الأذى اعتقالا كان أو اقصاء من الوظيفة، له خالص تقديري. وأخيراً أذن لي بمرافقة مندوب جهاز الأمن.

وفي موقف مماثل لشهامة أولاد البلد اذكر أن أحد مواطني حي الضباط عندما سمع في الراديو نبأ اعدام عبد الخالق محجوب راح يصرخ في الشارع مفجوعا حزينا يسال الناس في الحي لماذا لم يأتوا به لاخفيه وكان الرجل عضواً في الحزب الوطني الاتحادي. وكثيرون غيره فتحوا دورهم لاستقبال المطلوبين من أجهزة نميري ونقلوهم بعرباتهم الخاصة من موقع لآخر، لهم التقدير والتبجيل والاحترام.

وخرجت مع رجل الأمن الي وزارة الداخلية حيث تسلم خطاباً من الضابط (النبطشي) معنون إلى كمندان سجن كوبر فيه أمر إعتقالي ولاحظت في ورقة أخرى بالقرب منه أسماء مجموعة من الاخوة المطلوب إعتقالهم فطلبت منه السماح لي بالتحدث مع أسرتي لأخبرهم بمكاني فأذن لي مشكوراً فإتصلت بأخ عزيز أعلم أنه مريض وليس عضواً في الحزب يعاني من آلام الكلى وكان أسمه في قائمة المطلوبين للإعتقال فاختفى فترة عند أهله في الجزيرة وعاد بعد أن هدأت تلك الحملة ونجا من الإعتقال.

دخلت إلى كوبر وكانت هي المرة الأولى حيث وجدت عددا من نشطاء تلك المنظمات: الاستاذ عباس على الاستاذ جعفر ابوجبل الاستاذ مصطفي محمد صالح الدكتور مصطفي خوجلى الدكتور محمد سليمان الدكتور محمد سعيد القدال الدكتور عبد القادر الرفاعى السر النجيب ، جلال السيد، حسن شمت، الخاتم عدلان، أحمد عبد الله هلال، سعودى دراج، صالح البحر، عز الدين داؤود محمد نور السيد الدكتور يحي عمر حمزه في قسم المديرية وهو مبني مكون من ثلاثة عنابر في واحد منها مجموعة من الأنصار وامام مسجد السجانة وكانت (المعاملة) وهو قسم خاص بالسجناء الذين توصي المحكمة بمعاملة خاصة بهم فتتوفر لهم السراير في غرف بها الاضاءة والمراوح ومطبخ خاص. في هذا القسم أيضا كان بعض المعتقلين ومن بينهم أحد المواطنين الذي جاء من أحد أقاليم السودان لذويه في أم درمان بحي (ودنوباوي) وفي طريقة اليهم قبضوه بتهمة الاشتراك في أحداث تلك الأيام فجئ به الي كوبر ولكن كبر سنه ومرضه أضطر ادارة السجن لادخالة (المعاملة) وببساطة فقراء القري سعد كثيرا ببقائه وحصوله علي وجبات منتظمة وفحوصات طبية فألف البقاء في السجن. وحين اكتشف جهاز الأمن أنه ليس له أية علاقة بعمل سياسي أو عدائي قرروا اطلاق سراحه. فجاءه (الشاويش) متهللا ليبشره باطلاق السراح كانت مفاجأة مذهلة فسأل (الشاويش) يا ولدي مالكن أنا سويت حاجة غلط؟؟ قال الشاويش : لا يا أبوي أنت خلاص ماش أهلك!! يا ولدي ماتخلوني شوية!! وكثيرون من أمثال هؤلاء البسطاء سيقوا قهرا الي المعتقلات بلا تحقيق أو مساءلة وظللنا (ندردش) معهم وعن المعاملة التي كانوا يتلقونها ونحن ما زلنا ننتظر ادارة السجن لنعرف ما اذا كنا سنبقي في هذا القسم أو قسم آخر به الأسرة ومستلزمات الاقامة التي تصورناها.

وبينما نحن وقوف نجول داخل العنبر جاءنا مأمور السجن (عثمان عوض الله) يصحبه بعض المنتظرين.. والمنتظرون هؤلاء هم مجموعة من الشباب أغلبهم من أبناء الاقليم الجنوبي يتحفظ عليهم إثر حوادث قتل تقع خلال شجار بين قبيلتين بعد جلسات طويلة في (الإنداية) يشربون فيها ما يذهب بعقولهم ويسقط بينهم قتيل أو اكثر ولا يمكن تحديد القاتل فيودعون جميعا في السجن ويبقي بعضهم لسنوات طويلة دون تقديمهم الي محاكمة. وقد ساعدهم المحامون من المعتقلين فيما بعد بالموجهات القانونية. وحين غادروا المعتقل تمكن المحامون من اطلاق سراح العديد منهم دون مقابل بل ساعدوا البعض الآخر للحاق بأعمال مناسبة لقدراتهم أما الذين يبقون في السجن فإنهم يسخرون لخدمات مختلفة نظير بعض المواد التموينية من سكر وزيادة وجبات من (الجراية) وهي نوع من خبز الذرة يصنع داخل السجن.. وكانوا يتكدسون داخل الورشة التي حولت إلى قسم آخر تابع إلى السجن.

جاء هؤلاء المنتظرون حاملين مراتب وضعوها علي الأرض بدون سراير، فتعجبنا وقلنا كيف يأتون الينا بمراتب كي ننام فوقها علي الأرض ولم تطل دهشتنا حتي عاد الينا (مامور) السجن عثمان عوض الله وبحياء وتهذيب معتذرا بأن (التعليمات) لديه أن يصرف لكم (برش وبطانيتين) (وكورية) فقط!! وأصبحت الكورة فيما بعد اداة موسيقية (بنقز) استخدمناها ايقاعا حينما رددننا مع محمد وردي ومحمد الأمين بعض الأغنيات في (السرايا) وأهم هذه (العهدة) كانت الكورية التي استخدمناها لشرب الشاي ولوجبة الفطور والغداء وفي الليل نضعها تحت رؤوسنا بدل المساند، وعلمنا أنه ليست هناك وجبة للعشاء وعلينا أن (ندبر) حالنا مما يتبقي من وجبة الغداء وكان أمراً عسيراً. إذ أن الوجبة نفسها في الغداء لا تسمن ولا تغني من جوع بل انها ربما تصلح فقط لفتح الشهية فكيف يتبقى منها شئ نتناوله في وجبة عشاء، وبالرغم من ذلك جمعنا من فتات الخبز في نهاية الأسبوع ما صنعنا منه (بسبوسة) أبدع في اختراعها عز الدين داوؤد بخبراته (المطبخية). واستمر الحال هكذا لأكثر من خمسين يوما وقد حظينا يوجود بعض من كسبوا تجارب في معتقلات الحكم العسكري الأول (الاستاذ جعفر أبو جبل والأستاذ مصطفي محمد صالح) ونالوا خبرات واسعة ساعدتنا في تنظيم حياتنا في المعتقل كونوا مكتبا مسؤولا عن الاتصال بالإدارة والتفاوض معها نياية عن المعتقلين وأنشأنا (كميونة) توضع بها المواد التموينية والسجائر وما نحصل عليه من مواد توزع لكل حسب حاجته. كما أعدوا برنامجاً يومياً ثقافياً وترفيهياً وُزعت مهامه علي المعتقلين كل حسب اهتمامه وقدراته وكنا قد حصلنا علي راديو تعاملنا معه بحرص شديد للترفيه ومتابعة الأخبار وأشركنا معنا المعتقلين من شباب الأنصار في فقرات البرنامج الترفيهي الأسبوعي بما توفر من قدرات في الغناء والقفشات والطرائف وسعدنا بتلاميذ مدرسة مروي الثانوية بقيادة (فوزي) الذين قدموا بعض المناشط المدرسية. وكان مولانا إمام مسجد السجانة يدرس اللغة الإنجليزية ويحرص علي المذاكرة بصوت عال ويتمايل وهو

ممسك الكتاب بذات الطريقة التي يتلو بها القرآن الكريم. وقد أشرف على تعليمه إدريس عوض الكريم سكرتير إتحاد طلاب جامعة القاهرة فرع الخرطوم.

9

نميري قال لـ«عبد الخالق»: إنك لن ترى الشمس بعد اليوم

(الحلقة الـ (10))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

عبد الخالق يحطم قيد الإعتقال،

يونيو 1971م:

في مساء يوم 29 يونيو 71 وبينما كنا نستمع الي الأخبار فإذا ببيان صادر من وزارة الداخلية يعلن أن (عبد الخالق محجوب) قد هرب من السجن.. أزعجنا كثيراً ذلك الخبر لأننا كنا نعلم انه معتقل في مصنع الذخيرة بالشجرة وهي منطقة عسكرية عليها رقابة مشددة من القوات المسلحة بمجموعة تتناوب الحراسة لأربع وعشرين ساعة ولم يسمح له بالزيارة او الكتب او الصحف بل منع الحراس من الحديث معه هادفين الي عزله تماماً وإحباط روحه المعنوية... وحول اعتقاله جاء في تقرير سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي...(اعتقل الشهيد عبد الخالق محجوب في 16 نوفمبر 1970م. واقتيد الي القيادة العامة. وهناك وجد نفسه أمام اجتماع لمجلس الثورة،أشبه بالمحكمة العسكرية،برئاسة نميري الذي وجه لعبد الخالق قائمة اتهامات شملت معارضة ثورة مايو ووضع العراقيل في طريقها قبل وبعد انتصارها،معارضة تجنيد الشيوعيين لجهاز الأمن,معارضة السلم التعليمي،معارضة ضرب الجزيرة أبا،معارضته التأميم والمصادرة،معارضته ميثاق طرابلس....الخ. وأبلغ النميري عبد الخالق بقرار مجلس الثورة بأعتقاله،وقال له: إنك لن تري الشمس بعد اليوم. ثم طلب مأمون عوض أبوزيد من عبد الخالق ان يكشف لمجلس الثورة ما لديه من معلومات عن مؤسسات وممتلكات الحزب،فزجره عبد الخالق بقوله: يسهل علي لساني ان يقطع من ان يكشف أسرار الحزب ثم بدأ ابو القاسم محمد ابراهيم حديثاً سوقياً مبتذلا تجاهله عبد الخالق) إنتهى.. وأيقنا أنها لابد ان تكون مؤامرة دُبرت لتصفيته بدعوي انه حاول الهروب،وكنا نعلم ان عبد الخالق اودع بامدرمان في السجن الحربي القديم وبدأت صحته تتدهور وعندما عاده الدكتور عبد الرحمن درديري وقدم له بعض العلاجات ونظراً للظروف الصحية السيئة التي يعيشها وجه بتحويله للمستشفي ولكن رفض طلبه فهدد بأنه سيذيع أخبار صحته السيئة وبقائه في السجن الكئيب فأضطروا لنقله الي مصنع الذخيرة. كانوا يهدفون ببقائه في ذلك السجن الي تصفيته بالموت البطئ. ولم تمض ساعات طويلة حتي تدفقت مجموعات من المعتقلين الجدد اتهموا بضلوعهم في تنفيذ عملية الهروب فأكدوا لنا أن هروبه صحيح خوفاً عليه من التآمر ضده لتصفيته بالموت البطئ وأن عملية هروبه وتأمينه تمت بصورة ممتازة ومذهلة،وأن خطة محكمة قد نفذت لإنقاذ حياته بعد ان انتشر نبأ بأن هناك تدابيراً خبيثة أعدت لاغتياله بالسجن. ويقف وراء ذلك بكل أسف من كان يثق فيهما عبد الخالق،احمد سليمان المحامي ومعاوية ابراهيم اللذين اوغرا صدرنميري بتصريحات كاذبة نسبوها الي عبد الخالق وأكدوا له ان نظام مايو لن يستقر إذا ظل عبد الخالق

علي قيد الحياة. وبالغ معاوية عندما كان وزيراً للعمل بان طبع منشوراً من نسخة واحدة يسئ فيها باسم عبد الخالق للنظام والي نميري شخصياً من سكر وعربدة وعلاقات بالنساء ذاكراً اسماءهن،واماكن لقائهن حتى أكد في إحدى قعداته بأنه سينتهى من هذا الكهنوت والمعلومات التى ذكرها معاوية في المنشور كانت صحيحة لانه رافقه في تلك (القعدات) مما جعل نميري يتأكد إن عبد الخالق يلاحقه وأقلقه وأزعجه أن أفاده بان عبد الخالق وزع الاف من ذلك المنشور علي المواطنين في البلاد مع انهم يعلمون جيدا ان في تاريخ الحزب لم يوقع شخص علي أي من الوثائق الحزبيه وانما كانت تصدر كل الوثائق ممهورة باحد التنظيمات الحزبية. ويعلمون ايضاً ان النسخة التي لدي نميري هي الوحيدة ولكنهما أحاطاه بهالة من الأكاذيب والتأليفات حتى وقف عليها قلبه دون سائر المعلومات والحقائق التي كان يعرفها عن عبد الخالق.

جاء في الوثيقة التي أصدرها الحزب الشيوعي بعنوان (19 يوليو 1971م) حول هروب عبد الخالق (كانت الحملة لاطلاق سراح عبد الخالق نشطة، وكان القلق علي حياته يساور الشيوعيين واصدقاء الحزب ثم تحول القلق الي انزعاج حقيقي بعد خطاب نميري في 12 فبراير 19971م، الذي هاجم فيه الحزب الشيوعي ودعا الناس الي تحطيم الحزب وكل من يدعي الانتساب إليه. بعد اطلاع عبد الخالق علي بيان اللجنة المركزية علي خطاب نميري ارسل رسالة يقترح فيها فكرة هروبه واقترح تكوين لجنة لتنظيم العملية بإشراف الشهيد شكاك الذي كان يتولي تنظيم الصلة به ثم أرسل فيما بعد اقتراحا بتفاصيل الخطة العملية كما يراها من معتقله ومحيطه وقد قام شكاك بمراجعتها واضاف تحضير امكانات كي ما يغادر البلاد وفي نفس الليلة والجندي الذي يساعد في تنفيذ العملية مما استدعي البحث في توفير تلك الامكانية والتي تتطلب اجراءات فنية كثيرة، وارسل الي عبد الخالق الرد بان امكانات استقباله وتامينه بالمستوي المطلوب يحتاج لبعض الوقت بسبب اتساع هجوم السلطة علي الحزب.

في 29 يونيو 1971م تم هروب عبد الخالق وأخذه هاشم العطا الي منزل المقدم الشهيد عثمان حاج سعيد ابو شيبة في رئاسة الحرس الجمهوري ثم انتقل الي ثلاثة منازل متعاقبة وفرها الحزب في الخرطوم بحري ثم الخرطوم حتي مساء 19 يوليو 1971م) كان أحد تلك المنازل لعضو بالحزب والبقية لاصدقاء.

انقلاب 19 يوليو 1971م:

وفي مساء يوم الاثنين من 19 يوليو 1971م وبينما نحن في قسم المديرية في سجن كوبر ملتفون حول الراديو نتابع حديث د. عبد الله الطيب إذ بالإرسال يتوقف، وجاء صوت المذيع عمر الجزلي ليعلن أن الرائد هاشم العطا سيذيع بياناً هاماً فترقبوه. واقترن ابتهاجنا بالدهشة إذ أننا نعلم أن (هاشم) قد اعفي من عضوية مجلس قيادة الثروة وتحفظوا عليه بالمنزل تحت حراسة من القوات المسلحة وظللنا ندير مؤشر الراديو علي كل الإذاعات العالمية ذات الاهتمام بشأن السودان حتي تأكد لنا أن انقلابا عسكريا قد حدث في السودان وما أثار دهشتنا وشكوكنا أننا تعودنا على حدوث الإنقلابات فجراً فكيف تم ذلك خلال ساعات العمل، وقضينا تلك الليلة بين القلق والارتياح في انتظار مغادرة السجن. وتغيرت نغمة المذيع وبدلا عن استمرار إعلانه أن بيانا هاما ستستمعون إليه بعض لحظات عاد يردد (في وقت لاحق) وظللنا ننتظر لساعات في قلق شديد إذ عادة ما يأتي بيان الانقلاب الأول مباشرة بعد تنويه المذيع وتساءلنا ماذا حدث؟! تري هل فشل الانقلاب أم هي مؤامرة أخرى كما حدث في انقلاب 16 نوفمبر 1970م وطال انتظارنا لساعات طوال وجاء بعدها هاشم العطا ليعلن عن حركة تصحيحية وقيام حكومة الجبهة الديمقراطية تفاءلنا بما ورد في البيان كنا نعلم أن هاشم العطا عضو في الحزب الشيوعي ونعلم أيضا أن الحزب له موقف مبدئي من الانقلابات العسكرية وأنها لن تكون بديلا للانتفاضة الشعبية فماذا جرى؟ وعادةً ما يقع الانقلاب «أي انقلاب» في فجر مبكر وفي الحقيقة رشحت حولنا عدة تساؤلات لم نستطع الإجابة عليها غير أننا في النهاية ابتهجنا بأن الانقلابيين سوف يطلقون سراحنا وقضينا ذلك المساء حول الراديو حتى صباح اليوم التالي نستمع ونردد الأناشيد الثورية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه قد أثار وقوع الانقلاب العسكرى تساؤلات كثيرة بين الشيوعين والديمقراطيين وأصدقاء الحزب الشيوعي عن الدوافع إليه وعن فشل الحزب في حمايته.

ذكر لنا أحد القادمين من المانيا الإتحاديه انهم عندما كانوا يتابعون برنامجا فى التلفزيون الالمانى انقطع الإرسال فجأة وامتلأت الشاشة بخارطة افريقيا بلون أسود داكن وفى وسطها خارطة السودان فى شعلة حمراء متقدة. جاء بعدها المذيع ليعلن أن انقلابا عسكريا شيوعيا وقع في السودان وان ذلك خطر يتهدد أفريقيا بكاملها لكي تتحول إلى بؤرة أخري كما حدث في السودان. وأصبح من الضروري والعاجل أن ينتهي هذا النظام قبل أن يستقر وتثبت أقدامه. ولعل هذا النداء قد فتح شهية معمر القذافي والسادات فأختطف الأول الطائرة التي كانت تقل المقدم بابكر النور رئيس مجلس قيادة الانقلاب الجديد والرائد فاروق حمد الله عضو المجلس وأجبرها علي الهبوط في ليبيا واعتقلهما وسلمهما الي جعفر نميري الذي لم يتريث في اعدامهما رغم انهما كانا خارج السودان ولم يشاركا في التحضير أو تنفيذ الانقلاب. أما السادات فقد ضغط علي نميري لتنفيذ حكم الاعدام الفوري علي الشهيد عبد الخالق محجوب والشهيد الشفيع أحمد الشيخ بالرغم من تدخل الحكومة السوفيتية والرجاء الذي قدمه سفيرها في القاهرة لمنع إعدام الشفيع أحمد الشيخ. جاء في كتاب محمد حسنين هيكل (دراسة جديدة

للتاريخ، ص132) ما يلي :لقد ذهب بوليس بونو ماريوف عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي، يوماً إلى الرئيس السادات بعد محاولة إنقلاب فاشلة في السودان يرجوه أن يتدخل لإنقاذ حياة زعيم نقابي كبير في السودان هو (الشفيع) ووعده الرئيس السادات أن يبذل مساعيه لدى الرئيس نميري واتصل الرئيس السادات بالفعل تلفونياً ولكنه لم يبذل مساعيه الحميدة وإنما طلب الخلاص من الثعبان (الشفيع) ورأسه وكان الرأس عبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي السوداني (شهدت الواقعة بنفسي ولنا أن نتصور في ردود الفعل السوفيتيه عندما نقلوا تسجيل نص المحادثة بين القاهرة والخرطوم وليس سراً بالطبع أن هناك عدداً من الدول في مقدمتها الدولتان العظميان تقوم بمتابعة وتسجيل كل المحادثات التلفونية عبر البلدان وعبر القارات بل داخل البلدان وداخل العواصم نفسها (إنتهى)).

وفي اليوم التالي أطلق سراح مجموعتنا من الشيوعيين والديمقراطيين وبقي الآخرون من الأنصار في (المديرية) مما سبب لنا حرجاً شديداً، فقد نشأت بيننا خلال تلك الفترة القصيرة علاقات إنسانية لا تنسي واذكر بتقدير كبير (اسحاق) أحد أبناء الأنصار الذي كان يعمل ميكانيكيا مع الخواجة (كريتيز) والذي كان يمدنا بصحيفة الأيام اليومية كلما استدعي الي المحكمة وكان شديد الانضباط لا يسلمها إلا إلى الأستاذ جلال السيد المحامي كما اتفقنا علي ذلك، رغم أنه يعرف أننا من نفس (القبيلة). ويحضرني ذكر مولانا أمام جامع السجانة الذي كان حريصا علي متابعة دروس اللغة الإنجليزية التي أوكلت للأخ ادريس عوض الكريم، واذكره حين جاءنا صباح نفس يوم 19يوليو ليقص علينا رؤياه وهو كثير التفاؤل بأن أمرا حميدا سيحدث وسعد كثيرا لان رؤياه قد تحققت بذلك الانقلاب. وعند خروجنا من سجن كوبر ابلغنا الجهات المعنية بأمر الإمام وزملائه من المعتقلين فاطلق سراحهم، وكان تفسير الرائد هاشم العطا بتأخير خروجهم مع مجموعتنا أنه لم توجه إلينا أية تهمة. أما الأنصار فقد كانت لديهم بلاغات أمام المحكمة وحرصا علي احترام الهيئة القضائية واستقلالها كان لابد أن يتم ذلك بقرار المحكمة العليا وقد كان. وكما حيرنا أمر الانقلاب أثار أيضا تساؤل الكثيرين من الديمقراطيين والأصدقاء فالقوا بشكوكهم حول مصداقية الحزب وعلى عبد الخالق بصفة خاصة بأنه كان خلف العملية العسكرية.

ولستُ هنا مأذونا لي بالدفاع بقدر ما وددت أن يتبينوا حقيقة ما حدث في 19يوليو 1971م لعلها تدرأ سقماً قد أحاط بالأنفس طيلة تلك السـنوات مما جعل البعض منهم يهجر العمـل الســياسي وآخرين يهجرون الوطن نفسه.

ولست هنا بدافع تهمة توجه إلى تنظيمنا الديمقراطي ولكني أسوق هذه الحقائق لتؤكد تقديراتنا بأن ما حدث في 19 يوليو 1971م كان أمراً نهض به العسكريون وحدهم وحق لنا نحو إخوتنا وأصدقائنا في إتحاد الشباب السوداني أن يقفوا على حقائق التاريخ.

10

وثيقة «19» يوليو .. ردود الفعل السياسية والعسكرية وحديث الضجر والتبرم

(الحلقة الـ (11))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

وثيقة 19 يوليو :

رأيت من المفيد أن أسوق ما ورد في وثيقة (19يوليو) التي أصدرتها سكرتارية الحزب الشيوعي السوداني ما يلي: (بعد هروب عبد الخالق، تقدم له العسكريون وتتلخص في : أنهم من تجربة الانقسام وما سمعوا وما قرأوا من معلومات قدمها الانقسام للسلطة عن الحزب وكادره ومواقع عضويته وأساليب عمله، كان لابد أن يتحفظوا في طرح كل الحقائق والتفاصيل لقيادة الحزب بعد اعتقاله. إن قيادة الحزب لم تتخذ موقفاً حاسماً ضد السلطة بعد 16نوفمبر 1970 مما أحدث سخطاً وضجراً وارتباكاً بين الشيوعيين والديمقراطيين وسط الجيش. واستغلت السلطة قبول الحزب الدخول في مفاوضات غير معروف هدفها أو شروطها كما استغلت السلطة إعلان الحزب في بياناته عن تأييد الخطة الخمسية باعتبار أن ذلك تأييد للسلطة وأن الحزب لم يعبئ نقابات العمال واتحاد العمال بالمستوي المطلوب.

فأستغلت السلطة ذلك في إعلان قانون العمل الموحد بعد انقلاب 16نوفمبر 1970 مباشرة لامتصاص سخط العمال، رغم أن القانون كان يحتاج لكثير من المراجعة والتدقيق، تم إعلان سحبه بعد شهر واحد دون أن تتخذ النقابات والاتحاد موقفاً حاسماً. وأن مجلس الثورة كان يسخر من الحزب الشيوعي والنقابات والاتحاد وأنه يلعب بهم وأن مجموعة الانقساميين كانت تساعد مجلس الثورة في رسم الخطط يومياً ضد الحزب.

قالوا أنهم حملوا مجلس الثورة علي أكتافهم 18شهراً رغم اقتناعهم بعدم جديته في تنفيذ الشعارات التي أعلنها وقد وإصلوا القيام بهذه المهمة احتراما لموقف الحزب في بذل كل جهد ممكن لاقناع السلطة بخطأ سلوكها وموقفها عن طريق الصراع الفكري والإقناع، ويعتبرون أن الحزب تعامل مع السلطة بكثير من حسن النية والتسامح. كما أن الحزب فرض عليهم أكثر من مرة أن لا يتحركوا أو يستقيلوا.

هنا يشيرون إلى مناقشة عبد الخالق معهم عقب التعديل الوزاري الأول أكتوبر 1969م، كان عبد الخالق قد ناقشهم في أن الاستقالة هروب من الصراع، وأن التحرك لتنفيذ انقلاب سيبدو أمام الرأي العام بمثابة سرقة للسلطة، كما أن السلطة تدعي أمام الرأي العام أنها تنفذ برنامج الحزب الشيوعي وتعين كادره في مناصب وزارية وتوكل لهم مسئوليات، ومن الأفضل أن يستمر الصراع حتى يتضح للرأي العام أن السلطة غير جادة في تنفيذ شعارات وأهداف الثورة، وأنها تستخدم الحزب كواجهة، وأن التحالف لا وجود له عملياً، وأنه رغم الوضع الصعب الذي يحيط بموقف قطاع واسع من الضباط وضباط الصف والجنود الديمقراطيين فإن الحزب يري أن يستمر الصراع للضغط علي السلطة لتصحيح أخطائها من جهة، ويستمر الحزب في الصراع علي موقفه المستقل ورفض حل أو تصفية كيانها ويطرح رأيه للجماهير.

قال العسكريون أيضا إن الوضع في الجيش سوف ينفجر سواء أن تحركوا أو لم يتحركوا، كما أن الضباط الديمقراطيين لن يستمعوا لرأي الحزب بالتأجيل هذه المرة، خاصة وأن تنظيمات القوى اليمينية في الجيش تسير بسرعة نحو تنفيذ انقلاب. وأصبح الضباط الشيوعيون والديمقراطيون في وضع حرج، فإذا تحركت القوى اليمينية فأنها ستوجه لهم ضربتها الرئيسية بوصفهم القوى العسكرية الجادة الحازمة في الدفاع عن الشعارات الثورية، لان مجلس الثورة وتنظيم (أحرار مايو) القوميين العرب لا يمثلون وزناً يؤبه له ومن الجانب الآخر فإن الضباط الشيوعيين والديمقراطيين لن يدافعوا عن السلطة بعد 16نوفمبر واعلان تراجعها عن كل ما هو ثوري وتقدمي. وأنهم يدركون تماما ويثقون من أنهم إذا وقفوا في وجه التحرك الرجعي ودافعوا عنها، فإنها سوف تضربهم فيما بعد بحكم تجاربهم معها. أكدوا أنهم كضباط شيوعيين يتحلون بالانضباط الحزبي والتقيد بموقف الحزب. لكن الظروف المحيطة بهم وعلاقتهم بالضباط الديمقراطيين تفرض عليهم ألا يتأخروا عن أي تحرك يبادر به الضباط الديمقراطيون الذين استمعوا أكثر من مرة لرأي الحزب وتقديراته. وسألوا عبد الخالق عن جدوى تنظيمهم إذا لم يتحرك لمساعدة الحركة الشعبية التي ظلت تتراجع أمام هجوم السلطة منذ 16نوفمبر وأصبح نميري ومجلس الثورة مطلق اليدين وبدأ في حل النقابات وأعلن خطة الحزب الواحد وأن الخطوة التالية ستكون تسريحهم من الجيش. فهل يستسلمون بدون مقاومة؟ كما أن علاقتهم بالحزب ليست فقط من أجل الماركسية، لان الكتب الماركسية متوفرة في السودان ويمكن الاطلاع عليها ودراستها خارج الحزب، وإنما علاقتهم بالحزب كعسكريين ومقاتلين ثوريين تحتم عليهم هذه العلاقة ألا يسمحوا أن تمر الديكتاتورية العسكرية تحت حمايتهم.

تركزت مناقشة عبد الخالق معهم في الآتي :

- ان تحفظاتهم وملاحظاتهم يجب أن تطرح علي قيادة الحزب ومناقشتها.
- ان اقتراح الانقلاب يجب أن يطرح علي اللجنة المركزية وأخذ رأيها وأن يحضر هاشم اجتماع اللجنة المركزية لنقل وجهة نظرهم.

فرغم تقديره، لوجهة نظرهم لن يوافق علي أي تحرك قبل مناقشته في اللجنة المركزية.

في تقييمنا للموقف وتقديرات العسكريين، نضع في اعتبارنا العوامل التالية:

أن الأمانة تقتضي التقيد بالدقة والموضوعية في مناقشه وتقييم العسكريين، فهم ما عادوا موجودين ليدافعوا عن وجهة نظرهم ويناقشوا فيها، فضلا عن أن حقيقة انتمائهم للمؤسسة العسكرية -يفرض طابعه علي تقديراتهم رغم انتمائهم الحزبي فهم في نهاية الأمر ليسوا أول

مجموعة عسكرية حزبية تغلب تقديراتها العسكرية علي التقديرات السياسية لحزبها. بل وحتى الجناح العسكري لحركة سياسية جماهيرية، كثيراً ما أفلت وفرض تقديراته علي قيادته السياسية، ليس في هذا تبرير للخطأ، لكنه إشارة للظاهرة السلبية، والتي ظلت تعبر عن جذورها الفكرية في تجارب العديد من البلدان العربية بالصيغة المتبادلة عن أن التنظيم العسكري الذي يؤسسه أي حزب أو حركة سياسية إما أن تستخدمه القيادة السياسية في اللحظة المناسبة. أو يستخدم نفسه رغماً عنها.

إذا لمسنا ضعفاً سياسياً وفكرياً في تقديرات العسكريين فتلك مسؤليتنا في قيادة الحزب حيال واجبنا الدائم برفع المستوى السياسي والفكري لأعضاء حزبنا في كل المواقع.

المناخ والمزاج السياسي الذي كان سائدا في الحزب والحركة الجماهيرية في تلك الفترة التي أعقبت انقلاب 16نوفمبر تميز بالإصرار علي مواصلة الدفاع عن شعارات ومهام الثورة الديمقراطية والتغيير الاجتماعي، وعلي مواجهة السلطة ورد الصاع صاعين مقابل أية ضربة توجهها للحركة الثورية.

مشروعية الاستنتاج المعلن أو غير المعلن لدى أقسام من عضوية الحزب والقوى الديمقراطية وأصدقاء الحزب وأحزاب شيوعية وتقدمية عن أن الضباط الشيوعيين، أو علي الأقل هاشم العطا، ما كان ليتحرك لتنفيذ الانقلاب بدون قرار من الحزب. وفي هذا الصدد نشير إلى أن استنتاجاً مماثلاً كان قد أثير في حدود ضيقة بعد انقلاب 25 مايو مباشرة، عن ملابسات اشتراك الشهيد أب شيبة في انقلاب مايو مع القوات التي تحركت من خور عمر، وهو الحزبي الملتزم في الوقت الذي عارض فيه الحزب الاشتراك في الانقلاب وامتنع الضباط الشيوعيون عن المشاركة وكان عددهم ستة اعضاء مقابل سبعة اعضاء لتنظيم الضباط فنفذوا الإنقلاب، وبعد الانقلاب حوسب أب شيبة داخل التنظيم وبرر اشتراكه بأنه لم يكن يعرف قرار المكتب السياسي، وأنه أخذ فكرة عامة عن الخلاف حول الانقلاب وسط الضباط الأحرار بين مؤيد للتحرك ومعارض له، وأنه يشارك كعضو في تنظيم الضباط الأحرار.

برغم تلك الظروف والعوامل فإن وجهة نظر العسكريين التي عرضوها علي عبد الخالق لا تبرر ولا تقتضي توجههم نحو الانقلاب، وقطع شوط كامل ونهائي في التحضير له ووضع الحزب أمام الأمر الواقع من الناحية الفعلية وإن بدت وجهة نظرهم من الناحية الشكلية وكأنها تشاور مع الحزب واستماع لوجهة نظره أو قراره سلباً أو إيجاباً موافقةً أو رفضاً. فاحتمال انفجار الوضع في الجيش أو تحرك اليمين نحو الانقلاب، أو اتجاه السلطة نحو تسريحهم، لا ترقي مجتمعة أو منفردة كذرائع أو أسباب تملي علي الحزب تنفيذ انقلاب.

ما أثارُه عن موقف الديمقراطيين وهم الأغلبية صحيح، وكان عشرات الشيوعيين وأصدقاء الحزب، في العاصمة والأقاليم يستمعون حيرة لحديث الضجر والتبرم من أصدقائهم ومعارفهم من الضباط وتعبيرهم عن الرغبة في الإطاحة بالسلطة. وانتقاداتهم لموقف الحزب الشيوعي، ومع ذلك وبرغمه فإن الضغط الذي مارسه الضباط الشيوعيون في حديثهم مع عبد الخالق بوجهة نظر الديمقراطيين كان يعبر إما عن ضعف نفوذهم وسط أولئك الديمقراطيين، وهذا احتمال ضعيف بحكم وزنهم واحترام الديمقراطيين لهم أو يعبر عن قناعتهم دون أن يفصحوا عنها صراحة لعبد الخالق. وقد اكتشف عبد الخالق ذلك وقابل عدداً من الضباط الديمقراطيين واستمع لوجهة نظرهم.

نتوقف طويلا عند تساؤل العسكريين : إن كانوا مجرد أدوات تنفيذ، لأن هذا السؤال مع بقية ملاحظاتهم وتحفظاتهم يثير القضية القديمة والمتجددة، عن علاقة العمل العسكري بالعمل السياسي الجماهيري في حركة الثورة بصفة عامة وعن الفهم السليم لدور الثوريين في الجيش ومتي يتدخلون لحسم الصراع السياسي الاجتماعي، ومن يقر ذلك؟ وعن التصور الثابت لدي العسكريين أنهم عندما يبادرون بانقلاب إنما يهدفون لحسم الصراع نيابة عن الجماهير.

هذا النوع من تقديرات العسكريين بوظيفتهم ودورهم يثير تساؤلاً مشروعا لدي الحركة السياسية ولدي الثوريين بصفة عامه ، إذ ما هي الضمانات أن لا ينفرد العسكريون في كل مرة داخل التحالف السياسي العسكري ويضعوا مجموع الحركة الثورية بما فيها الأحـزاب التي ينتمون اليها أمام الأمر الواقع؟

نميري خرج مسعوراً إلى الشـــــــارع .. ليقيم المحاكم العسكرية

(الحلقة الــ (12))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

* خليل الياس *

و مع إدراكنا بان العنصر الحاسم في هذه القضايا هو الوعى السياسي و الفكري ودور القيادة السياسية ومقدرتها على الحسم ومدى اتساع الحركة الجماهيرية وتأثيرها, إلا أن القضية تظل محل صراع فكرى وسياسي مهما كانت التحوطات و الضمانات المسبقة. ففي مقابل سؤال العسكريين : إن كانوا مجرد أدوات تنفيذ من حق الحركة السياسية المدنية أن تتساءل ايضاً إن كانت هي مجرد قوى للمساعدة والتأييد؟

باختصار مهما كانت اعتراضاتنا وتحفظاتنا على تقديراتهم فان مواطن القصور و الغموض في تكتيكاتنا بعد انقلاب 16 نوفمبر1970م, و البطء الذي لازم تطورها ووضوحها, أسهمت سلباً في تقديراتهم. كما أن مشاعر الخذلان التي ركبتهم من موقف الانقساميين أضعفت ثقتهم في الحزب.

طرح العسكريين لتقديراتهم وجهة نظرهم على عبد الخالق, وموافقتهم على اقتراحه بعرض الأمر على اللجنة المركزية, لا ينفي انهم في الجانب العملي كانوا قد اعدوا العدة لتنفيذ الانقلاب. بدليل الشواهد: أنهم وقتوا ساعة الصفر مع هروب عبد الخالق, ثم قبلوا التأجيل لفترة وجيزة بعد مناقشتهم معه, ويبدو أنهم توقعوا أن اجتماع عبد الخالق مع اللجنة المركزية لن يستغرق إنجازه أكثر من أسبوع أو عشرة أيام. يتضح ذلك من التصريح الذي أدلى به ناطق باسم مجلس الثورة مساء 19 يوليو بالتلفون لصحيفة مصرية, حيث ذكر انهم كانوا قد حددوا ساعة الصفر يوم 10, لكن إعلان حالة الاستعداد في الجيش في العاصمة بسبب فتح الجامعة واحتمال اندلاع مظاهرات طلابية امتداداً لأحداث مارس 1970 (أحداث مارس 1970 إعتصام الطلاب بمباني الجامعة احتجاجاً على توصيات لجنة التعليم التي أعلنها نميري في خطاب له بحنتوب) أجبرهم على التأجيل. كذلك أكد عدد من الضباط الذين شاركوا في الانقلاب وسرحوا أو سجنوا أنهم بالفعل استعدوا للتحرك في ذلك اليوم. ولكن وصلهم أمر إلغاء التحرك في منتصف النهار ونقلوا الأوامر للجنود وضباط الصف الذين تحت امرتهم في الوحدات المختلفة. وكانت صحيفة القوات المسلحة التي صدرت في الخرطوم قد نشرت تصريح الناطق باسم مجلس الثورة صباح يوم 20 يوليو.

من الشواهد أيضاً استدعاء هاشم العطا في أوائل يونيو والتحقيق معه بواسطة أبو القاسم محمد إبراهيم عن تحركاته للتحضير لانقلاب, والشكوك التي كانت تساور السلطة بشأن ولاء أب شيبة والاتجاه لعزله من قيادة الحرس الجمهوري.

نسجل كذلك إفادة ضابط قيادي في التنظيم كان خارج البلاد وعاد قبل الانقلاب بفترة وجيزة ولم يشارك في الانقلاب وسمع به من الإذاعة. حيث قال إنه وحتى يوم سفره للخارج في مارس/أبريل لم يكن هناك قرار بالانقلاب، وأنه قابل الشهيد بابكر النور في القاهرة في طريقه للندن في آخر أبريل وعلم منه أن التنظيم مازال يواصل التجنيد.

تصريح بابكر النور في لندن الذي نقلته البي بي سي عندما سأله الصحفيون إن كان علي علم بهذا الانقلاب فرد بأنه كان علي علم بتحضير حركة داخل الجيش مناهضة لسلطة نميري لكنه لم يكن يتوقع حدوث الانقلاب في ذلك الوقت0) إنتهي

فشل إنقلاب هاشم العطا 1971م:

وفي الثاني والعشرين من يوليو 1971م بعد خروجنا من المعتقل بسجن كوبر، دعوتُ سكرتارية اتحاد الشباب السوداني لاجتماع نقيم فيه ما حدث ولنقف على تفاصيل التطورات التي لم نتابعها خلال الاعتقال. ولم يطل اجتماعنا حتى سمعنا بقذائف وطلقات رصاص فاندفعنا إلى الشارع تقصيا لما حدث فأخبرنا أحد الصحفيين أن انقلاب هاشم العطا قد فشل وان (نميري) خرج من القصر وأن قصفا بالمدرعات يمطره من كل جانب وكذا قصر الضيافة.

وقد خرج نميري بالفعل مذعوراً مسعوراً غارقا في الهلع والانفلات وفي عجلة مجنونة أنشأ محاكم عسكرية صورية فرض عليها إصدار أحكام بالإعدام والسجن والعزل وهو في حالة من السكر يتناول كأسا من نديمه ذلك الوزير الذي ظل يلاحقه كلما فرغت كأسه يملأها مرة أخري فأفرغ ما في أحشائه من حقد وجبن وإنفلات ولم يدرك وقتها من كان في صفه ومن قام بالانقلاب المضاد، كان يعتقد أن مؤيديه في القوات المسلحة هم الذين أنقذوه والحقيقة كانت خلافاً لذلك فقد ظن قادة الانقلاب المضاد وأكثرهم كانوا من الجنود أن هاشم العطا قد صفى جعفر نميري وزملاءه أعضاء مجلس قيادة الثورة وأن الساحة قد خلت لهم وعندما فوجئوا بأن النميري وزملاءه علي قيد الحياة زعموا أنهم جاؤا لإنقاذه من الشيوعيين، وصدق نميري تلك الأكذوبة بأنهم جاءوا لإنقاذه بل إنه أوقف إذاعة الأغنية التي ظلت ترددها الفنانة الشعبية حواء الطقطاقة التي جاء فيها :

الليله وين الليله عاد

الوجع رجع

أسباب رجوعك دبابات

وأسباب رجوعك مظلات

ولكن النميري أصر على أن الشعب هو الذي أعاده إلى السلطة وليست الدبابات. في تلك المحاكم الصورية أعاد لمرات كثيرة كل حكم أصدرته محكمة كان قرارها دون الإعدام أو السجن الطويل. وحدث ذلك مرة عندما حكم اللواء المقبول بالسجن على المقدم بابكر النور وأعاد نميري أوراق الحكم فزاد المقبول سنوات السجن قليلاً ولم يقتنع نميري، فأبعده عن رئاسة المحكمة وأستبدله بصلاح عبد العال الذي لم يتردد في الحكم على بابكر النور بالأعدام دون حيثيات تبرر ذلك بل أن حكم الإعدام طال من كانوا خارج البلاد حين وقع انقلاب يوليو أمثال المقدم بابكر النور والرائد فاروق حمد الله. ولم يسلم حتى غير العسكريين من تلك المحاكم المسرحية فقد طالت يد السفاح نميري أعناق المناضلين الشرفاء عبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرنق فأزهقت أرواحهم شنقا في سجن كوبر ولم يكن أحدهم علي دبابة أو قبض عليه يحمل مدفعاً رشاشاً أو قنابل أو متفجرات أو شارك في الإعداد للإنقلاب العسكري ولم يوجد بحوزتهم محضر إجتماع أو وثيقة تشير إليهم بل كان العكس كانوا جميعاً ضد فكرة الإنقلاب.

ولم ينفذ إعدام العسكريين وفقا للتقاليد العسكرية التي تفضي باطلاق رصاصة واحدة علي قلب كل واحد منهم ولا يعرف الرماة أيهم كانت الرصاصة في بندقيته حتى لا يعتريه الإحساس بأنه هو القاتل وراح يمطرهم بمئات الطلقات وهم يهتفون بحياة الشعب السوداني ونضال الطبقة العاملة. وظل نميري ثملاً وحشاً يبعث بالشهداء الي (الدروة) ويتوعد الناس عبر الراديو ويستنفرهم للقبض علي الشيوعيين ومن أسماهم الخونة الهاربين المارقين ويحرضهم علي الفتك بهم. ولو أطلقت يده في ذلك اليوم لطوح برؤوس آلاف المواطنين ولطوق العاصمة ليجعل منها سجنا متسعا للجميع. وأنكر في غمرة سكره وجنونه كل التعامل الإنساني الذي لقيه خلال الفترة التي قضاها بالقصر الجمهوري.

يحدثني شقيق هاشم العطا أن (هاشم) جاء الي أسرته في اليوم الثاني للانقلاب فسألوه عن الأخبار التي تناقلها الشارع بأنهم أعدموا نميري وزملاءه قال لهم إني قادم الآن من زيارتهم في القصر الجمهوري وأنهم سيتحفظون عليهم يوم السبت في منازلهم تماما كما فعلوا بنا ويواصل هاشم الحديث: وعندما دخلت علي جعفر في غرفته قال لي: معقول يا هاشم جيت لزيارتي؟؟ قال له: نعم قال نميري: عاوزين تعملوا فينا شنو؟ قال له هاشم كل خير .. وهل أنت محتاج لأي حاجة؟ قال نميري والله يا هاشم قلقان محتاج لي لقزازة شري**!!** قال هاشم : ما هي دي المصائب الخلتك تتصرف بدون عقل وأدرت ظهرك للشعارات التي رفعناها والبرنامج الذي وضعناه لتحسين حياة المواطنين من أجل التنمية والتقدم الاجتماعي وتنكرت لكل ما جاء في البيانات الأولى التي دفعت المواطنين لتأييد الثورة وحمايتها.

وخرج هاشم ليأمر القائمين علي أمر المرطبات والمشروبات بإخلاء الخمور الموجودة في القصر وإعادتها إلى قسم المرطبات. شهد بذلك عمال القصر والمرطبات الذين تم اعتقالهم وأضافوا أنه أحضر للرائد أبو القاسم هاشم أقراص السكري بعد أن طمأن أسرته وأكد لهم أنه سيعود إلى المنزل يوم السبت القادم أي بعد ثلاثة أيام فقط من تاريخ الانقلاب. وعند لقائه بالرائد أبو القاسم محمد إبراهيم قال أبو القاسم: أنت عارف أنا معاكم وخلي مجلس الثورة يعرف هذه الحقيقة، رد عليه هاشم: سأبلغ المجلس بذلك، وكان أكثر المعتقلين إنهياراً وفزعاً.. وعندما فشل إنقلاب هاشم العطا كان أبو القاسم في الشجرة وحشاً جباناً قاسياً وراح يضرب الشفيع أحمد الشيخ ويركله برجله حتى أدمى وجهه وظهره ووأشك أن يودي بحياته. وفعل كذلك خالد حسن عباس بالشهيد بابكر النور حيث صفعه في وجهه وحينما سأله الصحفي عن تلك الواقعة أنكرها ولكن الصورة فضحت كذبه. سألنا المعتقلين الذين كانوا يشرفون على خدمات نميري وأعضاء مجلس الثورة في

القصر هل صحيح كما زعم نميري أنهم حـــرموه من ذهابه للحمام؟ فقال أحدهم ساخراً: هو ساب حاجة عشــــان يروح الحمام؟ ما خلاص كان أكتفى بالغرفة التي كان بها.

12

الذكريات في ربوع شندي .. نكهة التجاني الطيب ظهرت في قهوة «بابو» وحكايات مثيرة عن الإستقلال ووحدة وادي النيل

(الحلقة الــ (14))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

قهوة بابو فاتح:

تذكرت (قهوة بابو) أحدى معالم مدينة شندي والتي لم تكن فقط لتناول الشاي والقهوة بل كانت ملتقى لابناء شندي للثقافة والسياسة والمناشط الرياضية.. يقول المثل في شندي : أن من زار شندي ولم يجلس في قهوة بابو فإن زيارته مبتورة. ويزدهر نشاط القهوة في عطلات المدارس والجامعات. القادمون من مصر والثانويات في وادي سيدنا وحنتوب، يديرون المناقشات في المواضيع المختلفة وخاصة السياسية وقد اثروا علي جيلنا بتلك المساهمات فايقظوا فينا اهتماماً مبكرا بالعمل السياسي والتعلق به.... جاءنا من الجامعات المصرية : التجاني الطيب ابراهيم حاج محمد-عامر جمال الدين، ابراهيم جمال الدين ، منصور أحمد الشيخ حسن قسم الله ، حمد ساتي أحمد الطيب عبد الله الحسن. وكانت للطالب التجاني الطيب ، وهو الآن أحد قادة الحزب الشيوعي ،نكهة خاصة لحديثة تختلف عن بقية المتحدثين في السياسة في تلك الأيام. وكنا نصغي إليه باهتمام شديد ... سمعناه يتحدث عن الاستعمار وانه اعلي مراحل الرأسمالية، وتحدث عن أن العالم اليوم ينقسم الي معسكرين : المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي وهو يتضامن ويساعد الشعوب المستعمرة لكي تنال استقلالها.. والمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وهي الاستعمار الحديث ويتحدث عن السلام العالمي وعن الكفاح المشترك مع الشعب المصري وعن اتحاد الطبقة العاملة فإمتلك وجداننا بتلك التعبيرات المثيرة.

تساءلنا مستفسرين عن الحزب السياسي الذي ينتمي إليه ذلك الطالب، قالوا إنه أحد أعضاء منظمة سرية تدعي (الحركة السودانية للتحرر الوطني)، ويرمزون اليها بكلمة (حستو) وأصبحت فيما بعد الجبهة المعادية للإستعمار وأخيراً الحزب الشيوعي السوداني، وأن الطالب التجاني هو أبن الشيخ الطيب بابكر الملقب (بالمظاهري) لإشتهاره بقيادة المظاهرات ضد الانجليز.

وظهر من أبناء شندي في تلك الفترة : الشفيع أحمد الشيخ ، سكرتير نقابة عمال السكة حديد وأدهشنا وأعجبنا بدفاعه عن العمال وحقهم

في تكوين منظمة ترعى حقوقهم وتوحد نضالهم. وزاد اعجابنا به حين علمنا أنه وقف في وجه مدير السكة حديد الانجليزي... وعندما بلغنا الخبر بأنه قدم الى محكمة في عطبرة هرعنا الي مكتب التلغراف وبعثنا إليه ببرقيات تأييد واعجاب لثباته أمام المحكمة وكان والده قد بعث لأبنه (تلغراف) يقول فيه: إن ينصركم الله فلا غالب لكم.... وغضب المفتش الإنجليزي عندما سمع بنص التلغراف وكان يعتقد أن والده سوف يثنيه عن موقفه فأرسل إليه يطلب حضوره الي المركز ولكنه رفض وقال للمرسال : خليه بجيني هنا اذا عنده موضوع مهم.

عوده الي قهوة بابو:

أعود ثانية إلى قهوة بابو.. فقد كان العم بابو فاتح الريح صاحب القهوة يبهرنا بصوته الإذاعي الجهير ورغم انشغاله بتدابير القهوة والشاي كان يشارك من وقت لآخر في المناقشات التي تدور وبخاصة في الحديث عن وحدة وادي النيل التي كان من دعاتها داعما للنقاش بقفشاته الذكية المرحة...أذكر يوما عندما جاء الزعيم الوحدوي محمد نور الدين يبشر بوحدة وادي النيل التي كانت إحدى جولاته في الأقاليم وخصص أحد المنازل لذلك اللقاء إذ لم يكن بشندي مسرح أو قاعة إجتماعات وكان نور الدين دائماً يخاطب الجماهير بلغة بسيطة دارجة ويضرب الأمثال القريبة لاستيعاب المواطنين.. في إحدى تلك اللقاءات السياسية قال متسأئلا لكي يوضح معني الوحدة: وحدة مصر والسودان زي غرفتين بينهم حيطة لما نكسر الحيطة يحصل ايه؟ ويرد علي سؤاله: يحصل اندماج الغرفتين أي مصر والسودان. فوقف العم بابو فاتح ليرد عليه : اذا كسرنا الحيطة تنهار الغرفتين ...فضحك الحاضرون وشاركهم الضحك الزعيم نور الدين نفسه. تترادف الذكريات في قهوة بابو، وبالإضافة إلى ذلك النشاط السياسي والثقافي الجاد فإنها لم تجف من الطرف والنوادر. من بين الرواد كان الفنان عثمان بادي وقد عرف بتعاطفه مع نشطاء (حستو) حتي اعتبره جهاز المباحث عضوا في ذلك التنظيم. لم ينل عثمان قدرا من التعليم ولكنه كان ذكيا ولماحا، وظل دائم الحضور إلى ذلك المقهى وهو يحمل الصحف اليومية ويطلب من أحد الحاضرين قراءتها له فيستوعبها بصورة جيدة تمكنه من المشاركة في المناقشات كأي كادر سياسي مقتدر.... الطريف أن استيقظت يوماً مدينة شندي علي شعارات ملأت جدران المدينة كتبها الشيوعيون تندد بالاستعمار ومطالبة بالاستقلال وقام البوليس بأعتقال أعداد كبيرة من المواطنين وكان عثمان بادي واحدا منهم وصحبه البوليس الي منزله للتفتيش وأندهشت جدته عندما رأت البوليس فسألتهم :ماذا يريدون؟ فأجابوها بأنهم يتهمون ابنها بالكتابة علي الجدران، وأنهم يبحثون عن المواد التي كتبت بها تلك الشعارات. فسخرت منهم وقالت لهم : كتابة شنو يا اولادي! انتو عارفين عثمان لا بيعرف يقرأ ولا يكتب ....

فانفعل عثمان وقال لوالدته : كان ما بعرف أقرا ولا أكتب ما بعرف أشيل جردل البوهيه..!

في ساحة المولد:

وتطوف الذكريات في ربوع شندي ... تذكرت المهرجانات التي تقام في ميدان المولد في الليلة الأخيرة وفي العام الهجري حيث يتبادل الخطباء الحديث عن الاستقلال والتنديد بالاستعمار. في واحدة من تلك الليالي وقف الطالب عبد الله الحسن (الذي أصبح فيما بعد نقيب المحامين) والقي قصيدة ألهبت حماس الجماهير فخرجوا في مظاهرة هادرة أغضبت مفتش المركز الإنجليزي فأمر بأعتقاله ولكن مواطني شندي أخذوه بعربة في ذات الليل إلى محطة كبوشية حيث عاد إلى القاهرة. جاء في تلك القصيدة :

سلاما ليلة الميلاد عودي *** علي الإسلام والإسلام حر
أعيدي ذكر من دكوا الحصون *** فأين أبن الوليد وأين عمر
بني وطني أفيقوا وأسمعوني *** طريق المجد لن يكسوه زهر
طريق المجد مفروش بشوك *** وفي جنباته نار وجمر

وفي ذات الميدان كان مفتش المركز يقيم مهرجانا سنويا احتفالا بعيد جلوس الملك جورج السادس، وكنا نشترك عن المدرسة الأولية في المنافسات الرياضية، وفي نهاية المهرجان بعد تقديم الجوائز للمتسابقين يقف مأمور المركز يهتف : يعيش جلالة الملك جورج السادس ... وفي واحد من تلك الاحتفالات وبعد أن هتف المأمور وقف الطالب منصور أحمد الشيخ (الذي اصبح فيما بعد المدير العام لبنك الإدخار ووكيلاً لوزارة الإعلام في أيام مايو الأولى) وفي حماس وانفعال ليهتف : يعيش فاروق الأول ملك مصر والسودان ورددنا معه في حماس شديد فقد شدنا ذكر الملك فاروق إذ أننا علمنا من الحاجة بخيتة بائعة (الروب) أن الملك فاروق وعد بارسال (سكر الرأس) الذي توقف بسبب إندلاع الحرب العالمية الثانية وكانت (الحاجة بخيتة) وهي تبيع الروب تغني :

يا الشاي الأحمر ** أنا ليك بتذكر
وساعة العصرية ** دايماً بتفكر
فاروق المصري ** قالوا حنّ علينا
وفي شهر تمانية ** الرأس جايينا

ولما كان مفتش المركز الإنجليزي يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وتحدثا فقد أستفزه ذلك الهتاف وقلل من شأنه أمام الإنجليز الذين دعاهم لحضور الاحتفال فأمر بطرد الطالب منصور أحمد الشيخ من شندي .... وعندما بلغ الخبر شيخ الطيب (المظاهري) هرع الي مفتش المركز منفعلا وحذره إن هو أقدم علي هذه الخطوة فسوف يقود مظاهرة بمئات المواطنين الي مركز شندي، فتراجع المفتش عن

قراره وأكمل منصور اجازته في شندي. وكان مفتش المركز يعلم أيضاً أن شيخ الطيب عضو في جمعية سرية تدعى (جمعية الإتحاد السرية) لكنه لا يدري كثيراً عن برنامجها ومناشطها وكان أعضاء هذه الجمعية هم : أحمد أفندي الشيخ والد الزعيم العمالي المناضل الشفيع أحمد الشيخ والشيخ الطيب بابكر والد المناضل التجاني الطيب والحاج جلاب والحارث إبراهيم. ولكنه عجز في الحصول على دليل يسمح له بإعتقالهم أو تحريم نشاطهم ورغم أن مدينة شندي آنذاك كانت صغيرة وعدد سكانها قليل لم يستطع المفتش إختراق هذه الجمعية أو يحصل من أي مواطن على معلومة تعينه للقبض على اعضائها.

وفي العام التالي وفي ذات الزمان والمكان وبعد نهاية الاحتفال وقف المأمور ليهتف: يعيش جلالة الملك دون أن يذكر جورج السادس خوفا من الهتاف المضاد وتلفت يمنة ويسرة في قلق شديد ولكن الطالب منصور أحمد الشيخ لم يكن موجودا في ذلك اليوم فتنفس عمنا هاشم المأمور الصعداء. ولا تخلو تلك الإحتفالات من بعض الطرف والنوادر فقد كان العم عباس صبحي ينادي الفائزين في المسابقات في ذلك المهرجان وعندما جاء دور الفائز في ركوب الحمير بالمقلوب وقف ينادي بصوت عال : الحمار الأول فلان الفلاني.

14

سمعت اسمي في الراديو ضمن المطلوبين فسلمت نفسي الى المركز بشندي لتبدأ الرحلة إلى سجن كوبر

((الحلقة الـ (15

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

مع عثمان الشفيع:

ومرت بي الذكريات إلى الفترة التي زخرت فيها مدينة شندي بالشعراء والمطربين وما زالت- ولكن كبار القوم وأولياء الأمور آنذاك لم يكونوا من المحفزين لهذه المواهب الفنية بل وصفوها بالصياعة ونعتوا المطربين بالصياع إلا فئة قليلة شاقها الوجد والحنين للطرب فأذنت لنفسها تشجيعاً محفوفاً بالحذر والتحفظ.

وظلت جلسات الطرب بالعود دكاكينية لزمن طويل وانحصرت أغنيات الرق والشيالين في بيوت الأعراس ومناسبات الأفراح الأخرى.

في تلك الأيام كان عمنا الزين بابكر الشفيع موظفا بمصلحة الزراعة جاء الي شندي للعمل بها، مصطحبا آلة (العود) فلفت أنظار الفنان عثمان الشفيع وبعضا من زملائه المطربين فوفدوا إليه ليعلمهم العزف. وامتد شغف الشفيع إلى عدد آخر من زملائه : الهادي الياس، سلمان عبد الله بخيت، عوض عثمان مدني وآخرين إكتفوا بالاستماع والطرب.. كان دكان الشفيع بجانب حياكة القمصان الأفرنجية ملتقى كثير من الشباب بينهم كان شقيقي الهادي، يتسلل إلى هناك خوفاً من أن يدرك شقيقه الأكبر أحمد نشاطه إذ كان من المدرسة المعادية (للصياع)... وكان يردد كثيراً نصائحه إلى عثمان الشفيع حاثاً له علي اللحاق بمدرسة فنيه لاقتناعه بأن الشفيع يمتلك قدرات تمكنه من

تعلم مهنة أفضل تساعده علي مسؤوليات أسرته وتجنبه (ضياع الصياع).

ولتأمين ممارستهم لتعلم العزف كان شقيقي يصحبني معه الي دكان الشفيع وفي واجهته يضعون لي مقعداً صغيراً متجهاً نحو منزلنا إذ كان قريباً من السوق. وطلبوا مني أن أنبههم عندما يظهر شقيقنا الأكبر (احمد) من أول الشارع فيجلس الشفيع علي الماكينة ويلتف حوله الباقون كأنهم في انتظار القمصان التي اشتهر بحياكتها. وظلت جلسات الطرب بالعود (دكاكينية) لزمن طويل وانحصرت أغنيات الرق والشياليين في بيوت الأعراس ومناسبات الأفراح الأخرى.

وما انفك شقيقي الأكبر يلاحقهما لكي يكفا عن ذلك النشاط ولكن عزمهما وإصرارهما كانا أقوي. وعند نهاية ساعات العمل بالسكة حديد حيث كان شقيقي موظفا بها، كان يذهب الي الشفيع، لتوقيع الأغنيات التي سيؤديانها في ذلك المساء ... وتقلق والدتي لطول غيابه فترسلني إليه ترجوه العودة إلى المنزل .. وعند ظهوري في (برندة) الدكان يتحول الغناء الي واحدة من قصائد المديح حتى اذا ما عدنا إلى المنزل سألتني الوالدة : الولاد ديل بسوا شنو؟ أرد عليها أنهم كانوا يمدحون، فتبدو عليها الراحة والاطمئنان .. وفي احدي المرات فات عليهم تواجدي في الحراسة انتظاراً لشقيقي كي يصحبني في العوده معه إلى المنزل فسمعتهم يرددون :

نادوهم لي ** أناديهم يزيلوا البية أسيادي

وفي اجابتي علي سؤال الوالدة أنشدت لها ذلك المقطع. وعندما سمعت أسيادي: قالت بانفعال: يلحقونا ويفزعونا السادة: اذ كانت تعتقد أن أسيادي مقصود بها الساده الأولياء لأنها ختمية متطرفة.

وطاف عثمان الشفيع العديد من مدن المديرية الشمالية وجاء إلى امدرمان فناناً مقتدراً نافس من سبقوه من الفنانين : الكاشف ،حسن عطية ، أحمد المصطفي أما زملاؤه من أبناء شندي فشغلتهم الخدمة المدنية وهاجر الفنان المنافس عوض عثمان مدني الي القاهرة وأصبح الباقون هواة تستخفهم أغنيات الشفيع وتجعلهم آذاناً قادرة علي السمع ويتابعون بكثير من الاهتمام ما يجد عنده من أغنيات يشفعونها في لقائهم الودي بالنقد الباني والتوجيه.

وبادر الشفيع بالاشتراك في حملات تعليم البنات إذ كان وقتها المعارضون لتعليمها كثيرين وتمكن بالمساهمة بأغنيته التي مطلعها يا بنات المدرسة قائلا :

يا سادة سيبوا الجدل دا شبابنا للتعليم قدل

لا خوف عليه ولا خجل عاشت بنات المدرسة

وتواصلت الحملة لتعليم المرأة بالمحاضرات والندوات وكان الشفيع مشاركاً فيها مشاركةً نشطه بالأناشيد الوطنية والدعوة للتعليم وكان يصدح بالاناشيد الوطنية.. الى العلا ـ صه يا كنارى المجد للوطن صرخة روت دمي. وفي إحدى تلك اللقاءات وقف صادحاً..

حيوا معي هذا المساء

كل البنات في المدرسه

حبوبه تمشى وآنسه

بالعلم نبني مؤسسه

وعاشت بنات المدرسه

ولعبت مدرسة شندى الريفيه الوسطى دوراً هاماً ومؤثراً في الحملة الداعية للتعليم ومحو الامية ونشطت جماعة التمثيل بالمدرسه وقدمت مسرحية تدعو المواطنين لإرسال بناتهم وأبنائهم لدور التعليم ودعت الى التبرعات المالية. وقام احد الممثلين (الهادى أحمد الشيخ) بدور (أحمد جمال الدين) سر تجار شندى، وأعلن عن تبرعه بمبلغ مئتى جنيه مساهمة منه في إنجاح حملة التعليم.. وحينما علم جمال الدين بذلك لم يتردد في تحقيق ذلك الحلم ودفع المبلغ نقداً.) جاء في دوبيت تلك المسرحية على لسان التلميذ هاشم الجمري ممثلاً لدور الوالد وعثمان أحمد تمام أبنه التلميذ.

هيع ولدى النجيض جمل الحمل والشيل

تعرف للقلامه وما بتقر لى ديل

بى فضل العلم خلصت أبوك من ويل

والما بعلم جناهو يمين يروح بالميل)

ولم تقنع مواطني شندي اللقاءات في المناسبات المتباعدة فبحثوا عن منابر أخرى لتوسيع مناشطهم السياسية والإجتماعية، فأنشأوا فريقين اطلق على أحدهما فريق الوطن وعلى الآخر فريق الجهاد، وصحب كلاً منهما دار بذات الإسمين، يختلف إليهم الشباب للندوات والمحاضرات فأقلق ذلك النشاط مفتش المركز الإنجليزي وأيقن أن الغرض من هذين الفريقين له هدف سياسي لتحريض المواطنين على العمل ضد الحكومة، ويدل على ذلك كلمتا الجهاد والوطن، فلجأ إلى أسلوب الوساطة لتغيير الإسمين لكي يأذن لهم بممارسة النشاط الرياضي ونزولاً على رغبة ووساطة تلك الشخصيات تحول إسم نادي الجهاد إلى نادي النيل وكذلك الوطن إلى النادي الأهلي، ولكن المحاضرات والندوات واللقاءات والمناشط الثقافية لم تمسسها يد الوسطاء ولا تهديدات البوليس، فأصبحت الأندية الرياضية منشطاً مكملاً للحركة السياسية.

من شندي إلى سجن كوبر:

وظللت غارقاً في الذكريات في ربوع شندي وأصغي أحيانا لراديو امدرمان فإذا به يشتعل بالنداء المستعر ليس فقط بتكرار التحريض علي من سماهم الخونة والمارقين وانما خص المطلوبين بالأسماء والعناوين وكان اسمي وأحداً منهم وهدد بأن من يخفي أحد المطلوبين سينال نفس العقوية التي سينالها الشخص المختفي... وهنا أدركني الخوف علي أبناء شقيقتي وخشيت أن يعاود البوليس تفتيش منزلها فيوقع الأذى بأبنائها الذين كانوا يتلقون دراساتهم خارج البلاد فيحرمهم من العودة لمواصلة تعليمهم، فقررت تسليم نفسي إلى البوليس. وذهبت إلى (المركز) حيث وجدت (القمندان) ومعه أحد معارفي من أبناء شندي جالسين أمام المكتب.....حييتهما فرحب بي (القمندان) ونهض يدعوني للجلوس ..... شكرته و أخبرته بأنني سمعت اسمي في الراديو ضمن الأشخاص المطلوبين، ولأنني لست من المارقين أو الهاربين أردت أن اسلم نفسي... تغيرت ملامحه وبلهجة صارمة وقاسية وبصوتٍ آمر طلب مني خلع العمامة وحشرني مع آخرين في الزنزانة وابلغ وزارة الداخلية بأنه القى القبض على الهارب .... وفي ذات المساء الحقني بقطار متجه إلى الخرطوم بحراسة (أمباشي) و(جندي).كان (الامباشي) رجلا طيبا وبسيطا يسلمني البندقية كلما أراد ضبط حزامه وقميصه الذي يخرج دائما من كرشه المتدلية !! ويحتج زميله الجندي علي تصرفه فيرد عليه بأن هذا الرجل جاءنا بنفسه وكان بمقدوره الهروب فلماذا أخاف منه وأنت نائم يا ود أخوي عليك الله أمسك لي البندقية دي خليني آخد لي غمدة 😕 طول الليل. وقبل دخولنا محطة الخرطوم غلب عليه النعاس فقال لي .... ووكتين نصل الخرطوم تورني).

توقف القطار في محطة الخرطوم ونزلنا في بهوها وراح الامباشي يتفقد عربات البوليس عله يجد مندوب وزارة الداخلية في انتظارنا كما أفاده بذلك (قمدان) بوليس شندي، ومضي من الزمن أكثر من ساعة ونحن في الانتظار، وتسآءل (الامباشي) لماذا لم يحضر شخص حتى الآن وقال: (نحن قروش ما عندنا عاد بنصل كيف... والداخلية ما شفناها قبال ده؟...) طمأنته بأنني أعرفها جيدا ومعي مصاريف كفاية سأدفع أجرة التاكسي...تركتهما في ساحة المحطة وخرجت إلى تمثال (الجندي المجهول) بشارع القصر وعدت إليهما بالتاكسي وكانا واقفين (زنهار) كل منهما يحمل بندقيته علي كتفه، سألتهما إن كانا يرغبان في شاي أو قهوة، فرد علي الجندي (المفلهم) (نحن في ساعة عمل رسمي... ما فاضين للقهوة أو شاي). ذهبنا إلى وزارة الداخلية ووجدنا عريف (ضابط نوبتجي) تسلم الخطاب من (الامباشي) وكان يقرأ بصوت مسموع وعندما جاء الي الفقرة التي تقول القينا القبض علي الهارب قلت له : إن هذا غير صحيح فأنا الذي جئت بنفسي. وأنفعل (الامباشي) وأكد أن هذا الرجل جانا والله (بكرعيه). وسألني إن كنت أرغب في فتح بلاغ ضد (القمندان) قلت : بلى ومازال البلاغ مفتوحاً.

رأس «النيفة» .. وسط المعتقلين السياسيين أصيب بالذهول وأمن نميري يبحث عن الشهداء في المقابر

(الحلقة الــ (16))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد شباب السودان، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها

وبعدها.

خليل الياس

في سجن كوبر يوليو 1971م:

وتسلم ضابط الامن خطاباً من وزارة الداخلية موجهاً الي (قمندان) سجن كوبر يأمره فيه بإعتقالي تحفظياً وصحبنى الى هناك في عربة تئن وتصرخ من العطب الذى أصابها. دخلت السرايا. وهي أكبر مبني في سجن كوبر مكون من طابقين وثمانية عنابر كبيرة كان الواحد منها يسع أكثر من خمسة وأربعين شخصاً مستلقين علي الأرض مع رداءة الطعام وقلته وتتوسط الساحة (ماسورة) واحدة صغيرة يقف المعتقلون صفوفاً كي ينالوا منها قدراً يسيراً للنظافة وغسل الملابس، وتحيطها ساحات كبيرة سمحت لنا بكل أنواع الرياضة، وفي صدرها يقف مسرح انتظمت فيه المجلة الأسبوعية والمناشط الثقافية الأخرى، وقد أُخليت السرايا تماما من السجناء واكتظت بمئات المعتقلين الجالسين علي الأرض فوق البروش وكنا قد نظمنا السكن وتحولت السرايا إلى خلايا من الجمعيات والأندية والفرق الفنية والرياضية ونشطت: بالمحاضرات والندوات حتى لتجد البعض يعتذر عن حضور بعض المناشط لانشغاله بمنشط آخر في ذات الوقت. وقد حفلت السرايا بعدد من المواطنين الذين لا ناقة لهم فيها ولا جمل في النشاط السياسي وجئ بهم لأسباب متعددة شخصية وكيدية0 وتمر ايام لا يلتقي البعض بالآخر لإنشغالهم في مناشط أخرى.

وكان المعتقلون يهتمون بالقادم الجديد ويلتفون حوله يسألونه عن الأخبار والأحوال خارج كوبر فقد ملوا الاستفسار عن أسباب الاعتقال لان كثيرين منهم قد زج بهم دون أسباب، ولم يجر معهم تحقيق أو توجه لهم اتهامات محددة. وظل جهاز الأمن يدفع ببعض المواطنين لمجرد أنهم كانوا يتابعون باهتمام وإشفاق أخبار زملائهم الذين انتزعوا من مكاتبهم أو أماكن عملهم. وسوء حظ من بدا عليه الارتياح لانقلاب هاشم العطا حتى لو لم يعبر عن ذلك بالتعليق فطالهم الاعتقال.

حين دخولي (السرايا) وجدت الجميع يتطلعون إلى ويمطرونني بالأسئلة لأروي لهم ما حصلت عليه من الصحف قبل اعتقالي، فقد كانت الصحف والمجلات والأقلام كلها محظورة وكذلك الراديو. ذكرت لهم أن الصحف سخرت جميعها للسباب والاتهام للشيوعيين والديمقراطيين مطالبين المواطنين بالتبليغ عنهم، ولكن خاب ظنهم وعلي غير ما ابتغوا كان المواطنون يأوون ويخفون البعض رغم الوعيد والتهديد، وجدت مئات الشباب وبعض المسنين فوق البروش علي الأرض ورغم المحرمات من أدوات الكتابة ووسائل الإعلام فقد إنتظم معسكر الإعتقال في عدد من الجمعيات والأندية الثقافية والاجتماعية والرياضية، وكذلك جمعيات الفنون والمسرح والطرب، وتفتقت أذهانهم عن إنشاء مجلة ناطقة في نهاية الأسبوع تبدأ بكلمة العدد وتتنوع فقراتها باللوحات والكاريكتيرات والأناشيد والأغاني. يتم كل ذلك من مخزون الذاكرة إذ ليس في المعتقل أوراق أو أقلام وكان القلم من أولويات المحظورات لدي جهاز الأمن. وإصراراً على تجاوز تلك الصعاب صنع المعتقلون من شراب (الكركدي) حبر الكتابة وأصدروا مجلة صيغت صفحاتها من أوراق الأكياس التي جاءت مملوءة بالفواكه. عندما بدأت زيارات الأسر.

وأولى المضايقات التي واجهت المعتقلين كانت المكيفات من السجائر و التنباك والشاي والقهوة، ولكنهم ظلوا علي الدوام يكتشفون وسائل للحصول عليها. وقد تمكن (طه البصير) وهو من مدمني الشاي من العثور علي مواد يوقد بها النار وكان الاحتفال بأول كوب من الشاي (الأحمر) بعد أن حول (الكورة) إلى (كفتيرة) وأمسك برأسه مزهوا بتحطيم الكيف الأول. واستمرت الإمدادات عبر المساجين إذ اكتشفنا أن السجائر هو العملة الصعبة للشراء داخل السجن. وعثرنا عبرهم على فجوة عند باب المستشفى المجاور للسرايا أحدثه السجناء يتلقون به بعض المواد التي تتوفر لدى المرضى مثل الزيت والسكر وخلافه، وانتظمت المحاضرات والندوات وفصول اللغات الإنجليزية والروسية والفرنسية. وانشغل المعتقلون بمناشط كثيرة ومتنوعة حتى أن البعض تمر بهم أيام لا يلتقون فيها إلا صدفة فقد أصبحت السرايا خلية نحل للمناشط بل أنها تحولت إلى حي سكني ينضح بالسكان، وازدادت الحركة في السرايا بالمنافسات الرياضية الدورية بعد أن تكون الإتحاد العام لكرة القدم وقد أفلح جابر عوض في صنع الميداليات والنياشين من صابون حمام بوكية وكذلك لعبة الشطرنج من بقايا الخبز وكانت هي الجوائز التي تقدم للفائزين في المسابقات المختلفة في مباريات كرة القدم والمناشط الرياضية الأخرى. ووجدت في السرايا أعداداً كثيرة من الشخصيات الثقافية والسياسية والإجتماعية مجالس عبد الكريم ميرغني و منهم على سبيل المثال لا الحصر الأستاذ عبد الكريم ميرغني الوزير السابق لحكومة مايو، وكان يقدم محاضرات قيمة عن تجاربه عندما كان سفيراً في الهند وحرص على تعليم وتدريب بعض المعتقلين على ممارسة (اليوقا) وهى رياضة آسيوية اكتسب خبرتها عندما كان في آسيا. وكثيراً ما قدم لبعض المرضى وصفات بلدية لأسرهم خلال الزيارة فأعدوها وأحضروها لهم وتم الشفاء وكان منتدى عبد الكريم في سجن كوبر يمثل ملتقى

مميزاً وجاذباً لكثير من المعتقلين المسكونين بقضايا الفكر وهموم الوطن فيستمعون فيه كما يستمتعون بالمشاركة بشتى ضروب الثقافة والمعارف الإنسانية على إختلاف دروبها..

وقد حكى لي الصديق الأثير عبد الوهاب محمود بشير أمين أمانة الاعلام السابق في سكرتارية إتحاد الشباب السوداني بأن من المفارقات العجيبة والمدهشة أنه تعرف على الراحل المقيم الأستاذ عبد الكريم ميرغني عن قرب في ندواته الراتبة في منزله بضاحية المعادي عندما كان (أي عبد الكريم ميرغني) سفيراً للسودان بالقاهرة حيث تعود أن يغشى بإنتظام مجلس ومنتدى عبد الكريم ميرغني برفقة الكاتب والصحفي الكبير قيلي أحمد عمر رحمه الله- وقد تعود أن يعمر المجلس لفيف من كبار الشعراء والكتاب والصحفيين من أصدقائه ومعارفه أمثال صلاح عبد الصبور، عبد الرحمن الخميسي وشاعر المقاومة المفلسطينية معين بسيسو. ويمضي عبد الوهاب في مداخلته مؤكداً بأن الذين نفذوا فكرة مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي قد وفقوا تماماً في تخليد تلك القامة السامقة من رموزنا الوطنية. إذ كان عبد الكريم ميرغني حقاً وصدقاً منارة للإشعاع الثقافي أينما حل، وكانت ندواته مرتعاً خصيبياً في حقول العلوم والآداب والفنون مما جعل وجوده بسجن كوبر واحة للمعتقلين. وتواجد بالسجن أيضاً الأستاذ صلاح حسن رئيس القضاء والأستاذ أحمد محمد سعد الذى قام بترجمة نشيد: لن ننسي أياماً مضت لن ننسى ذكراها .. واصبحنا نرددها كلما ودعنا معتقلاً أطلق سراحه في الايام الأولي عندما بدأت تصفية المعتقلات. والأستاذ سيد أحمد محمود والدكتور علي محمد خير والدكتور محمد سعيد القدال والدكتور فاروق محمد إبراهيم والدكتور محجوب الحارث والدكتور الحارث حمد والأستاذ عباس علي والفنان محمد وردي والفنان محمد الأمين والشاعر محجوب شريف والاستاذ إبراهيم المحلاوي وآخرين وقد ساهموا جميعاً بتقديم المحاضرات والندوات وفاضت السرايا بالمعارف وامتلأ الفراغ بالمفيد الذى أذهب عن الناس الأسي والحزن.

رأس النيفة وآخرون:

تواجدت في (السرايا) أعداد كبيرة من الشباب الذين لا يعرف لهم نشاط سياسي ولكن جئ ببعضهم لأسباب أخرى لا علاقة لها بالعمل السياسي. يقول (ع م) : كانت خطيبته ابنة عم أحد رجال جهاز الأمن الذي رفضت الزواج منه لأسباب متعددة وظل يلاحقها كي ترفض الارتباط بـ (ع م) ولكنها أصرت علي موقفها ولاحقه مراراً قبل انقلاب هاشم العطا ولكنه لم يجد مبررا كافيا لاعتقاله وعندما فشل الانقلاب أشاع عنه أنه من كوادر الشيوعيين الذين يعملون في الخفاء فتم اعتقاله وبقي لأكثر من عام حتى كشفت خطيبته الأمر لأحد أصدقاء الأسرة وكان ذا رتبة عالية في الجهاز فأطلق سراحه .... إنه الآن والد لثلاث زهرات ولا أدري إن كان الضابط المنافس قد تزوج أم لا يزال (علي قيد الحياة...).

ومثال آخر لتخبط جهاز أمن نميري أنه كان هناك عامل في ورشة للنجارة يقف في انتظار (البص) حاملا كيس به رأس نيفه وزجاجة شري، وقفت دورية أمامه وسأله أحد الجنود إن كانت لديه معلومة عن وجود عبد الخالق الذي يجري البحث عنه. وتصادف أن كان الصبي في الورشة يحمل نفس الاسم فقال له هل تقصد الأسطى عبد الخالق فاعتبر الجندي رده استفزازاً فنزل من العربة وراح يفتشه فعثر علي الكيس ومحتوياته فانتزعه منه وأمره بالصعود إلى العربة قائلاً : نحن لينا يومين ما أكلنا ولا شربنا. وما هي الا لحظات حتي وجد نفسه أمام سجن كوبر. ولكنه انفعل بصمود المعتقلين ونشاطهم وظل دائم الحضور للندوات والمحاضرات وقال إنه جاء الي هنا بدون أي خلفية سياسية ولكنه سيخرج ليعمل في السياسة مع الناس وقد سميناه رأس النيفه واصبح أحد الاجندة التي نثيرها مع إدارة السجن كل أسبوع عند مرور القمندان وكان مأمور السجن عثمان عوض الله شاباً مرن التعامل الإنساني فكرر تردده إلى جهاز الأمن يؤكد لهم أن رأس النيفه رجل بسيط وقص عليهم حدوتته الكيس فاطلق سراحه بعد ثلاثه اشهر وأنشدنا له لن ننسي اياما مضت مرحا قضيناها. ورغم امكاناته المحدودة جاء الي السجن حاملا اكياس الفواكه والسكر وفرش اسنان ومعجون وسجائر وبعضاً مما عرف حاجة المعتقلين إليه في كوبر وسلمها لأحدي الأسر يوم الزيارة طالبا توصيلها للمعتقلين. سأله أحد أفراد الأسرة ضاحكاً : هل بها (رأس نيفة)...

بلغ الذعر والفشل بجهاز الأمن لملاحقة النشطاء من السياسيين انهم لم يميزوا بين الكهل والشاب أو الاحياء والأموات... وكثيرا ما ذهبوا فجرا الي بعض الأسر يطلبون واحدا قد توفي قبل عام أو اكثر وطرقوا مرة باب أحد الشهداء وطلبوا من والدته تسليمه أو تدلهم علي مكانه...كانت امرأة متماسكة فخرجت معهم إلى المقابر وأشارت إليهم قائلة ستلتقون به إن أسرعتم الخطي في هذا الطريق ولا تعجلوا 😕 فان يومكم آت. فهرولوا إلى (البوكس) وتركوها خلفهم لتعود إلى منزلها مشيا علي الاقدام.

إبراهيم المحلاوى:

ومن بين الشخصيات التي لا تنسي أحد قادة الحركة الوطنية وزعماء الحزب الوطني الاتحادي والوزير الأسبق للثروة المعدنية الأستاذ إبراهيم المحلاوي. إستقبلناه استقبالاً لائقاً به وجلسنا حوله نسأله عن أسباب اعتقاله- لكنه تحفظ في البداية وعلمنا فيما بعد أن لديه معلومة تفيد بأن جهاز الأمن زرع (غواصات) بين المعتقلين ليستخرجوا من الشيوعين خلال الدردشه معلومات تفيدهم في العثور على بعض المطلوبين المختفين وأسماء البعض الذين لا يعرفون كثيراً عن نشاطهم ليتمكنوا من إعتقالهم.. ولم يتأكد من أن الجالسين حوله ليسوا غواصات فأمتنع عن الإدلاء بأي معلومات عن أسباب إعتقاله. ولكن سونا وهو لقب أطلقناه علي أحد المعتقلين إذ تخصص في التحقيق مع الوافدين ونشر أخبارهم علي السرايا وظل يطارد عمنا المحلاوي بالأسئلة، ولكن لم يحصل علي تداعيات ما جاء بالمحلاوي إلى سجن كوبر ولما عجز عن استنطاقه راح يسعي عن الأخبار الأخرى قال له: يا عم إبراهيم ايه الأخبار بره؟ فرد عليه بعد أن تلفت يمنة ويسرة: الأخبار بره أنكم جوه. وحينما امتدت فترة الخمس دقائق التي وعده بها الضباط خلال التحقيق تعرف علي بعض المحامين في السريا واطمأن إلى هويتهم فروي لهم حقيقة أمره بأنه كتب رسالة إلى الملك فيصل بالسعودية يحثه فيها علي التنقيب عن الثروات المعدنية وخلافها واستثمار الأموال السعودية ، فاغضب ذلك جعفر نميري وأمر باعتقاله. وبعد إطلاق سراحه جاء إلى سجن كوبر محملا بجوال بلح وكمية من السجائر ومواد تموينية أخرى سلمها لإدارة السجن وطلب منهم إعطاءها للأولاد المناضلين وهو نداء ظل يطلقه علي المعتقلين وقد حضر إضرابنا عن الطعام واعجب بثبات المعتقلين وقـــد استثنيناه مع آخرين من الإضراب لتقدم سنه.

وقص علينا بعض النوادر والخواطر خلال الحملات الانتخابية في مدينة عطبرة حينما كان ينافسه في الدائرة ممثل الجبهة المعادية للاستعمار القائد العمالي المناضل (قاسم أمين). قال انه كان شديد الإعجاب به وذكر انه في إحدى الليالي السياسية التي أعدتها الجبهة دعاية انتخابية لمرشحها (قاسم) وقف أحد أعضاء حزبنا (الوطني الإتحادي) وراح يهتف: (عاش ابراهيم المحلاوي) فتوقف قاسم عن خطابه حتى انتهي ذلك الشاب من الهتاف ثم عاد قاسم وامسك بالمكرفون وقال : (أرجو أن تهتفوا معي عاش إبراهيم المحلاوي ... ومن لما بلغني الخبر تأثرت كثيرا فذهبت إلى قاسم، عانقته وقلت له : لولا 😕منا لا يرجو طول العمر لوالدنا المحلاوي) ويواصل المحلاوي الالتزام الحزبي لانسحبت لك من الدائرة ...) ويسترسل الاستاذ المحلاوي : كان أعضاء حزبنا العاملون بالسكة حديد يدلون بأصواتهم في إنتخابات النقابة إلى القائمة التي يتصدرها قاسم أمين وزملاؤه.

16

قصة رجـــل الأعمال الذي أرسل برقية تهنئة لهاشم العطا وأخرى لنميري بعد عودته ..!

(الحلقة الــ (17))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

عوض الصايغ:

واذكر بكثير من الارتياح والدنا عوض الصائغ وهو ايضا رجل أعمال ولا علاقة له بالعمل السياسي-تحفظ بدوره عن أسباب اعتقاله فقدمت له نفسي وعرفته بان ابنه (فهمي عوض الصائغ) كان زميلي وصديقي ودرسنا في مدرسة شندي الريفية الوسطي وما زلنا علي صلات ودية- هدأ قليلاً واطمأن وبدأ يروي قصة اعتقاله- قال : السبب في اعتقالي انني سعدت جدا بانقلاب هاشم العطا وأرسلت هذه البرقية وكنت والله صادق مع نفسي: الرائد الثوري هاشم العطا الحمد لله علي استلام السلطة لكي تزيلوا الفساد والمحسوبية وتقضوا علي الرجعية. توقيع عوض الصائغ رئيس اللجنة الثورية بأمبده. وعندما عاد نميري أرسلت البرقية التالية خوفا من المشاكل: الرئيس القائد جعفر نميري: نهنئكم بالعودة-اضربوا علي الخونة بيد من حديد، نأسف للتأثيرات الشيوعية علينا توقيع عوض الصائغ رئيس مجلس الآباء بأمبدة، وذكر في التحقيق أنهم كتجار ومنذ أن كان في القولد يرسلون تلك البرقيات للحاكم الجديد وما زلت احتفظ بتلك البرقيات. ولم يبق طويلا حتى أطلق سراحه وقد كان رجلا لطيفا أسعدنا بحكاياته الممتعة ودعناه وداعا لائقا بأنشودة لن ننسي اياماً مضت، لن ننسي ذكراها لن ننسي اياما مضت مرحا قضيناها. وكان قد قام بترجمتة من اللغة الإنجليزية إلى العربية الأستاذ أحمد محمد سعد كان ذلك نشيد الوداع قبل ان يبهجنا محجوب شريف بروائعاته المتقدة حماسا وصمودا.

محجوب شريف:

وقد افلح المذيع المقتدر عبد الحميد عبد الفتاح بان يفاجئنا بأولى قصائد الشاعر (محجوب شريف) حين وقف في وسط العنبر يلقي بصوته العذب الجهير:

يا شعبنا يا والداً احبنا
يا من وهبت قلبنا ثباتك الأصيل
اليك هذه الرسالة القصيرة الطويلة
اليك من زنزانة تخاصم الفصول
اليك رغم انف كل بندقية
وكلمة شقية وحقد بربرية
إليك الحب والسلام والتحية

وبعد أن أكمل القصيدة تناقلها المعتقلون وبدأ بعضهم في تلحينها ثم أردفها محجوب شريف بكلمات حماسية أخري ظلت واحدة من الأناشيد التي نودع بها من أطلق سراحهم:

حنتقدم حنتقدم في وش الريح حنتقدم
ونهدم سد ونرفع سد واشتراكية لأخر حد.

وفي ذكرى إنتفاضة أكتوبر جاء في قصيدة للشاعر محجوب شريف التي حيا فيها ذكرى إنتفاضة أكتوبر

يا أكتوبر المحمول على الاعناق وثيقة دم
نحن بلاك ما بنسلم
مبادئ يوليو ما بتهزم

وكان للشاعر محجوب شريف أثر عميق في رفع معنويات المعتقلين بقصائده المقاتلة ورددها الجميع بحماس وإصرار على تجاوز المحن والنفي والمرض ولم يقتصر أثرها على المعتقلين وحدهم بل تجاوزها الي الشباب خارج السجن فراحوا يتغنون بها في إحتفالاتهم ومناسباتهم المختلفة السياسية منها والإجتماعية ومن الإغنيات الثورية التي ذاع صيتها ما جاء في أحد مقاطعها :

مشتاق ليك كتير واللة
للجيران وللحلة
كمان قطر النضال ولى
وغالي على ادلى
محطة محطة بتذكر
عيونك ونحن في المنفى
بتذكر مناديلك خيوطها الحمرا ما صدفة

وبتذكر سؤالك لي متين جرح البلد يشفى
ومتين تضحك سما الخرطوم
حبيبتنا ومتين تصفى
إلى أن يقول
لكني يا ويلي أقبل وين واقول يا منو
لمن أخون صباح العين
وأخون جيلي
وحاتك يا قمر ليلي
أشيل شيلي
وأموت واقف على حيلي
وحاتك يا صباح العين
على العهد القديم جايين
شيوعيين وحتى الموت شيوعيين
بنادق وين بتمنعنا العديل والزين

ورغم ما إتصفت به أشعار محجوب شريف بالتحدي والعنف والمواجهة إلا أنه ظل يتكئ على حس إنساني مرهف يذوب وجداً لحب وطنه ورفاقه وهو نبض لا يسكن وإصرار لا ينثني وأصبح إنشاده يلامس شغاف القلب والوجدان وتنفجر كلماته وموسيقاها وقوافيها بأفئدة المعتقلين فتزيدهم صموداً وثباتاً ولم تمض على تاريخنا في المعتقل مناسبة أو أحداث إلا وصاغها بأعذب الكلمات وأبسطها مما جعلها يسيرة الحفظ والأداء.. وتراه هائماً في بهو السراية درويشاً لا يحمل قلماً أو ورقة ولا يخلو بنفسه إلا وينشدها من رائعاته أحلى وأجزل الكلمات، ويتميز محجوب شريف بحفظه الفوري لقصائده ويعيدها كما هي دون أن يجري عليها تعديلاً، كانت قصائده تسيل عذوبة وطراوة كان سهل القول قريب المأخذ بعيداً عن التكلف مع رقة الألفاظ ولطافة السبك وهذا ما جعل أشعاره تستهوي السامع وتستثير فيه حاسة الطرب والإعجاب واستطاع ان يصوغ أشواقنا صوراً معبرة ويجيد التعبير الأرق ما في المشاعر وأضخمها، أستقرت فيه صفات الرجال وعظيم معادنها.

في مستشفى العيون :

كان الوصول الي مستشفى تخصصي صعباً في الأيام الاولى وخاصة البقاء فيه للعلاج، وكانت الفرص الوحيدة التي سمحوا بها هي مقابلة اخصائي العيون في مستشفى الخرطوم بحري حيث لا يوجد به قسم خاص لابقاء المرضى به فترة طويلة لمواصلة العلاج، وقد نجح الدكتور والأخ العزيز الهادي أحمد الشيخ اخصائي طب العيون شقيق القائد العمالي الشهيد (الشفيع أحمد الشيخ) أمد الله في عمره ومتعه بالصحة والعافية، قدم لنا مساعدة قيمة في العلاج، وعندما علم أننا على موعد مع زميله الدكتور تاج الدين ?اخصائي العيون في الخرطوم بحري- رتب معه تدابير تحويلنا الي مستشفى العيون التخصصي بالخرطوم. وكنت برفقة آخرين في انتظار العمليات: حسن التاج وعبد الوهاب محمود بشير... وضعنا في أحد العنابر مع عدد من كبار السن من معصوبي العيون. تمكنا في تلك الفترة من الاتصال بأسرنا وحين يأتون الي زيارتنا يجلسون في السراير بقرب أولئك المرضى وكأنهم من ذويهم وهو أمر أزعج حراس السجن ولكنهم لم يجرؤا على وقف تلك الزيارات اذ كنا نخاطب أسرنا على البعد وهم جالسون على السرائر المقابلة لنا. وحدثت طرائف كثيرة إذ كان بعض المرضى معصوبي العيون يندهشون من الأسئلة التي لا تهمهم واحياناً يردون بطريقة مضحكة لا علاقة لها بالسؤال. عندما يوجه زوارنا أسئلة مثل: كيف المعاملة؟ أو متى تتوقعون الخروج؟ ويرد بعضهم: والله معاملة الدكاترة سمحة الله يجزيهم خير.. لكن الخروج بعد عملية الموية البيضاء.. وكان حسن التاج يتمتع بعلاقات وامكانات هائلة وأصبح ذووه يأتوننا بأشهى الطعام والفواكه والحلويات وقد سعد بذلك جنود الحراسة وبعضهم اخذ مرات منها لأطفالهم وظلوا يرقبون الوافدين من أسرته بأهتمام شديد0 كان بين جنود السجن (دينق) من ابناء الجنوب لطيفاً وجريئاً.. سأل مرة حسن التاج إن كانت لديه سيارة.. فأستفسره حسن عن الأمر.. فأجابه بأنه يمكن أن يذهب معنا لزيارة الأسر في المنزل فأقنعه حسن بأنه يكفي زيارتهم في المستشفى واطلق ابو التاج ضحكته المميزة في العنبر ثم روى لنا قصة دينق. وجاءني يوماً بالمستشفى شاب أنيق وحول عنقه سماعة مرتدياً (بالطو) أبيض وراح يفحصني. لم نشهده من قبل في مرور أطباء العيون اليومي ولم يحمل ذلك الجهاز الذي يستخدمه الاخصائيون لفحص قاع العين.. أقنعت نفسي بأنه أحد الأطباء الذين يأتون بهم لمعرفة ما إذا كان المرضى يعانون من أمراض أخرى قبل إجراء العملية.. وخلال فحصه همس في أذني ليقول أن هناك فرصة لمساعدتي على الهروب من المستشفى والسفر خارج البلاد. في البدء ارتبت فيه واقتنعت بانه من جهاز الأمن ولما شعر بأنني لا أثق فيه

قال انك لا تعرفني.. أنا فلان الفلاني أوفدني اتحاد الشباب السوداني في بعثة دراسية إلى موسكو حيث تلقيت دراستي هناك ولكني تخصصت في طب الباطنية وتقديراً لما قدمه لي الاتحاد أود مساعدتك للهروب والسفر إلى إحد البلدان الاشتراكية فقد يطول بقاؤكم في السجن.. شكرته كثيراً وقلت له ان مجرد وجودنا هنا على السراير وأخواننا في كوبر على الأرض يسبب لنا حرجا شديداً فكيف يكون شأننا بعد الهروب والسفر إلي الخارج، واهم من ذلك فأن هروبي من المستشفى سيحرم مرضى آخرين من فرص العلاج خارج السجن.. أسعدني انه استوعب الأمر وقبل مغادرته العنبر اخرج مظروفاً من البالطو وبإصرار شديد دسه في جيبي كان فيه مبلغ كبير جداً في تلك الأيام.

وللحقيقة أننا حظينا بإهتمام من أسرة المستشفى إضافة إلى مجهودات دكتور الهادي وعبد القادر حسن والدكتورة منى ..ولم تتأخر (الماترون) نادية و (السسترات) نبوية ومحاسن وكثيراً ما أحضرن لنا بعض الإصدارات والوثائق والصحف والمجلات وأعددن لنا لقاءات خاصة مع الأسر واستجبن لكثير من تكاليفنا المعقولة. أما جهاز الأمن فقد كثف المراقبة ولكنه لم يفلح في العثور على شئ ولم يتمكن من منع الزوار من دخول العنبر.. وأخيراً اتخذ قراراً بتحويلنا إلي المستشفى العسكري حيث لقينا عناية من الدكتور خليل بادي، لهم جميعاً التحية والتقدير فقد كانت تلك أياماً صعبة ولكنهم تخطوها بقلب سليم وجرأة تستحق الثناء والتقدير والإشادة وازداد جهاز الامن حيرة واندهاشاً عندما عثروا على نسخة من منشور الحزب الشيوعى الذى قيم فيه إنقلاب 19 يوليو 1971 وأكد فيه أن لا علاقة له بما حدث وتساءلوا عن الجهة التى اصدرت ذلك المنشور بتلك الطباعة الانيقة والحجم الكبير.. واردنا ان نزيدهم تمويهاً واغتراباً قلنا بأنه طبع خارج السودان في إحد البلدان الاشتراكية وكان تفسيرنا لذلك ينسجم مع تصريح اللواء الباقر وزير الداخليه الذى أكد للسفاح نميرى أن الحزب الشيوعي قد إنتهي الى غير رجعة (وأن المدعو محمد إبراهيم نقد) قد سافر خارج البلاد.

نهاية مستشفى العيون:

وأنتهت فترة بقائنا في مستشفى العيون (مستشفى النهر) التي كانت رمزاً تاريخياً لشهداء ثورة 1924م، ويحضرني هنا تحقيق أجرته جريدة الأضواء حول المستشفى في عددها الأسبوعي يوم السبت 29 يناير 2005م ورد في مقدمته:

بعد ثمانية وأربعين عاماً في الخدمة في مجال الطب وجراحة العيون أعلن الدكتور أحمد بلال عثمان وزير الصحة الإتحادي في مؤتمر صحفي يوم الأحد 2004/11/21م إعتزام وزارته بيع مستشفى العيون بالخرطوم (مستشفى النهر) لمستثمر أردني بمبلغ أربعين مليون دولار والدخول في شراكة سودانية أردنية لإنشاء مستشفى إستشاري في موقعه مسدلاً بذلك الستار على أول وأكبر مستشفى حكومي في مجال طب العيون. ويواصل الدكتور حسين في ذات التحقيق والمبنى فضلاً عن أهميته الأثرية كشاهد حضاري للبنات الأولى للعمارة الحديثة في السودان فهو أيضاً شاهد عصر للعديد من الأحداث التاريخية التي شكلت وأعادت تصويب بوصلة الأحداث في إتجاه الحرية والإستقلال حيث شهد أحداث ثورة 1924م وإستشهاد عبد الفضيل الماظ الذي تمترس جنوده داخل المستشفى في معركته ضد الإنجليز. ويمضي الخبير صلاح عمر الصادق.. عندما دارت أحداث ثورة الضباط السودانيين بقيادة عبد الفضيل الماظ وسيد فرح ومجموعة من الجنود بلغ عددهم ثمانين جندياً تمترسوا داخل المستشفى وخاضوا معركتهم مع الجنود الإنجليز بصورة بطولية ولم يستطع الجنود الإنجليز الدخول إليهم بل هدوا عليهم المباني التي كانوا بداخلها وقد إستشهدوا في سبيل بلادهم وهم ممسكون بمدافعهم، وقد وجد عبد الفضيل الماظ ممسكاً بالمدفع وهو شهيد، وتقول أحدى الروايات إن القائد الإنجليزي هدلستون الذي قاد مجموعة الجنود البريطانيين قد حيي عبد الفضيل الماظ وقد تغنى للوجدان السوداني لهذه المواقف والبطولات. ويواصل النداء بقوله : لكل ما سبق يجب على الدولة والقائمين على أمر الأمة المحافظة على تاريخها وإبقاءه للأجيال القادمة فهذه المباني تحكي عظمة الأباء والاجداد وأصالة التاريخ، وهدمها يعني مسخ الشخصية السودانية ومسحها.

ونحن بدورنا نذكر الدكتور أحمد بلال عثمان بدوره الإنساني حينما كنا معتقلين بسجن شالا وما بذله وزميله الدكتور محي الدين عبد الرحمن وزملاؤه الاطباء بمستشفى الفاشر كي لا يسهم في هدم هذا الصرح التاريخي وكفى بلادنا طمساً لتاريخها البطولي ضد الإستعمار كما حدث لنادي الخريجين ومواقع أخرى أثرية أصبحت في ذمة التاريخ.

نميري في كوبر 18 أغسطس 1971م:

كان جو السجن كئيباً ومحبطاً. جميعنا يلوك مرارة الهزيمة ويخبئ أحزانه في صبر. وكلما بلغ به الصبر شأناً بعيدا يصبر أكثر ويطوي جوانحه علي مستقبل قريب تبزغ شمسه. وكان جرح الشهداء الذين حصدتهم الرشاشات وحبال المشانق غائرا في الصدور. ورغم كل ذلك تماسك الجميع وشدوا الأحزمة علي أحشائِهم واغتالوا الحزن في أكبادهم وراحوا يدبرون حياة مستقرة تواجه ذلك الواقع بلا ضجرٍ

أو يأس أو قنوط. وكما هي التقاليد في المعتقلات ساعد (قدامى المحاربين) بتجاربهم وخبراتهم في سجون ومعتقلات الحكم العسكري الأول فأنشأوا مكتباً لقيادة المعتقل وتنظيم الحياة اليومية ومناشطها المختلفة. وكان علي المكتب أن يتولى شئون المعتقلين نيابة عنهم لدي إدارة السجن وتوجيه العناصر الشابة وأكثرهم يخوض هذه التجربة لأول مرة. وخوفا من أن يقودهم حماسهم إلى صدام مع حرس السجن أقنعوهم بأن الجنود والضباط ليسوا طرفاً في ما آل إليه حال المعتقلين وإنما هم ينفذون أوامر يتلقونها من جهاز الأمن ولابد من المرونة في التعامل معهم حتى يصبح السجن أداة أخري للتحصيل واكتساب الخبرات. لكي يخرج الجميع أكثر قدرة وتماسكاً لمواصلة المسيرة.
وكان أسلوباً مقبولاً لدى الجنود والضباط وأفاد المعتقلين في إنجاز مهام كثيرة بعضها لا تسمح بها لوائح السجن.
كانت تعليمات الأمن في الأيام الأولي قاسية وغير إنسانية لم يسمح لنا بزيارة الأسر ولا دخول الكتب والمجلات بما في ذلك صحف الدولة اليومية ومنع الراديو والقلم ولم يسمح بالعلاج خارج السجن أو لقاء الاستشاريين. حتى السجائر والتمباك والسكر صارت كلها مواداً اكثر خطورة من المخدرات.

17

نميري يأمر بتحويل الشيوعيين إلى الحبس الإنفرادي

(الحلقة الــ (18))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

وفي صباح الثامن عشر من أغسطس 1971م أفقنا علي جلبة غير عادية في السجن وازداد عدد (المنتظرين) كان حشدهم في ذلك اليوم لافتاً للنظر وراحوا ينظفون حوش السرايا والعنابر باهتمام يثير الدهشة، وكنا في مثل هذا الحال -ولكن بدرجة اقل- نُدرك بأن مدير السجون سيقوم بتفقد السجن إلا أن الأمر ازداد غموضاً بدخول مجموعة من الضباط وصف الضباط وكان بينهم العم شاويش لوج وهو من أبناء جنوب كردفان، ولا يذكر سجن كوبر إلا مقترنا بالشاويش لوج فقد كان رجلا حكيما رقيق القلب يمتلئ وجدانه بالعطف

والإشفاق علي المعتقلين وله معهم تجارب كثيرة وكان مقبولا ومحترما لدي كل الأطراف ينفذ الأوامر بمرونة ترضي الإدارة ولا تضر بالنزلاء.

دنوت منه مستفسراً عن حقيقة ما يجري هذا الصباح في السجن فأخذني بعيدا ليقول لي واحدة من حكمة : يا ولدي لما (البليلة) تكون في النار ما تدخلوا ايدكم فيها .. خلوها لمن تبرد ... ولم أتبين ما قصد إليه وواصل حديثة:

الليلة الزول دا جاييكم خليكم ناس عاقلين وما تسوا عوجة والله يرفع ما خت، باكر كله يروح وتبقي حكاوي .... وقبل أن يسترسل في حكمتة سمع نداء الضابط الذي صحبة مع (المنتظرين) خارج السراية ثم عاد الضابط مرة أخري ليخطرنا بأن الرئيس نميري سيزوركم وطلب منا أن نكون خارج العنابر في حوش السرايا وأدهشنا ذلك الطلب وسألناه لماذا لا تكون الزيارة داخل العنابر كما هي الحال عند مرور إدارة السجن قال : إن جهاز الأمن طلب ذلك خوفاً عليه من أن يتصدى له المعتقلون فيؤذوه أو يودوا بحياته..... واجتمع المكتب القائد وأكد أن زيارة نميري في هذه الظروف وبعد ثلاثة أسابيع فقط من مجزرة الشجرة لن تكون بأي حال زيارة ودية. ووجه المعتقلين وخاصة عناصر الشباب والطلاب بأن يتحلوا بالهدوء وعدم الاستجابة لما يصدر عنه من استفزاز. وتم الاتفاق علي أربعة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وهم: عبد المجيد شكاك حسن قسم السيد، سعودي دراج ،صلاح مازري ليكونوا في مواجهة نميري فهم معرفون لديه بهويتهم السياسية.

وفتح باب السرايا الكبير ودخلت مجموعة من سلاح المظلات أنزلت جنود السجن من جدران الحراسة وإستولت على أماكنهم حاملة رشاشات صوبتها نحو حوش السرايا حيث وقفنا في انتظار (الزيارة) وجاء بعدهم نميري وفي عنقه جرائم لا تحصى وأستولى عليه قلق شديد والتمع في عينيه الحقد والإنتقام ورشحت على وجهه الكئيب صور المجازر والمشانق التي تلاحقه وتؤرقه مهما حاول أن يخبئها بالصلف والكبرياء المزيف. فقد ظل يشغف للإستماع والتهريج والكذب عن عبد الخالق ورفاقه الذى دبجه له أحمد سليمان ومعاويه إبراهيم سورج. كان بصحبته الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم محاطاً بجنود آخرين من المظلات مدججين بالسلاح وفي جنبه مسدس وبدا نميري وقد تخلي عنه سلطان العقل وصار مفتونا بمزايا سلطة الفرد مثقلاً بالغرور ضاغطا علي المسدس في جنبه. وبلا مقدمات أو تحية وقف منتفخاً ليقول : الشيوعيين يطلعوا بره وكأنه يخاطب جمعاً لا يعرفهم من قبل استفز بذلك الشيوعيين وغيرهم فاندفعوا نحوه... رأعه الموقف وصعقته الجرأة. كان في اعتقاده وهو مدجج بذلك الفريق المسلح أن ينكر المعتقلون هويتهم السياسية أو يطلبوا منه العفو وإطلاق سراحهم ... فعاد كسير الخاطر وابتلع صلفه وكبرياءه وجلس في مكتب مدير السجن وأستدعي بعض المعتقلين الذين وقفوا في صدره واراد أن يجري معهم نقاشا لم ينل منهم مأربا بل تلقي دروساً لا أخال أنه نسيها ولكنه بالقطع لم يفد منها شيئا. وأشباعاً لغروره أمر بتحويل المعتقلين الذين وقفوا في وجهه إلى زنازين البحريات في حبس انفرادي لفترة أسبوعيين وهي الزنازين التي أعدت لمن حكم عليهم بالإعدام. ثم اطلق سراحهم منها وأعيدوا إلى السرايا.

وعاد الشاويش لوج ليقول : الحمد لله أنكم تصرفتم بكثير من العقل.. وأردف قائلا : لو كان هاشم العطا جاء بهم الي سجن كوبر وليس إلى القصر الجمهوري وبعد الانقلاب المضاد وتكوين مجلس الوزراء الجديد واتخاذ قرار باطلاق سراح المعتقلين وأخطار وزير الداخلية بذلك وبدوره يطلب من مدير السجون تنفيذ القرار ويأتي الأمر إلى مدير سجن كوبر ويطلق سراحهم. ويكون قد مضى زمن طويل على نميري وزملائه داخل كوبر وبعدها يطلق سراحه الحاكم الجديد ويومها يطير نميري من الفرح ويبعث ببرقية إلى رئيس مجلس الثورة الجديد شاكراً ومقدراً ويؤدي (البيعة) هو وزملاؤه. وواصل العم شاويش لوج قائلاً : المرة الجاية جيبوهم هنا في كوبر مش في القصر الجمهوري! قلت له : يا عم لوج نحن ما عملنا الإنقلاب ده.. ضحك ساخراً.. وأصر على قوله معليش يا أولادي برضو ما تودوهم القصر الجمهوري.

الإضراب عن الطعام :

أكدنا في مطالبنا واحتجاجنا على سوء الطعام وعدم زيارات الأسر. وكررنا ذلك كل أسبوع عند مرور إدارة السجن ولكن دون جدوى. ورغم أننا فقدنا كثيراً من قدراتنا لسوء التغذية قررنا الدخول في إضراب عن الطعام لمدة يومين استثنينا منه كبار السن والمرضى وكان اضراباً ناجحاً ليس فقط فى سجن كوبر بل شمل كل المعتقلات بما فيها الأقاليم، وكان حدثاً اذهل إدارة السجن والأمن وحاروا في الكيفية التي تم بها هذا التنسيق ويعود الفضل في ذلك الي التدابير التي قام بها الحزب الشيوعي باتصالات أجراها عبر فروعه في كل منطقة بها معتقلون وتوحد الجميع علي يوم وساعة الصفر. وكذلك الإضراب الطويل الذي تم بعد الحملة الثانية وأستمر لأكثر من أسبوع. وفزع نميري عندما علم بذلك وأغلظ في محاسبة جهاز الأمن وكانوا قد أقنعوه بأن الحزب الشيوعي قد أنتهي من الحياة السياسية مما جعله يصرخ في خطاباته بأنه دمر الحزب الشيوعي وسبقه الي ذلك بيان اللواء الباقر وزير الداخلية آنذاك الذي أكد فيه (بما لا يدع مجالا للشك) أن المدعو محمد ابراهيم نقد سكرتير الحزب الشيوعي قد هرب خارج البلاد.

كانت نتائجه إيجابية فقد تحسن الغذاء وسمح للمرضي بالذهاب إلى المستشفيات وفتحوا الزيارات للأسر وأصبحت لدينا (كميونة) غنية بالمواد الغذائية والأدوية والفيتامينات وعظم النشاط داخل السرايا وإزدادت الأندية الثقافية والرياضية وحرصنا علي تحرير مجلة ناطقة في نهاية الأسبوع ملأت فراغاً كبيراً وكانت أداة رائعة للترويح بل أن بعض جنود السجن كانوا يحرصون علي حضورها. وعند دخول الفنان وردي مستشفي السجن كان يردد الأغاني بصوت عال حفاظاً على حباله الصوتية كان بعض المارة يقفون خارج السجن لسماعه،

بل أن بعض أسر جنود السجن طلبوا مراراً عبر أزواجهم بعض الأغنيات لوردي فقد توقفت الإذاعة عن بث أغنياته وكأنهم يعاقبون بذلك الفنان وردي وليس محبيه من المواطنين. ومن الطريف أن أحد (المتربين) وليس المطربين أجروا معه حواراً بالاذاعة وعندما جاء ذكر وردي سماه الفنان سابقاً تماماً كما كانوا يقولون عن المعتقلين الذين فصلوا من الخدمة فلان الوكيل سابقاً أو المحاسب سابقاً.

إحتفالنا بذكرى أكتوبر 1971م:

وجاء الحادى والعشرون من أكتوبر يسجل الذكرى السابعه لثورة اكتوبر بعد إعتقال دام ثلاثة أشهر.. كان اول الاعياد التى إحتفلنا بها داخل السجن وقد أبدع الفنانون من المسرحيين والمخرجين والشعراء في إعداد موكب داخل السجن (بالسرايا) وجعلوا من البطاطين والبروش وما توفر من ثياب وملابس باليه نعشاً رمزياً لشهداء مجزرة الشجره التى إرتكبها السفاح جعفر نميرى وهو في حال من الذعر والإفلات والهستريا.

حملنا ذلك النعش في موكب مهيب وتجولنا به حول السرايا وارتدينا أجمل ما توفر من الثياب وقد اثار فينا الشجون وايقظ كامن حزن خبأناه في صبر مرير، ولأول مره يجهش الرجال بالبكاء وتنزلق الدموع بعد أن نزعنا الالم عن أكبادنا وخبأنا الحزن الدفين في الأعماق فقد حبسناها ونحن نشهد الرفاق يهزون حبال المشانق ويرسلونها على أعناقهم جدلات من فخار ويحولون طلقات الرشاشات الى اوسمة تنير صدورهم.. حين فارقوا الحياة لم نذرف الدموع عليهم حتي لا تنهار قوانا أو تأذن للسفاح نميرى كى يدعي أن الفزع أو الخوف قد ملأ صدور المعتقلين. وأمسكنا بذاكرة الايام وبدا لنا طيف اؤلئك الشهداء: عبد الخالق محجوب ، الشفيع أحمد الشيخ ،جوزيف قرنق، هاشم العطا ورفاقهم في القوات المسلحة الذين صعدوا الى المشانق والدروة مرفوعي الهامات فأزلوا هيبة نميرى وصحبه الساقطين وهم يهتفون بحياة شعبهم وحزبهم ونضال الطبقة العامله.

في ذلك المهرجان صدح الفنان محمد وردى والفنان محمد الامين بالاناشيد الوطنيه الثوريه وتحول مئات المعتقلين الى(كورال) هز جدران السجن وتجاوزها الى الشارع فتوقف المواطنون عند الجدار يسترقون السمع فقد صدأت آذانهم من سماع اللغو في الراديو وخطب نميرى الآسنه.. وشهد بعض جنود السجن ذلك الموكب فاهتزت جوانحهم ولم يخف الشاويش (لوج) إنفعاله وعلق على ذلك بقوله إن الموكب يذكره بمظاهرات (أبو جنزير) وانشدنا في (كورال) مقتدر انشودة محجوب شريف التى حيا بها ثورة أكتوبر:

أكتوبر أكتوبر هدير الحق

فارس ليل وشق ياليل دروبك شق

يا أكتوبر المحمول على الاعناق وثيقة دم

نحن بلاك ما بنسلم

مبادئ يوليو ما بتهزم

باسم الشارع المطعون حنتقدم

بأسم العامل المغبون حنتقدم

نرفع سد ونهدم سد وإشتراكيه لآخر حد.

حملة التضامن العالمية:

بعد مجزرة الشجرة التي راح ضحيتها عشرات من الشهداء والسجناء وآلاف المعتقلين الذين اودعوا السجون والمعتقلات تعاظمت حملات التضامن وتعددت وسائل الضغوط والاحتجاجات العالمية وأوفدت منظمات حقوق الإنسان ممثلين لها للوقوف على سلامة المعتقلين وطالبت بإطلاق سراحهم أو تقديمهم الى محاكمات عادلة وقامت المظاهرات وكثرت النداءات والملصقات تحمل صور الشهداء والمعتقلين. وفي الداخل نشطت الأسر في عدد من المواكب مما عرض أعداداً من أفرادها للاعتقالات والتشريد وأسفرت تلك الحملات عن بدء إطلاق سراح المعتقلين كما أدى النشاط الداخلي الي تحويل بعض المعتقلين الى الأبيض وشالا وزالنجي وبورتسودان. وقلقنا كثيراً على المرضى من زملائنا الذين ينقلون الى معتقلات خارج العاصمة لادراكنا ان العناية الطبية غير كافية وان ابعادهم عن ذويهم لا يوفر لهم الاحتياجات الضرورية خاصة وان الطريقة التي يتم بها تحويلهم الي تلك المعتقلات كانت دائماً مفاجئة فلا يخطر المعتقل بموعد ولا الجهة التي ينقل اليها حتى يتمكن من توفير ما يحتاجه او اخطار اسرته لتحضر له الأدوية والملابس. حتى الجنود المرافقون لا يخطرون الا بتجهيز امتعتهم واستعدادهم للسفر.. فاصبح اصرارنا على بقاء المرضى في كوبر بنداً ثابتاً في اجندة اللقاء مع ادارة السجن.. ونذكر في هذا الشأن بتقدير كاف الجهود التي بذلها الدكتور صلاح الكردي والدكتور هاشم جدو والمساعد الطبي الصادق.. الذين وفروا كافة الظروف المتاحة بقدر ما تيسر في مستشفى السجن من أدوية وغذاءات الى دخول المستشفيات ومقابلة الاخصائيين أما زميلهم الدكتور الشلالي والمسؤول الاول عن مستشفي سجن كوبر فقد كان سلبياً في ادائه الطبي نحو المعتقلين وإرتمي تحت أقدام جهاز الامن يتلقي منهم التوجيهات بأن لا يوصى بتحويل المرضى خارج السجن وأهمل عمداً العناية بمن هم أكثر حاجة للعلاج ومقابلة

الإستشاريين. ولكن عندما وقع إنقلاب هاشم العطا واطلق سراحنا ويوم مغادرتنا مكاتب السجن عرض على الدكتور مصطفي خوجلى أن يوصله الى المنزل ليس ذلك بدافع المروءة والشهامة ولكنه طمع في إشاعة رشحت بأن الدكتور مصطفي قد رشح رئيساً للوزراء وربما جاء وزيراً للصحه ولكن الدكتور مصطفي رفض ذلك العرض. ولا ننسى قومندان السجن العم (ميرغني أبو الروس) اذكر انه اراد ان يخبرنا بحملة التضامن العالمية خلال زيارته مع مدير السجون فوقف يقول : انتو عاوزين تطلعوا والشوارع كلها مليانة بالصور ويقولوا للحكومة اطلقوا سراح المعتقلين خليكم هنا شوية وكانت إشارة شدت من عزمنا وضاعفت قدراتنا على الصمود وابو الروس مشهود له بالتعاطف مع المعتقلين السياسيين ودعم الصلات بينهم وأسرهم وكان يمدهم بوجبات خاصة من منزله، واذكر له نادرة عندما كان في الجنوب وزارهم طلعت فريد عضو المجلس العسكري في نظام عبود وفي يوم اللقاء الجماهيري معه تعطل الميكروفون ولما عجزوا عن اصلاحه طلب الاذن من الوزير وابلغه بأن لديه بين المعتقلين كهربائياً ممتازاً فاحضر الراحل مصطفي ابو حسنين وكان الراحل أحد الشيوعين المعتقلين فى سجن جوبا حيث ابعدوا من الخرطوم قبيل إحتفالات 17 نوفمبر التى سبقوها بنشاط معاد للسلطه العسكريه وأغرقوا العاصمه والأقاليم بمنشورات وملصقات وشعارات على الجدران تندد بالحكم العسكرى وتدعو المواطنين لإسقاطه فصحبه أبو الروس إلى اللقاء وتمكن من إصلاح الجهاز ووضعوا له مقعداً وجلس قريباً من الوزير متابعاً حتى انتهاء الحفل ثم عاد الي السجن مرة اخرى.

عند اطلاق سراح بعض المعتقلين كنا نردد مقاطع من انشودة التقدميين العراقيين :

السجن ليس لنا نحن الاباة
السجن للمجرمين الطغاة
ولكننا سنصمد ونصمد
وإن لنا مستقبلا سيخلد ويخلد
لنا الغد لنا الغد .. لنا الغد
يوم تنصب المشانق
لمن؟
للمجرمين الطغاة

وعندما تكرر تحويل المعتقلين الى خارج كوبر أصبحنا نردد هذا النشيد كل مساء ونختمه بالتحايا للأقسام المختلفة هاتفين : معاً معاً حتى النصر. وكان المعتقلون في تلك الاقسام يردون التحية بنفس الهتاف وبهذا نتأكد من أنهم مازالوا موجودين في أحد اقسام كوبر ولم ينقلوا الي مكان آخر خارج الخرطوم.

أطلقنا على الحمام كلمة «الإتحاد الإشتراكي» فأصبحت معلومة لدى جنود السجن

(الحلقة الــ (19))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب

عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

شيخ العرب محمد عبد الغفار:

وتواترت كشوفات إطلاق السراح وضعفت عضوية كثير من الأندية والمناشط الثقافية والرياضية. وكان بيننا من الشخصيات الوطنية الظريفة شيخ العرب، محمد عبد الغفار وقد أشار إليه الدكتور/ محمد سعيد القدال في كتابه عن ذكرياته في المعتقل. أطال الله في عمره ومتعه بالصحة والعافية. وعلى الرغم من انه كان يتقدمنا لبعض السنوات إلا أنه يتمتع بذاكرة قوية تحصى كل حدث مر به. وكنا في الأيام الأولى حينما أشاعوا ان محاكم ميدانية ستعقد للمعتقلين ولم تتوفر لدينا أفلام أو أوراق أو أية وسيلة إعلامية أردنا أن تكون افادتنا في التحقيق واحدة لا تناقض فيها وأصبحنا كلما يفد الينا معتقل جديد نحضره أمام شيخ العرب ليروي ما دار معه في جهاز الأمن وردوده على الأسئلة التي وجهت إليه وشيخ العرب يمسك بتجاعيد جبهته منصتا ومتابعا. نسأله فيما بعد عن أقوال فلان يرويها كما هي حفظه الله ومتعه بقوة الذاكرة.

ولما خلت السرايا من الشعراء والمطربين قال شيخ العرب : يعني محجوب شريف ما في خلاص ما في غيره شاعر وانشد مجاريا محجوب في قصيدته التي صاغها حينما ابعدوا الي سجن شالا في مدينة الفاشر والتي جاء فيها :

ودانا لي شالا عزتنا ما شاله
نحن البلد خيره ومستقبل أجيالا

ولما كان شيخ العرب من مواليد وأبناء بربر قال مجارياً محجوب شريف :

ودانا لي بربر قلبنا ما فرفر
نميري يا أذعر تلقانا زي عنترمحال نحن نتقهقر

وراح يقاطع الشاعر مبارك حسن خليفه في قصيدته التى نظمها في عيد ميلاد إبنه هانى كان مطلعها :

إبنى هانى لم تتمتع بحنانى

ولكن شيخ العرب لم يسعد بما جاء فيها وكان يعتقد أن الشعر في تلك المرحله لابد أن يكون شعراً ثورياً فانشد يقول بطريقته الساخره:

أسمع يا هاني ** يا إبن أبو هاني
لو تشوف ابوك تاني ** أقطع إيدى ولسانى

ثم أنشأنا فريقين لكرة القدم وكان فريقي دائماً منتصراً وفي نهاية المباراة يقف أمام فريقه هاتفاً : الكلام على الأخلاق والفنون الرائعة. ولم تطل المنافسة حتى ألمت به وعكة ألزمته النمرة وندب حظه بغياب الشعراء محجوب شريف وصلاح عووضة اذ كان يأمل في قليل من الشعر يخفف به وعكته فطمأنته بأن بعضاً من الشيــاطين تزورنــي احـياناً، وعليه ان يطمئن ويضع في بطنه (بطيخة صيفي) لأني سأخترع له العديد من القصائد كلما عاودته (الخبيثة).. وصغت له هذه الكلمات قائلا له إنني حريص على شفائه لانه رئيس الفريق المنافس ويبهجني ان يشاهد بنفسه هزائم فريقه فأنشدته :

شفاك الله يا حمدي ونضر خدك الوردي
ودم لفريقك العاتي ونطط فيه كالقرد
فلم تك انت شاعرنا ولا فناننا وردي

ومن طريف ما حدثنا به شيخ العرب عند زيارة أســرته في الســجن أن من بين أبنائه عبد الخالق الذي حضر بعد أن تمت مراسم ختانه وقد جلس بقربه ليحكي له ما دار في تلك الأيام وكانا يتهامسان ببعض الطرف والقفشات فتدخل رجل الأمن الذي كان متواجداً بالمكتب كما هو التقليد في كل الزيارات وطلب من شيخ العرب ان يرفع صوته ليتابع ما يدور من حديث مع ذاك الطفل. فقال له شيخ العرب يا أخي أنا بتكلم مع طفل صغير كلام بتاع ونسه والولد يحكي لي شوية نوادر وطرائف حصلت في مناسبة الختان وفيها بعض كلام لا يجوز الجهر به بصوت مسموع. ولكن أصر رجل الأمن على أن يكون الحديث بصوت عال ليسمعه. فاعتدل شيخ العرب وبطريقة ساخرة وبصوت جهير قال مخاطبا ابنه الصغير : أسمع يا عبد الخالق قول للجماعة أجلوا الانقلاب العسكري عشان ناس الأمن كشفوه وعرفوا ساعة الصفر وانتظروا لغاية ما نحدد يوم تاني ولكن الحديث لم يعجب رجل جهاز الأمن واعتبره استفزازاً ولكن شيخ العرب لم يحفل بتبرمه واستمر يخاطب ابنه : ما تنس يا عبد الخالق تقول ليهم : نأسف لتأجيل الانقلاب العسكري الي وقت يعلن فيما بعد. وانهى شيخ العرب الزيارة قبل موعدها بعد ان اشار الى ابنه وهو يودعه : لا تنسى الوصية.

وبينما كنا نتابع طرفة شيخ العرب خلال الزيارة تناهى إلى أسماعنا صوت خارج السرايا يشابه صوت أسياخ الحديد وهي ترمى على الأرض من إحدى الشاحنات فقفز دكتور على الكنين ،وكنا قد تقدمنا من بين مطالبنا لتحسين المعتقل بسراير ومراتب- واعتقدنا ان ذلك الصوت نجم عن إنزال السراير على الارض وقف الكنين ليقول :

أبشر يا شيخ العرب الليلة الشافك راقد فوق سرير ما كضب. وأسرع نحو باب السرايا لينظر من فتحة صغيرة على فناء السجن، وكنا قد اطلقنا علىهذه الفتحة تسمية خاصة بها منسوبة الي (القمندان) يتداولها المعتقلون كما كنا نطلق على الحمام كلمة (الاتحاد الاشتراكي) فأصبحت معلومة لدى جنود السجن وعندما يأتون إلى (التمام) ويكون عدد المعتقلين ناقصاً يسأل الجندي الحارس : عندكم ناس في (الإتحاد الاشتراكي) ثم يمضى الى قسم آخر و يعود الكنين ليخبرنا بأن ذلك الصوت لمواسير أحضرت لتغيير أخرى بالية. ولكن شيخ العرب كان على موعد مع إطلاق فك السراح كما كان يسميه إذ قال أحد الزائرين أنه سمع أخباراً تقول بذلك في الأيام القليلة القادمة!

وطال الانتظار بلا فائدة ولم يعد إلينا من شالا من يروي لنا رائعات محجوب شريف الجديدة فقررنا أن نملأ الفراغ الشعري جلسنا ومعي الكنين وقاسم عباس وصغت هذه الكلمات وقمنا بتلحينها بعد أن أضاف إليها شيخ العرب البنادق والمشانق ما بتحول من مسارنا :

شيل يا ريح هتافنا وشيل نشيدنا
وامشي وشح بيه ساحتنا وبيوتنا
وأغشى أطفالنا وصغارنا
واحكي ليهم عن صمودنا
وامشي يا ريح قول لهم قول وقول
كوبر الأسطورة اصبح قلعة بتردد شعارنا
والمشانق والبنادق ما بتحول من مسارنا
والطريق السرنا فيه كان مصيرنا واختيارنا
نحن صممنا وعزمنا نغسل العار من ديارنا
ونحن لما اخترنا درب الكادحين
الملايين المناضلين
كنا عارفين الطريق ده بودي لي وين
ما بنحيد ما بنلين عن طريق الملايين

وبالرغم من ما بذلناه من جهد في التلحين والأداء لم يلق نشيدنا استجابة.. فقد ذهب الشعراء والمطربون وبقيت مجموعتنا مبحوحة الصوت تردد اغنيات الوداع.. وحين تعذر امرنا اقترح علينا احد (الخبراء) ان ننسب كلماتنا الي الشاعر محجوب شريف فلم نفلح فقد رشحت رائعاته بعطر مميز لا يخطئه سمع المتلقين. ولم نسعد بإستماعنا الي تعليق شيخ العرب على لحن المنظومة حتى جاءنا النقيب عثمان عوض الله متألقاً مبتسماً ليعلن أن محمد عبد الغفار شيخ العرب قد أطلق سراحه وودعناه بأكثر من نشيد حملناه على أكتافنا حتى باب السرايا مرددين: أكتوبر دينميتنا دنميتنا ساعة الصفر- ركيزة بيتنا وهتفنا له وللشعب السوداني. ورغم جدية الهتاف والنشيد في تلك اللحظة لم ينس دعاباته وهو يقترب من باب السراية ليهتف : الله اكبر ولله الحمد كنا نردد ذلك الهتاف حينما يطلق سراح أحد الأنصار؟ وامعاناً في السخرية والعبث كنت ومحمد صالح ابراهيم عندما يتوقف الهتاف بعد خروج المعتقل نغني.. (صورة مايو صورة غوية نبني نعمر (لوطنية) ومرة استدعانا ضابط من جهاز الامن في مكتب احد ضباط السجن وقال انه يود التحقيق معنا لاساءتنا لـ (ثورة مايو) وانكم تجعلون من النشيد مضحكة فرد عليه محمد صالح: احنا ما قلناش ثورة مايو نحن كنا بنقول: صورة مايو بالصاد وليس بالثاء وغوية بالغين ايه دخل ده بالكلام بتاعكم.. قال الضابط: جينا نعمر بوطنية مقطع معروف من نشيد سيد خليفة لثورة.. رد عليه محمد صالح: نحن قلنا نبني نعمر لي وطنية ودا يرجع لحاجة وطنية ولية مسكينة عندنا في المحس.. وجمع الضابط اوراقه واختفى وجاءنا الشاويش سيد احمد ليصحبنا الى داخل السجن وقال ضاحكاً : أنتو يا شيوعية ما بتنقدروا..

عرديب الكجور وبعض المفارقات:

أصبحنا عددا قليلاً في المعتقل وبدأنا نكتشف بعض المواهب لدى المنتظرين نملأ بها فراغاً احدثه خروج متواصل من المعتقلين. بقى معنا من المنتظرين احد أبناء الدينكا يدعي (عرديب) كان شابا خفيف الظل مرحا كثير الدعابة. وعندما علم ان كشوفات إطلاق السراح توالت على السرايا راح يدعي أنه كجور وأصبحنا نلتف حوله ليرمي الودع مستخدماً حجارة صغيره مهنئا كل من يقع امامه أحد الأحجار التي يرميها ويقول له انت طالع قريب من السجن ،وعندما علم ان بعض المعتقلين أعيدوا الي العمل صار يبشرهم بفلوس كثيرة مقابل ذلك يمنح سيجارة وكانت هي العملة الصعبة المتداولة في السجن. وفي مرة وقف الحجر عند (سيف الدين علي عثمان) وبشره

بالاضافة الي إطلاق السراح ومتأخرات الراتب بأن زوجته ستضع له مولوداً ذكراً، وسيف الدين لم يكن بعد متزوجا. فقال له : يا عرديب أنا لي هنا سنة ونص كيف مرتي تجيب ولد؟ فرد (عرديب) بكل بساطة : كان انت هنا ناس بره ما في!؟
وكان جاداً في تساؤله اذ ان بعض قبائل الجنوب يتوارثون زوجات اقاربهم عند الغياب أو الوفاة.

19

ماذا قال الصحفي عندما رأى في المنام أنه المعتقل ووضع في الزنزانة منفرداً عن نميري..؟!

(الحلقة الــ (20))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

وعندما اجريت الانتخابات لرئاسة الجمهورية وكان المرشح الوحيد هو جعفر نميري والتصويت بلا أو نعم جعلوا من احد المكاتب في سجن كوبر مركزا للتصويت ودفعوا السجناء والمنتظرين صفوفاً الي ذلك المركز.. وطبعا لم يسمحوا للمعتقلين السياسيين لانهم يعلمون سلفا النتيجة وسوف تهبط نسبة الفوز، وعندما جاء عرديب كعادته للعمل في السرايا سألناه : بماذا صوت بنعم أو لا.. قال صوت بنعم.. آخذناه في ذلك وذكرناه بأنه ظل دائماً يشتم نميري وحكومته فلماذا صوت بنعم. قال عرديب : الصندوق الذي فيه ورقة نعم كان موضوع في الطاولة امام ضابط الانتخابات وصندوق (لا) موضوع بعيد.. بعيد في آخر المكتب يعني اذا مشيت هناك كل واحد يشوفك قلت (لا) ونحن ما عوزين زيادة مشاكل بعدين يحرمونا من السكر والزيت ويخلونا طوالي محبوسين في الورشة يعني ما نقدر نجيكم تاني ولا نقدر نساعدكم.. ضحكنا وقلنا له معاك حق!! وعندما أطلق سراح الأخ/ إبراهيم الجزولي وقد ترك لنا فراغاً فنيا كبيراً وكان مخرجاً بارعاً للمسرحيات والدعاية ،يحكي ان جدته كانت سعيدة جداً بخروجه من كوبر وبعد أن انفض سامر الزوار الذين جاءوا يهنئونه دنت منه أمه لأمه هامسة في اشفاق شديد لتقول له : الحمد لله- الله فكاك بالسلامة- خلاص يا ولدي بعد ده كفاك (القشيرية) دي- وكانت تعني (الشيوعية) تاني سويها قبلك في البيت ما تمرق بيها في الشارع عشان ما يمسكوك تاني ناس البوليس!! قال ليها يا حبوبه هي مريسه ولا عرقي؟ لكن خلاص بس منها شويه مره مره!!. ولا ننسى العم عبد الله باب الله كان الإمام بجامع السجن وكان متقدماً في السن ولكنه تحمل الكثير من الجلوس والنوم على الأرض ورغم مطالبته الكثيرة بسرير لم يستجب جهاز الأمن لطلبه وكان في نهاية كل صلاة يطلب منا أن نقول آمين ويرفع كفيه للسماء: اللهم حطم طياراتهم وكسر دباباتهم وأحرق مؤسساتهم -نقول له يا عم عبد الله الحاجات دي حقت الشعب يقول: ماله بنشتري غيرها بنشتري واحدات جداد بس الله يخلصنا من الهجيمة دي!! ومن شخصيات كوبر التي لا تنسى عمنا

الشاويش لوج وهو من أبناء جنوب كردفان ،كان رجلا حكيما ومتعاطفا رغم التزامه الشديد بلوائح السجن إلا أنه حسن التصرف ومحترم لدى إدارة السجن والمعتقلين على السواء ،وكانت له تجارب عديدة مع المعتقلين الشيوعيين ابان فترة الحكم العسكري الأول. حين جئنا بذلك العدد إلى السجن قال: والله الشيوعية زمان كانوا شوية اسع ولدوا كثير ،شدوا حيلكم يا ولادي وربنا يهون وكمان اصبروا شوية في إشارة الى الجو الرهيب الذي انتشر تلك الأيام ،وكنا قد أخطرناه بأننا دخلنا في إضراب عن الطعام. وكان يأتي بمجموعة من الجنود مساء وصباحا لحصر عدد المعتقلين ،كان ينفخ في صافرة حادة الصوت في الصباح الباكر. ولما كنت من الذين يستيقظون مبكراً سألته يا عم لوج لماذا تعذبوننا كل صباح وتطلبون منا الجلوس على الأرض ألا يكفي أن تعدوا الناس وهم على النمرة؟ لماذا تعذبوننا بهذا التدبير وبيننا بعض المرضى الذين لا ينامون إلا في وقت متأخر من الليل بعد تناول أقراص تساعدهم على النوم أي قبل مواعيد التمام بساعتين ثلاثة. وفي هدوء واشفاق الأب أخذني بعيداً عن الجنود المرافقين له وقال لي: اسمع يا ابني نحن ما بنعذب زول كل الحكاية عاوزين نتأكد انه الناس اصبحوا حيين ما ماتوا!! قلت له ما عندي مانع أنا كل يوم في الصباح افتش ليك كل الناس واشوف مين الحي ومين الميت بس بلاش حكاية الصفارة المزعجة دي، ورد على قائلاً: طيب كان انت ذاتك.. ثم قطع حديثه وصعب عليه ان يكمل كان انت ذاتك كنت ميت نعرف الحاصل من منو؟ وافق الشاويش لوج واصبحت كل صباح اقف امامه زنهار وأقول له تمام التمام فيسجل العدد في مذكرته ويغادرنا الي قسم آخر. كان رحمه الله رفيقاً ذكياً وإنسانا طيب القلب ?يبكي حينما يأتي بورقة لاطلاق سراح بعض المعتقلين. وانتهت خدمته خلال حكم مايو ولكن المعتقلين لم ينسوا له تلك الأيام الرائعة فبادروا بالبحث عنه وأوجدوا له عملاً مناسباً في المنطقة الصناعية في الخرطوم بحري تساعده وتملأ فراغاً كبيراً شغر بتقاعده. وكان ذلك مجهوداً بذله الاستاذ ابو زيد محمد صالح لما توفر لديه من علاقات اجتماعية واسعة.. وعندما اطلق سراح عرديب (الكجور) بعد جهود قام بها بعض المحامين الذين افرج عنهم لم يتوانوا في إيجاد عمل له فالحقوه بوزارة التربية والتعليم عاملاً بالوزارة وظل حريصاً على مواصلة علاقاته بالمحامين ولعله الآن داخل (القبيلة)!!

مواكب أسر المعتقلين:

اكثرت أسر المعتقلين من المواكب التى طالبت عبرها بإطلاق سراح ابنائها وجعلت تدعو للمشاركة بعض الاسر من الاهل والجيران من غير ذوى المعتقلين للتضامن معهن وكن يوآخذن النساء اللائي لم يشتركن في تلك المـواكب... ويذكر(؟؟) أن إحدى جيران والدته في الحى توفيت إحدى قريباتها فلم تذهب والدته للعزاء وعندما سالوها عن الاسباب خاصة وأن جارتها صديقة قديمه قالت: عشان ما جاملتني في موكب ولدى.

عندما حددنا يومين للإضراب عن الطعام ودخلنا في اليوم الثانى وكانت الساعه الثانية عشرة ومازلنا في ظلام الليل ولكننا بالفعل قد اتممنا اليوم الثانى فاصبح كل واحد يحى الآخر صباح الخير صباح الخير ليثتنى له حق الاكل والشرب.

انطلقت إشاعه بأن المعتقلين سينقلون في دفعات متقاربه الى الجنوب. وبعد التمام جاء الجاويش بورقة وراح ينادى منها، : صلاح مازرى محمد الحسن حظمر- هاشم سوركتي- فاروق محمد ابراهيم- محمد عثمان طه- محجوب بخيت- عمر نقد. إعتقد زملاؤهم في السرايا أنهم كما أشيع منقولون الى الجنوب فأمسكوا بهم لمنعهم من الخروج وظلوا يتجاذبونهم مع الجنود حتى لا يغادروا السرايا واستمرت المعركه لزمن أزعج إدارة السجن ولكن بادر صلاح مازرى وطلب منهم الهدوء وقال لهم سنفيدكم الى اية جهة نحن ذاهبون فتركوهم. وإذا بهم يحولون الى قسم المدرسه داخل كوبر كان ترحيلهم الى جوبا مجرد إشاعه أطلقها جهاز الامن ليحد من نشاطهم داخل السجن.

فى مستشفى سجن كوبر كان معنا النقابي المخضرم عثمان جسور والد الشهيد (صبري) وكان احد النشطاء فى الحزب الاتحادى الديمقراطى وسبقه الى المستشفى أحمد زين العابدين المحامى أحد قادة الحزب الاتحادى الديمقراطى.. كان العم جسور ملتزماً ببرنامج المعتقل وإنضباطه خلافاً لقائد حزبه وعندما يعود من الزيارة محملاً بمواد تموينيه وغذائيه يقف عند باب المستشفى ويسأل عن (النبطشي) ليسلمه جميع ما عنده من الزياره وقد سعدنا بروحه الرياضى والصبر على المناقشات رغم اختلاف وجهات النظر.. ومرة عندما إشتد النقاش قال ساخراً: عموماً انا عندى ثلاثه من أولادى ينتمون الى (قبيلتكم) ألا يشفعون لي إذا إستلمتم السلطة.

كان في السرايا إثنان من المعتقلين اسماهما متطابقان حتى الإسم الرابع هما : محمد عثمان طه محمد. وكثيراً ما ينادى الجندى للزيارة فيذهب أحدهما ليجد أن الأسرة صاحبة الزيارة ليست من ذويه فيصاب بخيبة الأمل. وعندما تم إطلاق سراح أحدهما جاء النقيب عثمان عوض الله الذى يميز بينهما؟ قال: محمد عثمان طه محمد مش بتاع البنك الزراعى هو الذى أطلق سراحه .

رجل الأعمال المعروف جابر أبو العز عندما وقع إنقلاب هاشم العطا هرع إلى السينما التى صودرت منه وإستولى عليها ولما فشل الإنقلاب اعتقل وجيئ به إلى كوبر وعند المدخل إلى السرايا ناوله الشاويش لوج (النمرة) مغطاة بالبرش فقال جابر: مين قال ليك أنا بصلى فابتسم لوج؟ قال له: هذه ليست مصلاية هو سريرك خذه وادخل.

الصحفى الاستاذ عبد الرحمن احمد إعتاد أن يصحو مبكراً ولكننا لاحظنا يوماً على غير عادته أنه أطال البقاء فى (النمرة) وظل يهمهم

بكلمات لم نتبين مضمونها ثم قفز فجأة من مرقده وراح فى إنفعال شديد يضرب الارض (بالسفنجة) وهو يشتم: لعنة الله على نميرى بتاع الكبارى سألناه ما الخبر وهو يهتز من الضحك قال: إنه رأى في المنام أنه اعتقل ووضع في الزنزانه منفرداً وإذا به يصحو ليجد نفسه في السجن.

عند وصولنا الي سجن شالا جاء اربعة من المساجين يحملون زيراً ضخماً لم نشهد حجماً مثله وكان السر شبو يتابع ذلك الحشد من المساجين. وحين عادوا بعد ذلك وهم يحملون صفائح مليئه بالمياه وراحوا يملأون الازيار. نهض السر ساخراً يسألهم وهل سنبقى فى هذا السجن حتى نشرب كل هذه المياه.

دكتور صلاح التجانى وزملاؤه من كلية الطب والهندسه أعضاء جمعية أصدقاء الريف كان لديهم برنامج صيفي للعمل التطوعي في الاقاليم وهو برنامج يقومون به خلال عطلة الصيف ولكن جهاز الأمن كان يعتقد أن لهم شأناً آخر غير ذلك فاعتقل قادة اللجنه ولكنه لم يعثر على صلاح التجانى الذى إختفي ولما لم يجده اعتقل والده رهينة وعندما علم صلاح بالخبر ذهب الي جهاز الأمن وسلم نفسه فأطلق سراح والده.

المحكومون بالإعدام ميدانياً يرحلون بالدبابات .. وهذا ما حدث للشفيع وعبد الخالق محجوب .. والمفاجأة في د. مصطفى ..!

(الحلقة الــ (21))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

مأمور السجن عثمان عوض الله:

وأذكر بتقدير كبير النقيب عثمان عوض الله، وكان وقتها يسمى مامور السجن فقد تعامل معنا بصورة حضارية ورائعة في المخاطبة

والاستماع إلى مطالبنا التي نقدمها لإدارة السجن وتمتع بروح مرحة عالية، جاءنا مرة ومعه جنود من السجن على غير عادة وراحوا يبحثون في كل العنابر في السرايا من حقائب وأكياس وكرتون، سألته ما الخبر؟ وقد تعودنا على مثل هذا التفتيش بحثا عن راديو او قلم أو نوع خاص من الكتب فقال متهكما: تصور أنهم بفتشوا عن مطبعة؟! وكان الحزب الشيوعي قد اصدر بيانا يقيم فيه احداث 19 يوليو أكد فيه سلامة الحزب بالجماهير وكان المنشور رداً مفجعاً على تبجح نميري الذي ادعى أنه دحر الشيوعيين والخونة والمارقين ولن تقوم لهم بعد اليوم قائمة وصرعه البيان عند دخوله المكتب في رئاسة القوات المسلحة ورآه فوق مكتبه فانهارت قواه وراح يحتسي الخمر في وضح النهار!! مما استدعى حضور طبيب لمراقبته وكان البيان طويلاً وانيق الطباعة ونفي أية صلة للحزب بانقلاب 19 يوليو وأكد انها تهمة لا يرفضها وشرف لا يدعيه. ولما فشل جهاز الامن في العثور على من تبقى من قيادة الحزب ادعى ان المنشور طبع في كوبر ولما لم يسفر التفتيش عن ماكينة طباعة او رونيو زعموا ان المنشور طبع في الخارج في احد البلدان الاشتراكية وبالتحديد بواسطة المناضل النقابي إبراهيم زكريا فشددوا الرقابة والتفتيش في المطار على كل قادم من اوروبا وخاصة من شرقها وكان دائماً نصيبيهم الفشل والخذلان.

وعن النقيب عثمان عوض الله وزملائه جاء في ذكريات الدكتور محمد سعيد القدال وصفا أميناً ومنصفاً بشأنه كان ضابط السجن وجنوده أوسع أفقا من نميري وزمرته فقد ادركوا بثبات فطرتهم وانتمائهم السوداني ان السلطة ضل ضحى وأنها ما دوامة وهناك قصة أحد ضباط السجن في تلك الأيام التي توالت فيها الاعدامات. فقد كانت الأحكام تصدر من المحاكم الميدانية من معسكر الشجرة ويرسل من يحكم عليهم بالإعدام في دبابة الي السجن ليتم تنفيذ الإعدام فوراً. وهذا ما حدث بالنسبة لعبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرنق ثم جاءت دبابة تحمل دكتور مصطفى خوجلي مما يعني انه محكوم عليه بالإعدام. وعندما قرأ النقيب عثمان عوض الله الحكم وجد أنه السجن وليس الإعدام قفز واحتضن مصطفى في انفعال شديد. فقد كان الضابط في اعماقه إنساناً. وكان سوداني الانتماء مدركاً لتشابك العلاقات الاجتماعية التي تعلو فوق صخب الضجيج السياسي والهستريا الاعلامية) إنتهى وحقيقة الامر ان النقيب عثمان عوض الله بذل جهوداً كبيرة في تعاونه مع المعتقلين وتسهيل مهام كثيرة ضاق منها جهاز الامن، ولعل سلوكه ذلك كان السبب في نقله من كوبر إلى سجن الدامر واحيل في النهاية للصالح العام.

وكان نميري مفتوناً بمزايا السلطة الفردية ونفخه الكبر وأثقله الغرور فجاء البيان معززا لصمودنا وثباتنا بقدر ما أذل كبرياءه وصلفه. وحصلنا على نسخة منه تناولناها بالدراسة والبحث وأكد أن الحزب بخير وانه لم يكن يخطط لذلك الانقلاب ولكنه تعامل مع الواقع حين ادرك ان قيادته تشكلت من الشيوعيين والديمقراطيين تماماً كما حدث في 25 مايو فأيده حتى لا يخلو ظهرهم لقوى اليمين المعادية فتفتك بهم ويعلم نميري هذه الحقائق ولكنه ينكرها كما أنكر ليلة الرابع والعشرين من انقلاب مايو يوم جاء الي عبد الخالق محجوب في منزله ليقول له انه مقتنع بوجهة نظر الحزب في تأجيل الانقلاب ولكن بعضهم قد تحرك بالفعل. وواصل نميري القول لا أدري إن كان هذا هو العشاء الأخير معك وقد لا نلتقي ثانية. فرد عليه عبد الخالق: لا أود أن أعيد عليك رأي الحزب في موضوع الإنقلابات ولكنكم وضعتمونا أمام الأمر الواقع وإن شاء الله لن يكون هذا هو العشاء الأخير ولن نترك ظهركم خالياً لتعصف بكم القوى الرجعية حكى هذه الواقعة عثمان (كط) الذي كان متواجداً مع عبد الخالق.

نميري في حضرة عبد الخالق محجوب مساء 24 مايو 1969م

وفي هذا السياق ذكر الاستاذ محمد محجوب عثمان أحد قادة تنظيم الضباط الاحرار في إصدارته حول العمل العسكري بعنوان (قضايا نظرية حول الجيش في أدب الحزب).. وقد وقع الاختيار على جعفر نميري الذي كان يعمل وقتها في مدرسة المشاة في (جبيت) وتم إستدعاؤه قبيل أيام قليلة بحجة فحوصات طبية في الخرطوم ليكون على رأس الانقلاب، ومن الجدير بالذكر أنه وطيلة الفترة التي اعقبت ثورة اكتوبر وما اعقبها من إجراءات متشددة في حق الضباط الديمقراطيين والوطنيين لدورهم الذي لعبوه داخل المؤسسة العسكرية لدعم ثورة الشعب، كان العقيد جعفر نميري يميل إلى الابتعاد عن أي نشاط لصالح تنظيم الضباط الاحرار بدعوى ان رقابة وحصاراً قد ضرب على تحركاته من جهاز الاستخبارات العسكرية.

كان رفض فكرة الانقلاب من جانب الضباط الشيوعيين منسجماً مع موقف قيادة الحزب، حيث اجتمع اثنان منها هما سكرتير الحزب والشفيع احمد الشيخ عضو المكتب السياسي قبل يومين من وقوع الانقلاب بالعقيد جعفر نميري لإقناعه بفكرة التخلي عن الانقلاب، لأنه سيقطع الطريق على وضع الحركة الجماهيرية الذي كان يشهد تنامياً ملحوظاً يجعل بإمكانها إحداث تحولات عميقة في الوضع السياسي، وربما لا يعلم البعض أن نميري ولسبب غير معروف- قد اظهر اقتناعاً بالفكرة وتوجه لخور عمر لإقناع القوات المتواجدة هناك ليمنعها التحرك، غير أن ضابطاً مغامراً ذا إرتباطات غامضة تصدى بالقول بأن التحرك أصبح ضرورة لا محالة بعد ان ذكر أنه قد سبق له أن خاطب جنود سلاح الدبابات والمظليين المعسكرين في خور عمر حول أمر الانقلاب.. وهكذا فإن الامر خرج إلى العلن، وليس هناك أدنى ضمان للسرية أو الكتمان وبعدها سيدفع كل مشارك الثمن أمام المحاكم العسكرية حسب ما تقدم به من كلام مضلل، لان هذا كان هو

الطعم الذي ابتلعه انقلابيو خور عمر، بعد ان تكشف له فيما بعد أن ذلك الضابط لم يقم أصلاً بتنوير الجنود حول فكرة الانقلاب0 وعند وقوع الإنقلاب عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي إجتماعاً لتقييم ذلك الحدث، وأصدرت منشورها الشهير بأن ما حدث هو إنقلاب عسكري قامت به فئة من البرجوازية الصغيرة وليس ثورة قامت بها الجماهير.. وفي ذات الإجتماع قدم عبد الخالق محجوب سكرتير عام الحزب إقتراحاً بأن لا يشترك الحزب في حكومة مايو خاصة وقد إختار قادة الإنقلاب أعضاء من الحزب الشيوعي دون إستشارة هيئة الحزب ولكن عندما أجرى التصويت على الإقتراح سقط بأغلبية اللجنة المركزية وأشترك وزراء الحزب في الحكومة ولكن الحزب طلب منهم تسجيل ملاحظتهم بأن إختيار الأعضاء من الحزب دون إستشارته أمر غير سليم بل فيه تجاهل لرأي الحزب.

منتظر جديد بالورشة:

وتتواصل أحداث السراية بالنوادر والطرف، جاء المنتظرون صباحا كعادتهم للنظافة في السجن ولفت نظرنا رجل متقدم في السن يدعي عبد الرحمن، وكجزء من ملء الفراغ كما هي العادة عند حضور قادم جديد جلسنا حوله نسأله عن أسباب التحفظ عليه قال: انه يسكن في حي كوبر في جزء من منزل تشاركه فيه امرأة واختلف معها في بعض الأمور فاساءت اليه وكانت امرأة عجوز فانفعل وأمسك بخشبة ضربها على عنقها فسقطت مغشياً عليها وفاضت روحها ولم يكن قصدي اغتيالها ووضعوني في الورشة مع المنتظرين.. وجاء بعد أيام مع نفس المجموعة وكنا قد استقبلنا زميلاً لنا معتقلاً جديداً من نشطاء النقابات العمالية. فجلس بدوره قريباً من العم عبد الرحمن وسأله ايضاً عن اسباب اعتقاله قال انه تشاجر مع امرأة وارادت ان تضربه بعصا فابتعد عنها فاذا بها تسقط على الارض ويرتطم رأسها بحوض الاسمنت قرب الماسورة في الحوش فتموت في الحال.. فإندهشنا من اختلاف الرواية ولكن الخبير (عرديب) كان قد سأله إن كان بالمنزل شخص معهما فأجابه بانهما كانا وحيدين فقال له عرديب : انكر الرواية الأولى لانه من الصعب جداً ان يدينك القضاء بدون شهود أو اعتراف. ويسترسل عرديب بأنهم كسبوا خبرة واسعة بوجودهم في الورشة ولقاء المحامين والاستماع إلى توجيهاتهم.

إضراب أخر ناجح:

استمرت قوائم الافراجات تتوالي وتخرج أعداد كل فترة قصيرة في الأسبوع وحين بقينا مجموعة صغيرة شددنا من إصرارنا على إطلاق السراح وأصبح أول بنود للمناقشة لدى مرور إدارة السجن مصحوبا بمطالبتنا بالسراير حتى يتم إخلاء السجن. ثم دخلنا في إضراب عن الطعام. واذكر بالخير دكتور هاشم جدو الذي قرر أن يحول المعتقلون الي المستشفى لان حالتهم الصحية قد تدهورت. ولما كان مستشفى كوبر لا يسع هذا العدد فقد اضطرت الإدارة لتحويلنا الي قسم المعاملة ليصبح قسماً تابعاً للمستشفى بما في ذلك السريروالأكل الخاص والأدوية. واستعاد المعتقلون عافيتهم بل ان بعضهم زاد وزنه كثيراً حتى ان والدة أحدهم في الزيارة قالت له : يا ولدي خجلتني الناس يقولوا شنو**!** عليك الله خفف الوزن شوية**!!**

تصفية المعتقلات 1973م

وزعيم جبهة الميثاق الإسلامي:

بعد انتخاب نميري رئيساً للجمهورية وحتى لا يتعارض بقاء المعتقلين في السجون مع الدستور اصبح لزاماً عليهم ان تفرغ المعتقلات. واخلى المعتقل في شالا واعادوا المعتقلين الي كوبر واصبحنا جميعا في قسم (المديرية) حيث جاءوا باجمل رائعات شاعر الثورة محجوب شريف وقد اسبغوا عليها الحانا خفيفة كنا نؤديها في (كورال) مقتدر.. في تلك الفترة ضموا إلى مجموعتنا واحدا من قادة التنظيم الاسلامي (جبهة الميثاق) وكان وحيداً بيننا إلا أنه لقى منا كل تعاون وترحاب.. فقد ضمنا خندق واحد رغم اختلافاتنا السياسية والعقائدية فاشركناه في كل النشاطات اليومية بدءاً بقهوة الصباح مصحوبة بالعطر الجميل وكذلك الالعاب الداخلية والاستماع الي المجلة الناطقة مساء كل خميس رغم انه لم يشاركنا الوقوف عندما نؤدي النشيد الختامي الذي نحي فيه شهداءنا، فلم نتذمر من جلوسه وحيداً وسط القائمين.. ويوم سقط مغشيا عليه في طريقه للحمام إثر نوبة قلبية وكان السجن قد اغلقت ابوابه نهضنا جميعا نطرق الابواب والشبابيك بالحجارة وأدوات المطبخ مما احدث صوتا ازعج جنود السجن واجبرهم على فتح الباب.. وبسرعة فائقة حملناه عدوا الي مستشفى السجن ولحسن حظه ان كان بين الشيوعيين المساعد الطبي (جقدول) الذي قام باسعافه بالتدليك والتنفس حتى استرد أنفاسه، وعندما فاق من غيبوبيته حمد الله وقال: لولا الجهود التي بذلها الشيوعيون لإسعافي لكنت اليوم في عداد الأموات.. لكن ماذا فعل بعد ذلك؟

وبعد فترة اطلق سراحه.. لم نتطلع الي زيارة منه او امدادنا ببعض مواد تموينية يدرك اهميتها وساهم في استهلاكها.. ولكن ماذا فعل؟ ذهب الي جهاز الامن ليقول لهم انه كان في السجن مع الشيوعيين لفترة كافية وقف فيها على اساليبهم في العمل وانه جاء ليعرض (خدماته) لمحاربة الشيوعية.. وكنا قد شاركناه الحزن على مرض كريمته وتمكنا من تسريب طلب إلى اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي نرجوهم فيه توفير بعثة علاجية لها، ولكن القدر كان اسرع حيث توفيت رحمها الله.. ترى هل فاقت قدراته تلك التي بذلها (فوستر دلاس) وزير خارجية امريكا الاسبق الذي اعترف بانهم فشلوا في محاربة الشيوعية؟ رحم الله الاستاذ ابراهيم المحلاوي احد زعماء الحزب الاتحادي الديمقراطي الذي لم نقدم له سوى الواجب الابوي لكهل متقدم في السن لم يبق معنا زمنا طويلا ولكن حين اطلق سراحه عاد في أول زيارة الي السجن يحمل جوالاً من التمر ومواد تموينية اخرى طلب تسليمها للمعتقلين.

وفي مايو 1973 بعد الظهيرة وكان عددنا قليلا جاءنا قومندان السجن عبد الرحمن الصاوي وفي يده ورقة ليقول لنا مبروك خلاص تم إطلاق سراحكم-حضروا حاجاتكم. لم نصدق الأمر في البداية واعتقدنا أننا منقولون إلى موقع آخر خارج الخرطوم وقد عودتنا إدارة السجن أن لا تفصح عن المكان الذي سيرسل إليه المنقولون ويبقى الأمر دائما سرا حتى على الجنود الذين يصحبون المعتقلين. وإنما يخطرونهم فقط بالاستعداد للسفر وحمل أغراضهم معهم!! كنا واثقين أننا ذاهبون الي سجن اخر وعللنا ذلك بأننا اصبحنا مع مجموعة من القيادات السياسية الملاحقة اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي: عبد المجيد شكاك-حسن قسم السيد-سعودي دراج. رددنا سؤالنا للصاوي الي اين نحن ذاهبون؟ قال الي بيوتكم سخرنا من هذه الجملة وقلنا له سواء لدينا ان نكون في كوبر أو أي اقليم آخر في البلد. أحس الصاوي بعدم ثقتنا فيه واضطر أخيراً لإبراز خطاب جهاز الأمن فاطلعنا عليه وتأكدنا من جملة إطلاق سراحهم. حملنا امتعتنا واتجهنا نحو سيارات الأمن التي كانت تنتظرنا لتنقلنا الي مكاتبهم وهناك اتصلنا بذوينا فجاءوا بسياراتهم فعدنا إلى ديارنا بعد الخمس دقائق التي وعدونا بها عند الاعتقال. وكان اكثر المستقبلين فرحا وابتهاجا اصغر أبنائي طارق وظل يلاحقني بالأسئلة لماذا تأخرت كل هذه المدة وأين الغيتار الذي وعدته به وبعض الأسلة البريئة مثل ليه النميري ما جاء معاك؟ قضينا مساءً رائعاً وزاد من روعته تعاطف الأصدقاء والجيران وامتلأ الحوش بالخراف وأصرت الوالدة على البخرات التي جاءت بها من شندي لتمنع اولاد الحرام من القبض علي. وكانت زوجتي حريصة على تسجيل كل ما يرد إليها من مساعدات بدءاً بالنقود وجوالات السكر والفحم وكل المواد التموينية التي كان بعض الجيران والاخوة يمدونهم بها فبادرت بزيارتهم شاكراً لهم وقوفهم في تلك الأيام العصيبة وما قدموه من عون لأسرتي شد من عزمنا فلم توهننا رهبة الموت و لا زلزلت خطانا الاعتقالات.

مهمة الإختباء في غاية الصعوبة .. وكم هم عظماء أولئك المختفون دون تذمر من أجل الوطن

(الحلقة الــ (22))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

تجربة الاختفاء والهروب اغسطس 1973م :

لم تمض فترة طويلة على خروجنا من كوبر حتى جاءت أحداث اغسطس 1973م أو كما سماها الإسلاميون ثورة شعبان حيث نشط الطلاب بالمظاهرات والتحركات داخل المؤسسات التعليمية وصحبتها إضرابات متكررة من النقابات العمالية والفئوية والمهنية مما أدى إلى إعتقال ومحاكمة بعض النقابيين بالسجن لمدد متفاوتة وعادت حليمة إلى عادتها القديمة وبدأت الاعتقالات. وكما هي أساليب أمن نميري ان يعتقل في البداية الشيوعيين والديمقراطيين ثم يبحث بعد ذلك عن مسببي الشغب كنا زبائن الأمن في الخرطوم بحري: المعلمين: عباس علي, العمال: سعودي دراج، الشباب: خليل الياس وكذلك (زبائن آخرون) في أمد رمان والخرطوم وبعض النقابيين في الشركات والمؤسسات المخلتفة. وكثيراً ما ذهبوا الي منازل يبحثون عن نشطاء بدعوى انهم يثيرون القلاقل ضد الحكومة وكانوا في ذمة التاريخ. وشاءت الصدف أن أكون في منزل جاري تلبية لدعوة غداء بمناسبة ختان أبنائه. في ذلك اليوم جاء أحد رجال الأمن سأل أبني عادل ان كان والده موجوداً ورجاه ان يخبره بأن صديقاً يود مقابلته. ورغم صغر سنه إلا ان الطريقة التي خاطبه بها وهو ينظر داخل المنزل بصورة مريبة أخافته وأوحت إليه بان هذا الرجل ليس كما قال صديقاً لوالده. وكان على وشك ان يأتي ليخبرني بالضيف ولما سأله: أقول ليه منو؟ قال: قول ليه عصام وكان الاسم لا ينسجم مع جيل ذلك الرجل. فقال له: خلاص لما أبوي يرجع حأكلمه انت حترجع متين؟ فتجاهل الضيف السؤال وركب البوكس واختفى. ثم عاد بعد دقائق قليلة ليسأل ابني هل يعرف أين ذهب والده فأخبره بأنه سافر قبل يومين إلى شندي لرؤية والدته المريضة. أسرع ابني إلى عند الجيران واخبرني بما حدث. قررت الابتعاد عن المنزل وذهبت الي صديق لي بامدرمان لا علاقة له بالسياسة رحب بشهامة أولاد البلد واعد لي مقراً آمناً ومريحاً في منزله ووفر لي كل الصحف والمجلات لمتابعة ما صحب تلك المظاهرات وظل يزور أسرتي من وقت لآخر يطمئنهم ويأتيني بأخبارهم ولم تجف يداه يوماً من تقديم المواد التموينية وما يحتاجون إليه في المنزل وبعض النثريات دون أن يشير إلى ذلك ولو تلميحاً.

لم أعهد تجربة الاختفاء من قبل. ولم أتمكن من الوصول إلى جهة أنشد مساعدتها وتجربتها في الاختفاء .. إنها مهمة في غاية الصعوبة إذ ينبغى عليك أن تبقى كل النهار داخل المنزل ولا تغادره إلا ليلاً وبحرص شديد. وقد أدركت كم هم عظماء اولئك المختفون المناضلون الذين وهبوا السنوات العديدة من شبابهم دون ضجر أو تذمر من أجل وطنهم وشعبهم. وبذلوا وما زالوا يبذلون الجهد من معين لا ينضب من الصبر والثبات والصمود ونكران الذات تحيط بهم المخاطر من كل اتجاه. تحية إجلال وتقدير وصادق الأمنيات لهم بدوام الصحة والعافية.

وأقسى ما عانيته في فترة الاختفاء كان حرماني من ابني الصغير (طارق) كنت أحياناً اتسلل ليلاً الي المنزل بعد أن يبعدوه حتى لا يراني فيفضح أمري لدى زملائه في الحي إذ كان كثير الثرثرة بالأخبار معهم.. ويؤلمني حين اسمعه يسأل والدته عني ولماذا لا يحضر إلي المنزل، واكتفيت برؤيته حين يخلد إلى النوم. كان طارق أصغر أبنائي شديد الصلة والصداقة بي. وقد أحببت فيه نبوغه وذكاءه وقدراته العديدة في الفنون الجميلة والموسيقي والرياضة. وأبدع مبكراً في العزف علي القيتار والأكورديون والاورغن كما تفوق كذلك في السباحة.. كنت دائماً اصحبه إلى تلك المناشط .. ولكني تجنبت الظهور أمامة فقد عود زملاءه علي اطلاعهم بكل نشاط في المنزل. لذلك خشيت أن يكشف أمري لزملائه وكان أمرا عسيرا أن اتواجد في غرفة بالمنزل واستمع إليه في الغرفة المجاورة ولا أراه إلا من ثقب

بالباب وهو غارق في النوم.. وكم آلمني أن استمع إليه يسأل والدته لماذا تأخر والده واصبح بعيداً عنهم وقد وعده بالحضور قريبا ومعه (الجيتار) الجديد وكذا وكذا.. مما كان يرغب في الحصول عليه. وقبل مغادرتي إلى كسلا في طريقي الي اثيوبيا طلبت من والدته عبر الهاتف أن أتحدث إليه بعد أن تفيده بأنني احادثه من المانيا إذ كان شديد الإعجاب بها ويزعم أنه حين يكمل دراسة الهندسه سوف يتزوج أمراة ألمانية وأخبرتني والدته أنه كان يوماً منهمكاً في رسم تصميم المنزل الذى تصور أنه سيصبح سكناه مع زوجته الألمانية وراح يشرح لوالدته أن هذه غرفة النوم له ولزوجته والثانية لأطفاله وأخري المكتبة وآلات موسيقية وقاعه للضيوف والأصدقاء .. وعندما انتهي من وصف منزله سألته والدته : طيب وين أنا وأبوك؟ فاجابها مندهشاً : يا عوذ بالله انتو لغاية الوقت داك حتكونوا عايشين؟ وسبحان الله .. فقد جاءه صديقه عبد الرحمن بدراجته النارية الجديدة واصطحبه ليريه سرعتها وقدرتها وكنا قد رفضنا مراراً شراء واحدة له خوفا عليه من حوادث المرور.. ولم يذهبا بعيدا عن حي المزاد حتى داهمتهما شاحنة قذفت بهما في شارع الاسفلت وشقت فخذه فنزف بصورة تعذر معها إسعافه فاصبح في ذمة التاريخ فالقي علي أفئدتنا جرحاً لا تمحوه الأيام ولا الصبر الطويل رحمة الله.

إختفاء في منزل صديق:

وانتهزت فرصة بقائي بمنزل صديقي نهاراً لأراجع الدروس مع أبنائه وكنت سبباً في أن يأتي إلى المنزل مبكرا واقلع عن (القعدات) التي يعود منها في منتصف الليل فأصبح وجودي لا يخلو من أهمية. ومن الطريف أن صديقي كلما التقى بأحد الأصدقاء والمعارف يصر على صحبته إلى المنزل قائلاً له أن لديه مفاجأة زول ما شفته قبل سنين- كان رجلا بسيطاً طيباً وأدخلني في مطبات دون أن يدرك ذلك. وسعد مرة بضيوف لم يحظ بلقائهم منذ فترة طويلة، كان بينهم رجل متقدم في السن ممن عاشوا فترة في مسقط راس صديقي وقد أعجبه ذلك اللقاء وأراد أن يتعرف علي الحضور فطلب من صديقي أن يقدم له الضيوف ليتعرف عليهم، وظل صديقي يتهرب من ذلك الرجاء حتى لا يأتي بذكر اسمي، فقد رافق بعض ضيوفه من لا يعرف هويتهم وراح يغض الطرف عن ذلك الطلب بالدخول والخروج، ولكن الرجل ما انفك يردد بالحاح مما اضطر صديقي مكرها للاستجابة ولم يستطع ذكر اسم مخالف لأن بعضهم كان زميلاً لي، وحين جاء دوري قفز الرجل مندهشاً : وينك يا ابني انت ليك زمن مختفي وسألت عنك حاج أحمد قال انك مسافر! والحقيقة كنت عاوزك تساعدني في موضوع ابنتي سارة كانت عندها رغبة شديدة تدرس في واحد من البلدان الاشتراكية!! المهم حصل خير وأخيراً وافقت على الزواج من ابن عمها والسفر معه إلى لندن تكمل هناك دراستها.. بالله كلم حاج أحمد قول ليه عقد سارة في مسجد الشيخ قريب الله وما تنسى تجي معاه.. وكان الرجل يعمل مع شقيقي الأكبر أحمد في مصلحة التلفونات ولقائي به كان عابراً فلم أتبين هويته.

تدبير السفر للخارج:

واذكر هنا بتقدير كاف أحد أبناء الأصدقاء وكان ضابطاً في القوات المسلحة واصل زيارته لي يومياً في ذلك المنزل وهو في طريقه للعمل بزيه العسكري وعربته الجيب وعندما اقترح علي ذلك الضابط السفر خارج البلاد لفترة معقولة حتى يهدأ الحال قلت له أنني مراقب وأكيد وضعوا اسمي بالمطار في قائمة المحظورين من السفر، قال : لا عليك سأدبر الأمر وطلب مني صوراً بهويتي الجديدة وأرسلها إلى زميل له خارج العاصمة فأعد لي كل وثائق السفر. ويوم قررت مغادرة البلاد حملني بعربته إلى بنك الخرطوم حيث تسلمت الشيكات السياحية ووقعتها أمام إحدى قريباتي في نفس القسم الخاص بالنقد الأجنبي، وأسعدني أنها لم تتعرف علي شخصيتي بعد أن أدخلت عليها بعض التغييرات، وأصبح إسمى مختلفاً عن حقيقته وكذلك تاريخ الميلاد وأخذني من هناك إلى الخرطوم ثلاثة حيث البص السريع إلى كسلا وهناك استقبلني شقيقه وأخذني إلى منزله حيث يسكن مع مجموعة من (العزابة) وقدمني لهم باعتباري خاله في طريقه إلى أديس أبابا في إجازته السنوية وبقيت في كسلا لثلاثة أيام لم أغادر فيها المنزل وكنت أعد لهم الطعام فقد برعت في تجويد العدس ودخلت في مطبات صغيرة ذلك انهم حينما ينادونني لا أرد عليهم سريعاً لأني لم أتعود بعد على الاسم الجديد فأخبرهم مضيفي بأن سمعي ضعيف، وصاروا يتحدثون معي بصوت عال كلما جلسنا في المساء وكدت أعترف بأن سمعي سليم من شدة الصراخ قرب أذني. وأخذت الطائرة إلي مدينة اسمرا ومنها إلى اديس ابابا وحصلت على تذكرة الطائرة من اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي بعد أن بعثت ببرقية إلى مندوبنا هناك (حامد عبد العزيز) في (بودابست) وسرني انه لم يندهش من الاسم الجديد فقد كان يعرف أنني أغادر البلاد، وخلال يوم واحد حصلت على التذكرة (أديس ابابا - روما - بودابست).

إجازة سلطة مايو لقانون خاص بالإعتقال شجعني على العودة من الخارج

(الحلقة الـ (23))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

في مطار إديس وروما:

واتجهت إلي جمهورية المجر الشعبية. سارت كل هذه الأمور بدقة كافية عدا أمر واحد لم انتبه له وهو أنني لم أؤكد الحجز في مدينة كسلا ولقيت من مدير المحطة درساً طويلاً واتهمني بعدم الاهتمام مما تعذر معه إدراج اسمي في المنفستو واستمعت اليه في أدب شديد حتى لا تتصاعد المسألة وينكشف المستور. وخلال انتظاري في (أديس أبابا) وحينما كنت أتحدث باللغة الانجليزية مع أحد المواطنين عن أمر ما كان يندهش الواحد ويسألني الست اثيوبيا لماذا تتحدث باللغة الانجليزية؟ وكان شبهي يومئذ قريباً جداً من الأثيوبيين حتى أن مدير الفندق تشكك في هويتي واوشك أن يبلغ البوليس وشاءت الصدفة أن يكون في ذات الفندق زميل الدراسة الضابط أحمد ورسما ذو الأصول الصومالية وصديق مدير الفندق في أجازه سنوية تعرف علي وطمأن مدير الفندق فحظيت بليلة سعيدة ذاك المساء على نفقة مدير الفندق.

وفي مطار روما انتظاراً للطائرة المتجهة الى بودابست رحت في تعسيلة طويلة وكان المسافرون قد غادروا الترانزيت الى الطائرة واصبح الميكروفون يردد نداءاً باسمي الجديد فلم انتبه حتى جاءني مندوب شركة الطيران وشدني من ذراعي منزعجاً : ألا تسمع كل هذه النداءات؟ اعتذرت وصحبته في بوكس خاص وكنت آخر المسافرين على الطائرة في آخر الدقائق قبل اقلاعها.

في الإختفاء:

أعود إلى فترة الاختفاء فقد حفلت بتجارب ومفارقات ولكنني في النهاية كنت سعيداً بها فقد أكدت قناعتي بشهامة أولاد البلد ووفائهم غير المحدود وحفظهم للجميل. والضابط الذي قدم لي تلك الخدمة على الرغم من دقتها وحساسيتها سبق لي أن ساهمت في الحصول على

منحة دراسية لشقيقه بأحد البلدان الاشتراكية وتخرج فيها بدرجة الدكتوراة وكان هو ذلك الشخص الذي استقبلني في كسلا واستضافني في منزله ثم صحبني إلى المطار بعد أن أمن وجودي في المدينة. وجدير بالذكر أن أؤكد هنا انه وشقيقه لا ينتميان الي قبيلتنا ولكنهما لم يدخرا وسعاً في تقديم العون لنا في الدائرة الجنوبية خلال الانتخابات التي فاز فيها (عبد الخالق محجوب) وكان منزلهم أحد المراكز التي أمدتنا بالوجبات والمرطبات وقسطا وفيرا من الراحة والاستجمام.

في ميز العزابة :

واضطررت إلى مغادرة منزل صديقى بأم درمان فقد أكثر من دعوات أصدقائه ومعارفه إلى المنزل واصبح زملاء (القعدات) يتقاطرون عليه في الأمسيات.. فقد كف عن السهر معهم خارج المنزل لوجود ضيف معه واصبح يأتي مبكراً، وكان ذلك مصدر ارتياح لزوجته وابنائه إذ نادراً ما كانوا يرونه وهو عائد في منتصف الليل وحين يخرجون إلى المدارس يتركونه نائماً.. وسعدت زوجته لتواجدي بالنهار مع أطفالها مما مكنها من الخروج للمجاملات في الحي، وظللت اشغل وقتي بمراجعة الدروس معهم. وبالرغم مما لقيته من وضع مريح وآمن خشيت من الصدفة الموضوعية فتجر صديقي الي مشاكل هو في غنى عنها فأذن لي بمغادرة المنزل مكرهاً .وكذلك زوجته وكان مصرا علي رفقتي حتى موقف الموصلات ولكني أقنعته بالعدول عن ذلك ... كان انساناً شهما شجاعاً. علمت من زوجتي أنه ما غاب يوماً عنهم طيلة غيابي خارج البلاد هو وزوجتة وأطفاله ولم يزوروهم يوماً دون أن يحملوا معهم الكثير من المواد التموينية. وصرحت زوجته بأنه التزم ببرنامجه الجديد في العودة مبكراً إلى المنزل واقلع نهائيا عن فرقة القعدات.

غادرت ذلك المنزل في المساء متجهاً إلى الخرطوم بحري، فأوقفت (طراحة) وجلست في المقعد الأمامي حيث وجدت زميلي (عثمان مصطفى) من بنك السودان، ولكني تجاهلته ولم أبادر بتحيته لأنني كنت واثقاً أنه لا يعرفني بتلك الهوية الجديدة، وحينما طلبت من سائق التاكسي التوقف نظر إلي عثمان مندهشاً ليقول: خليل الياس؟ وين انت يا راجل مختفي.. قلت له: أنني موجود وبالأمس كنت في البنك.. قال: انه في الحقيقة لم يكن متواجداً في المكتب لأنه في إجازة صغيرة، واسترسل: ضروري أشوفك عندي ليك أخبار ونوادر كثيرة. وقد اشتهر بنكاته وأدائه المرح وحفظ مجموعة كبيرة من النكات والطرائف، وأصر على دفع أجرة (الطراحة).

ودعت (عثمان) واتجهت إلي ميز العزابة حيث يقيم فيه الصديقان أحمد آدم وقاسم عباس اللذان أعدا لى سكناً مريحاً وآمناً قضيت فيه فترة أخرى أدخلتني في تجارب صعبة وطريفة في ذات الوقت. كان أصحاب الميز أحمد آدم وقاسم عباس موظفين في مؤسسات الحكومة. لم يتواجد غيري في فترة النهار في ذلك المنزل، وكان لابد من إحضار بعض الأغراض من (كنتين اليماني) زبون العزابة وكان يردد دائما انه لم يشاهدنى مع الأستاذ أحمد فأفيده بأنني قادم من الخارج للبحث عن عمل، وكان علي ايضاً ان افتح الباب لممثل الإدارة المركزية ليقرأ عداد المياه وآخر لعداد النور. وامتلأ الشارع أمام المنزل بالصغار يلعبون كرة القدم وكثيراً ما تسقط في الحوش وأكون بعيدا فيضطرون لطرق الباب ولا ادري من هو ذاك الطارق فأغير طريقتي في الكلام مستفسراً عن القادم فيرد بأن الكرة سقطت بالمنزل فأبحث عنها لأعيدها لهم إضافة إلى الكثيرين من كرامة لله وبعض الباعة المتجولين الذين يبحثون عن أدوات أو ملابس يستبدلونها بأخرى يحملونها معهم!! وأصعب موقف واجهته وأنا أتناول الحليب أمام الباب إذا براكب دراجة يصطدم بابن الجيران، وأصرت والدته على تبليغ البوليس وطلبت مني مرافقتها شاهد عيان إلى قسم البوليس وظلت تصرخ في وجه صاحب الدراجة حتى تجمع عدد من سكان الحي، وللصدفة الحسنة أن زوجها كان قد نسى ملفاً يهمه في عمله فعاد إلي المنزل في تلك اللحظة وتأكد من أن ابنه لم يصب بأذى وسامح صاحب الدراجة. فتنفست الصعداء وأثنيت على تسامحه ورحابة صدره وأشار إلى زوجته بدخول المنزل، فأخذت ابنها واختفت، ثم التفت إلى يسألني: أنت ساكن جارنا هنا؟ أنا ما شفتك مع الأستاذ أحمد- اخبرته بأنني ضيف جئت قبل يومين من المانيا بحثاً عن عمل- قال: تشرفنا.. نشوفك إن شاء الله- فايقنت أن بقائي في ذلك المنزل أصبح محفوفاً بالمخاطر ورغم ما حظيت به من رعاية واهتمام الأخوين أحمد آدم وقاسم عباس إلا أنني خشيت كشف تواجدي فاقتنعت بأن البعد هو مخرجي الأمثل، وبدأت رحلتى خارج البلاد.

في ضيافة الشباب العالمي 1973م:

كان تواجدي خارج البلاد، إضافة إلي فترة الاستقرار والأمان بعيداً عن عيون وملاحقة أجهزة نظام جعفر نميري ، كان له أيضاً دور إيجابي فقد شهدت نشاطا مكثفا للمنظمات العالمية في حملات تضامن من اجل إطلاق سراح المعتقلين السياسيين في السودان، واشتركت في لقاءات متعددة مع منظمات الشباب وبصفة خاصة في شرق أوروبا كالشباب السوفيتي والألماني الديمقراطي وفي رومانيا وتشكوسلفاكيا وبولندا والمجر وبلغاريا ويوغسلافيا وكان أهم تلك اللقاءات مهرجان (دورتموند) الذي أقامه شباب ألمانيا الاتحادية والذي كان تظاهرة عالمية خصص منها يوم للتضامن مع الشباب السوداني وصدر بيان وقعته جميع المنظمات المشتركة في ذلك المهرجان

إضافة إلى منظمات الشباب من غرب أوروبا (فنلندا- ايطاليا-اليونان-قبرص-هولندا-الولايات المتحدة) وطبعت ملايين الملصقات وصور الشهداء التي وزعت على نطاق واسع وأرسل العديد منها إلى جعفر نميري مصحوباً ببرقيات تندد بسياسة القهر والاستبداد.. كذلك أرسلت جميع تلك الوثائق إلى لجان حقوق الإنسان تطالبهم بالتدخل والضغط على الحكومة العسكرية، وكان مندوبنا في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي (حامد عبد العزيز) قد بذل مجهوداً مقدراً بالتنسيق مع ممثلي الطلاب والشباب والعمال في المنظمات العالمية. فتضاعفت حملات التضامن العالمية مع الشعب السوداني.

وفي نهاية الجولة خارج السودان تجاوزت نصف العام غبت فيها عن البلاد و اشتد بي الشوق والحنين، طلبت من اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي اعداد التدابير لكي اعود الى الوطن وعلمت من (حامد عبد العزيز) مندوبنا هناك انهم يودون بقائي حتى ينتهي المؤتمر اذ كان الاتحاد مرشحا لرئاسة التنظيم العالمي امتداداً لتضامنهم مع الشباب السوداني. شكرتهم على تلك الثقة وذكرت لهم أن حضوري إلى هنا كان قراراً شخصياً، وإن كانوا حريصين على ترشيح إتحاد الشباب السوداني فليكتبوا بذلك عبر مندوبنا فإذا أقر مركز إتحاد الشباب السوداني بقائي لملء منصب الرئيس فذلك يشرفني، شكرتهم على ذلك وافدتهم بأن تدبير هذا الأمر لابد ان يتم عبر رئاسة الاتحاد بالسودان، إضافة إلي أني بقيت كثيرا بالخارج. وتزامن استعدادي للعودة مع توجيه الحزب الشيوعي للعاملين بالمنظمات العالمية بالعودة إلى الوطن فإستجابت تلك الكوادر : الزعيم العمالي قاسم أمين- الأستاذ محجوب عثمان-الاستاذ فتحي فضل- الدكتور محمد سليمان- الأستاذ حامد عبد العزيز- الأستاذ ابراهيم زكريا. وبدءوا يعدون أنفسهم للعودة إلى الوطن إلا أن حامد عبد العزيز خلال عودته أستشهد في حادث إحتراق طائرة، متجهةً إلى سوريا بعد أن أعد كل أغراضه ولكنه ،أى إتحاد الشباب الديموقراطى العالمى- طلبوا منه القيام بمهمة أخيرة يختتم بها جهوده في الإتحاد وكانت جولته الاخيرة فاصبح في ذمة التاريخ.

شجعني على العودة أن سلطة مايو اضطرت لاجازة قانون خاص بالاعتقال مدته ستة اشهر وعشرة ايام يخرج بعدها المعتقل فوراً، وطبق هذا القانون على مجموعة كثيرة من المعتقلين وكان بالنسبة لي أفضل بكثير من خمس دقائق التي امتدت الي سنوات. واصبحت الزيارات منتظمة لذلك قررت وصممت على العودة الى الوطن.

هذه هي قصتي مع الشيخ البرعي والبلابل

(الحلقة الــ (24))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

خليل الياس

العودة إلى الوطن:

من شيخ البرعي إلى كوبر:

عدت كما غادرت البلاد بطريقة آمنة دون أن يرمقني رجال الأمن في المطار أو ضباط الجمارك وتلك طريقة يرجع الفضل فيها للأصدقاء. كان أول المستقبلين جاري حاج أحمد عبد المجيد وكان يشفق علي كثيراً للعلاقة التي نشأت بين أسرتينا وابنائنا وظل يلح علي كي أرافقه الى شيخ البرعي بالزريبة، إذ كان شديد الاعتقاد بأن (أيده لاحقه) وعلى أن آخذ (الطريقة) حتى يجنبني ملاحقة الأمن والاعتقالات. أقنعته بأنني مشغول بالبحث عن عمل يعينني على إعاشة أسرتي وكفى زوجتي معاناة في السهر لحياكة الملابس طيلة فترة غيابي واعتقالي غير أنه كان حريصاً على سفري معه للأبيض. وعاد مرة ثانية ومعه تذاكر الطائرة وطلب مني الاستعداد لمرافقته فاستجبت وحددت نهاية الأسبوع القادم. ولم يمض زمن طويل حتى سمعت طرقاً عالياً ومتواصلاً على الباب جاءني ليقول لي إنت والله ذاتك شيخ.. وبشرني بأن شيخ عبد الرحيم البرعى ذاته وصل اليوم وأخبرته بشأنك فطلب مني احضارك بعد صلاة المغرب. . فقد كان صائماً في ذلك اليوم قلت له: يا حاج أحمد أنت عارف أنا عندي طريقة قال لي: خليها طريقتك المودياك طوالي السجن!! قلت : أقصد انه أنا ختمي قال: زيادة الخير خيرين!! وصحبته الى شيخ عبد الرحيم فعندما رآني مع حاج أحمد.. سأله هل هذا هو الأستاذ؟ فرد عليه بالإيجاب ثم عانقني بحرارة وهمس في أذني : خلاص اديناك الطريقة ثم دعاني لجلسة يحييها (البلابل) بعد صلاة العشاء، سألته بإندهاش مالك يا مولانا ومال البلابل؟ فأجابني بتلك الابتسامة الهادئة وهو يدرك أنني أخذت منحى آخر : ديل بلابل المديح فقبلت الدعوة ووعدت بالحضور، فقد أثار فضولي لسماع بلابل غير المطربات وعدت الي المنزل ولم تمض بعض الدقائق حتى سمعت قادما يطرق الباب فحسبت أن جاري أراد استعجالي إلى مقر شيخ البرعي، وإذا بالطارق رجل الأمن يطلب مني مرافقته لمقابلة الضابط في جهاز الأمن لمدة خمس دقائق. طلبت منه الانتظار حتى أعد أغراضي، قال: ما في لزوم يا أستاذ كلها خمس دقائق وترجع البيت قلت له إن تجربتي في الاعتقال السابق تعني إن الخمس دقائق اكثر من سنتين واليوم زادت كل الأشياء ولا أدري كم ستستغرق هذه الخمس دقائق الجديدة بعد الزيادات التي طالت كل شئ سألته إن كانوا سيسمحون لي عند العودة إلى منزلي بإرجاع أغراضي معي؟ قال : طبعاً. قلت له إذن دعني آخذها معي وحملت حقيبة اليد التي كنت قد اعددتها بمجرد وصولي من السفر تحسباً لمثل هذا الأمر. فقد علمت أن أمر القبض مازال قائماً وأمضيت ذلك المساء في زنازين جهاز الأمن. سبقني إليها القائد النقابي المناضل سعودي دراج واستدعاني الي مكتبه العميد الرشيد مكي واستجوبني مشيراً إلى أنني غادرت البلاد وانه متأكد من هذه الحقيقة ولكنه فقط يود الوثوق من هذه المعلومة التي أفاده بها أحد معاونيه. نفيت ذلك وقلت له ليس لدي صالح في مساعدتك ورغم هذه المعاملة اللائقة لا أنسى أنك تقوم بأداء مهمتك وخلال ساعات العمل التي تتقاضي عليها أجراً مجزياً وعليك أن تسعى لمعرفة الأمر (من متعاونك). وطال ما ظل جعفر نميري في السلطة ساحتفظ بالطريقة التي غادرت بها البلاد فربما احتاجها مرة أخرى. وعندما تعذر حصوله على مبتغاه أرسل معي أحد معاونيه من جهاز الأمن لتفتيش المنزل وعثر على بعض الوثائق كان بينها صورة من مذكرة بعث بها اتحاد الشباب السوداني إلى الرئيس جمال عبد الناصر يناشده فيها بإعادة عبد الخالق محجوب إلى وطنه وان لا تصبح مصر منفى للمناضلين. وجد كذلك بعض الملصقات وكروت التضامن بصور المعتقلين السياسيين ووثائق انتخابات المؤتمر الرابع لإتحاد الشباب. سألني : لماذا تحتفظ بهذه الوثائق؟ قلت له أنها أمانة لتنظيم اتحاد الشباب السوداني فهو الجهة المأذون لها بالتصرف فيها وسوف أبقيها معي حتى انعقاد المؤتمر الخامس الذي أرجو ان يكون قريباً.

وفي صباح اليوم التالي جاءني جاري العزيز حاج أحمد بعد أن أذنوا له بزيارتي كان كسير الخاطر وأستفسرني عن أسباب إعتقالي وماذا حدث بعد مقابلتي للشيخ عبد الرحيم البرعي بعد أن منحك الطريقة القادرية؟ قلت له مازحاً يظهر يا حاج أحمد شيخ البرعي فهم وصيتك بالعكس إنت قلت ليه يأخذ الطريقة عشان تحميه من الإعتقالات وجهاز الأمن ولا تزيد منها بسرعة؟ وبدأ عليه الحزن الشديد فقلت له لا عليك يا حاج أحمد وقد أردت أنت مساعدتي وجزاك الله كل خير على حسن نيتك بس المرة الجاية قول للشيخ البرعي كتر من الإعتقالات عشان يحصل العكس... سكنت خواطره وانتهت الزيارة بعد أن وضع في جيبي بعض (المصروف) والتقينا بعد ذلك في عام 1978م بعد الوعد بخمس دقائق فقط بدأت عام 1974 وكان ذلك أطول إعتقال بعد بركات الشيخ عبد الرحيم البرعي. مرت السنوات بعد الإنتفاضة التى أطاحت بنظام جعفر نميرى نقلت إلى مدينة الأبيض مديراً لبنك السودان فجاءنى ومعه (حيران) لكى يستبدل بعض اوراق النقد القديمه ولما سألته إن كان يذكرنى أجابنى أحد (الحيران) بأن (شيخنا بيلاقى ناس كثيرين) فصرفت النظر عن سيناريو البلابل والطريقة القادرية حتى لا يحبط مرافقوه من (الحيران)، وقد كنت حريصاً أن لا أشير إلى ذلك اللقاء فقد قضى معي وقتاً جميلاً، ودعاني إلى زيارته إلى الزريبة ولكن ظروفي لم تسمح لي بذلك.

مع العميد الرشيد مكي:

وظل العميد الرشيد مكي يستدعيني لفترة أسبوع كامل لمعرفة الطريقة التي غادرت بها السودان مؤكداً لي أن عقوبة السفر بدون وثائق حقيقية لا تتجاوز الأسبوعيين في السجن وربما يحكم القاضي بايقاف التنفيذ. كثف التحقيق معي عندما علم ان الحزب الشيوعي استدعى كوادره العاملين في المؤسسات العالمية خارج البلاد للعودة الي الوطن وكان يعتقد أني عدت استجابة لذلك النداء.. فراح يردد سؤاله لماذا

تعود هذه الكوادر؟ هل لديكم فكرة انقلاب عسكري ثاني؟ قلت له وهل كان لنا انقلاب أول؟ وكلما اكرر له أنني عدت بالصدفة بعد ذلك التوجيه وأنني لست من الكوادر العاملة في المؤسسات العالمية كان يصر على انني كادر خطير.. وهكذا كان الضباط في جهاز الأمن يحيطون أنفسهم بعدد من أسماء العاملين في الحقل السياسي والاجتماعي وينسجون من خيالهم تقارير عن نشاط وهمي يزعمون انهم يرصدونه. وتصادف ان كان أحد نشطاء الحزب الاتحادي الديمقراطي المراقبين، له صلة قرابة بأحد كبار ضباط جهاز الأمن فتلقى تقريراً من ضابط منسوب اليه مسجلا نشاطا واجتماعات لذلك العضو. عندما قدم التقرير إلى رئيسه سخر منه وأفاده بان قريبه في هذه الفترة بالتحديد التي ادعى انه كان متابعاً لنشاطه كان في جنوب السودان وانه شخصيا أخذه الي المطار بعربته واكتفى بان طلب من الضابط تقديم استقالته وفعل.

والعميد الرشيد مكي لم يقتنع بإفادتي التي قدمتها له، واستدعى أحد معاونيه من الجهاز وصحبني مرة ثانية الي المنزل ليجري تفتيشا دقيقا آخر فعثر على جواز سفري الذي لم يجد فيه أية تأشيرة تثبت خروجي أو دخولي فقال العميد : أنا عارف أنت سافرت كيف- سألته : كيف؟ فقال : تكون شلت جواز سفر واحد اسمه فضل المولي ونزعت عنه صورته ووضعت صورتك في مكانه- سألته ساخراً : في ذمتك أنا بشبه فضل المولى؟ فأستولى عليه الضحك وصرف النظر عن ذلك الأمر. كما عثر مندوبه على رسالة أخرى بعثها اتحاد الشباب الى الرئيس جمال عبد الناصر نرجوه فيها ان يعود عبد الخالق محجوب الي وطنه والا تصبح مصر منفى للثوريين وكذلك كرت به صورتي كان قد وزعها اتحاد الشباب العالمي مطالباً فيه بإطلاق سراحي وايضاً ملصقات من أجل المعتقلين السياسيين ومذكرة تدعو كل المناضلين بالخارج للعودة!! وراح الرشيد يعيد الاسئلة عن سبب احتفاظي بهذه الوثائق ويسألني عن حقيقة أسباب عودة هذه الكوادر الي الداخل وأعاد مره اخرى سؤاله :عندكم فكرة انقلاب ثاني؟ أجبته ثانية على هذا السؤال وذكرت له أنني لست ناطقاً بإسم الحزب وعليه أن يوجه هذا السؤال إلى قيادته. وخلال فحصه الاوراق التى عثر عليها بمنزلي وجد قصاصة صغيرة كتبت عليها هذه الكلمات:

البؤس لإبن الشعب يأكل قلبه
والمجد والإثراء للأغراب
والشعب معصوب العيون مقسم
كالشاة بين الذئب والقصاب
والحق مقطوع اللسان مكبل
والظلم يمرح مذهب الجلباب
هذا قليل من حياة مرة
في دولة الانصاب والألغاب

سألني: أين باقي القصيده وأردف قائلاً: طبعاً ده كلام محجوب شريف عايزين تروجوها في البلد.. قلت له إن قصائده ملأت كل الآفاق ويرددها الشباب في كل المناسبات. أما هذه فليست من نظمه وإلا كنت تسمعها ولكنها قصيدة للشاعر التونسي ابو القاسم الشابي فقال ساخراً أبو القاسم الشابي أم ابو القاسم محمد إبراهيم وحين تعذر إقتناعه قلت له بإمكانك أن تقرأها كاملة وكذلك قصائد اخرى في صفحة 381 من مجموعة الشاعر ابو القاسم الشابى ومع ذلك أخذ القصاصة وارفقها مع ما حصل عليه خلال التفتيش ولا أدرى إن كان قد إستفسر من ابوالقاسم محمد ابراهيم أم إكتفي بحفظ القصاصه في ملف الامن مستنداً يقدمه حجة لإدعائه، أنهى حديثه بان هذا السجن لن يخلو إلا بنهاية نميري وسيكون ذلك بعد سنوات طوال. ثم استدعاني مرة أخرى ليقول لي إن اللواء يود التحدث إليك، فقابلت اللواء وكان رجلاً لطيفاً وهادئاً بادرني بالقول بأنه كان يتخيل أنني بصورة غير هذه وكان الانطباع لديه أنني اسود اللون طويل القامة بعيون حمراء!! وراح يقص على علاقاته الشخصية مع (عبد الخالق) وعدد من اليساريين تربطه بهم علاقات حميمة وانه علم أنني أعول أسرة كبيرة ولي خمسة أطفال وأنني (دفعت ضريبة) وطنية كافية وأن الوقت قد حان لكي أتفرغ لتربية أولادي.. وكان قد صدر قرار في تلك الأيام يخير الضباط بالاستمرار في جهاز الأمن أو العودة إلى الشرطة. فشكرت اللواء وقلت له أن أبنائي الذين تخاف عليهم يجدون كل التقدير بسبب سلوك والدهم وهذا ما يجعلني اكثر إصراراً على مواصلة مسيرتي لان التخلي عنها يعيبهم بين أقرانهم. ورداً على هذا المسعى اقترح عليك أن تعود إلى الشرطة فتبقى بالزي الرسمي بعيداً عن التجسس على الآخرين وهذا ينسجم مع سلوكك الذي أحسه الآن وكان ذلك أول وآخر لقاء بيننا لا ادري أي الطريقين قد اختار!! ولكنه كان كثير التهذيب والتأنق في المخاطبة.

عودة ثالثة إلى كوبر اغسطس 1974م:

عدت مرة ثالثة إلى كوبر وكانت هذه المرة في قسم الكرنتينه ب وجدت المعتقلين من اتجاهات سياسية متباينة. وقد أصر جهاز الأمن على هذه الخلطة لاعتقادهم أن ذلك سيؤدي إلى نزاعات وخلافات تجعل السجن عذابا يدعو السياسيين إلى تفادي العودة إليه. ولكن خاب ظنهم وعلى غير ما هدفوا إليه كانت فرصة نادرة توفر فيها جو ودي للحوار وتبادل وجهات النظر واجلاء حقائق ووقائع كانت غائبة أو مغلوطة عند الكثيرين. وسعدنا بوجود الاخوة من شباب الأنصار للمرة الثانية بعد أول الإعتقالات في مايو 1971م وكانوا بقيادة الأخ الأمير نقد الله وسنحت لنا الفرصة كي نقترب في كثير من القضايا الوطنية ونشأت بيننا علاقات حميمة ومودة امتدت إلى هذا اليوم. واستطعنا أن نملأ الفراغ بالعديد من البرامج الثقافية والترفيهية المشتركة ولا أنسى العم يونس وهو يترنم بصوته الرخيم كل صباح

براتب الأمام المهدي، وكذلك المرحوم (صديق) حين يشدو :
أين من عيني هاتيك المجال ** يا عروس البحر يا حلم الخيال
وقد أحسن الاداء بحيث لا يقوى مستمع على الانشغال بأمر آخر حينما يبدأ بالغناء. وقد روى لنا صديق طرفة حين كان في قيادة مجموعة من الأنصار عندما جاء اللواء محمد نجيب في زيارة للسودان وكان عليه أن يردد الهتاف : السودان للسودانيين.. قال انه نسى الهتاف ثم وقف أمام الأنصار هاتفاً : سودانكو ليكو وردد معه الانصار ذاك الهتاف.
ومن شخصيات الأنصار التي اذكرها دائماً بشقاوتها وتمردها الزبير عودة كان لا ينسجم مع انضباط المعتقل وبرنامجه اليومي الذي اعتبره سجناً داخل سجن. ذلك أن البرنامج يبدأ من التاسعة صباحاً وحتى الثانية عشرة ظهراً وخصصت هذه الفترة ليتمكن المعتقلون من القراءة أو الراحة أو النوم على أن يتم ذلك في سكون تام وعلى كل واحد أن يكون متواجداً في النمرة وكان الزبير كثير القلق والحركة وما أن تشير الساعة إلى الثانية عشرة حتى يصرخ وهو يغني:
الزبير عودة انشاء الله بي عودة
وأذكر محمود صاحب التعلقيات والقفشات الساخرة ومطرب مسيرة الأنصار حينما يأتون للأشتراك في المجلة الناطقة كل خميس وهو يقود (زفة) الانصار وهم يتغنون :
زعيمنا الصادق الصديق
حالف يهزم الرعديد
زعيمنا الصادق الصنديد
جاسر ما بحبسه القيد
وتغنى مجموعة الأنصار:
ووترقيت.. ووترقيت
ما لنا وماله وترقيت
بعيدة علينا امريكا
تعيش الكسرة والويكه
والأمير الحاج نقد الله لا تغيب عنه روح الدعابة والنوادر، سألته مرة بعد أن فشلت حركة 2 يوليو 1976 والتي أطلق عليها نظام نميري حركة المرتزقة وكان من مهام جبهة الميثاق الإسلامي استلام مطار الخرطوم والقبض على جعفر نميرى عند عودته من الخارج سألته لماذا تأخرت كوادر الجبهة ولم تأت قبل وصول طائرة نميري؟ قال كانت عندهم تلاوة**!!**

كيف تم القبض على سليمان حامد ..؟**!**

(الحلقة الــ (25))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب

عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

عودة كوادر الشيوعيين 1974م:

وفي تلك الظروف العصيبة واعادة فتح السجون والمعتقلات ازدان كوبر بالمناضلين من الخارج: قاسم أمين أحد مؤسسي وقادة الحركة النقابية السودانية وقائد اتحاد عمال النسيج العالمي. الاستاذ محجوب عثمان عضو اللجنة المركزية ومندوبها في المجلة العالمية، الدكتور محمد سليمان، أحد قادة اتحاد المعلمين الاشتراكيين، واستعد للحاق بهم ابراهيم زكريا (رئيس اتحاد النقابات العالمي) وفتحي فضل (سكرتير عام اتحاد الطلاب العالمي) ولم يستطع العودة الشهيد (حامد عبد العزيز) ممثل اتحاد الشباب السوداني لدى اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي في بودابست حيث استشهد في حريق طائرة قبل أسبوع من ميعاد عودته الي السودان. استجابوا جميعاً لنداء العودة، الشئ الذي زاد من قلق أجهزة الأمن وشددوا رقابتهم على المعتقلين وكانوا كلما خرجت مجموعة من المرضى إلى المستشفى العسكري تجد عدداً من غواصات الأمن في صف المرضى وكأنهم في انتظار الطبيب. وبلغ الذعر بجهاز الأمن انهم يفتشون عن وثائق داخل العصيدة حينما يأتي بها أهل المعتقلين في الزيارة، ورغم التفتيش والتشديد عند خروجنا ودخولنا ومراقبة الجنود الذين يقومون بحراستنا أو يرافقوننا خارج السجن إلى المستشفيات أو السلاح الطبي، رغم كل ذلك يعثرون أحياناً على احدث وثائق حزبية من منشورات إلى صحيفة الميدان. وعجزوا تماماً عن اكتشاف الطريقة التي نعثر بها على تلك المطبوعات وسيظل سراً عصياً عليهم حتى يصبح السجن مستشفى كما تنبأ الشاعر محجوب شريف حيث أنشد يقول:

مكان السجن مستشفى
مكان المنفى حرية
مكان الطلقة عصفورة
تحلق حول نافورة
تمازح شفع الروضة
حنبنيهو البنحلم بيهو يوماتي
حنبنيهو

وجزعوا كثيراً حين عثر حراس السجن على جريدة الميدان داخل المعتقل وسلموها إلى الكومندان وكان وقتها الرفاعي وهو رجل ظريف احتفظ بها في مكتبه وكنا كلما ذهبنا اليه في مهمة يخرجها من الدرج قائلاً : بعدين دي ما بتشفع لي؟ وأذكره بالخير فقد كان مهذباً حلو اللسان ولم يخل بما سمحت به قوانين السجن، ولم تصدر حتى تلك الفترة لائحة تنظيم شئون المعتقلين السياسيين وخضعت الأمور لتصرف إدارة السجن في الحدود المعقولة، وكان ميرغني ابو الروس ،قمندان السجن- دائماً يقول نحن عندنا المفاتيح البجينا في الأول بنفتح ليهو السجن وظل العاملون في السجن من ضباط وصف ضباط وجنود يتعاملون معنا بأسلوب مقبول. وحرصنا بدورنا على تنمية هذه العلاقة وكررنا القول لهم أنهم ليسوا طرفاً في ما نحن فيه من إعتقالات ونفي إلى سجون خارج العاصمة. وتطورت علاقاتنا ببعض الجنود حتى أوشكوا أن يصيروا جزءاً من أسر المعتقلين وتطورت العلاقة إلى حدٍ سمح لبعض الجنود أن أصبحوا الصلة بيننا والأسر.

وبعد عودة هذه الكوادر القيادية كثف العميد الرشيد مكي من استدعائي إلى مكتبه بالأمن لمواصلة التحقيق معي بشأن هؤلاء العائدين ويبدو من اهتمامه بحواره معي انه كان يعتقد أنني خطير وأنني انطوي على أسرار هامة وراح يأخذني إلى المنزل لزيارة ابنتي منال فقد كانت تعاني من حساسية اقعدتها عن الذهاب إلى المدرسة ولم ينس مرة أن احضر لها بعضاً من الأدوية إلى أن سألني مرة إن كنت احتاج إلى مصاريف لأسرتي وظل ينتهج أسلوبا ناعماً لكي يعرف حقيقة الأسباب التي أعادتني وآخرين من الخارج. وحينما أوكد له أنني شخص عادي يعتقد أن ذلك تواضع ونكران ذات، وعلمت فيما بعد انه اعتمد على معلومة من أحد رجال الأمن الذي كان يراقب منزلي فشاهد هاشم العطا يدخل المنزل ويبقى فيه فترة ثم يخرج. وكان ذلك قبل أيام من انقلاب 19 يوليو وكنا وقتها معتقلين بعد حل الاتحاد. وزيارة هاشم العطا الي المنزل كانت لعزاء الوالدة بعد وفاة شقيقتي في شندي، ولم يكن رجل الأمن يعلم أن أسرتي من والدتي لها صلة قربى بآل العطا، فراح ينسج من خياله أساطير مذهلة عن خطورتي وعلاقتي بانقلاب هاشم العطا، بل ذهب ابعد من ذلك ليدعي بأنني كنت عضو مجلس قيادة الثورة السري، وإلا فما هو سبب زيارة هاشم العطا إلى منزلي؟ وظل يراقب منزلي رقابة شديدة وسجل أرقام العربات التي كانت تقف في نفس الشارع بالمزاد إلى أن اخطأ مرة وسجل أرقام بعض عربات المنسوبين إلى جهاز الأمن كانوا في مناسبة أحد زملائهم بالحي فضعفت مصداقيته ودقة متابعته.. وهذا ما صرح به الرشيد مكي في واحدة من تعليقاته الظريفةبعد أن أطلق ضحكة إهتزت لها اطرافه.

وتحضرني طرفة بمناسبة زيارة هاشم العطا إلى أسرتي بالمزاد شمال بالخرطوم بحري حيث كانت الوالدة متواجدة عند إنقلاب هاشم العطا وجاءت نساء الحي يباركن لها إستلام هاشم العطا السلطة كان الناس يجلسون حولها وهي ختمية متطرفة، كانت تقول أبو هاشم سلمها لهاشم.. عندما فشل الإنقلاب أصرت بأن إحدى نساء المزاد (عينها) حارة فتسببت في فشل الإنقلاب. وكانت عند زيارتها لي في سجن كوبر وعند خروجها في نهاية الزيارة تدس في جيبي (بخرة) أو (عروق) وترجوني إستعمالها لأنها من السادة (المراغنة) لإطلاق سراحي. وأكثرت منها ولكن بلا فائدة وفي واحدة من الزيارات وأنا أتأهب لإستلام (البخرة) ولما لم تفعل كالعادة قلت لها ما في حاجة المرة دي..؟ فقالت : كفى يا ولدي أمسك في الله.. فحمدت الله أننا خرجنا من السجن قبل الزيارة القادمة، وقبل أن تجدني فيصبح لها رأي أخر.

إعتقال سليمان حامد ونقابيين:

وأحزننا في كوبر النباء بأن المناضل سليمان حامد عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ومجموعة من النقابيين قد داهمهم البوليس في إجتماع وتم إعتقالهم بعد محاولة للهروب وكان سليمان قد حاول الفكاك منهم عدواً فسقطت نظارته الطبية والتفت العمامة حول رجليه فتعثر فلحق به الشرطي وأمسك به وكان الشرطي يجري خلفه مردداً.. حرامي.. حرامي ليستنفر المواطنين للقبض عليه ولكن سليمان حينما تجمع حوله المواطنون خطب فيهم بأنه شيوعي وليس حرامي كما صرح البوليس وأن البوليس أراد أن يشوه سمعته حتى يعينه المواطنون للقبض عليه. وكذلك تم القبض على زملائه من النقابيين: علي الماحي السخي، طه سيد احمد، مختار عبد الله، أحمد عبد الله هلال، ابن عوف فضل الله، السر النجيب. وبقدر حزننا لتعطيل سليمان من نشاطه ونضاله السري إلا أن إعتقاله قد ضاعف من حركتنا داخل المعتقل وأصبح العنبر (قاعة للمحاضرات) مما ضاعف صمود وثبات المعتقلين خاصة عناصر الشباب الذين أعتقلوا لأول مرة وظل سليمان يواصل إسهاماته المفيدة عندما رحل معنا إلى سجن شالا، وكان وزملاؤه قد قدموا لمحاكمة برئاسة القاضي العالم عثمان الزين الذي أبدى تعاطفاً كثيراً معهم فأصدر حكمه على النقابيين بذات الفترة التي قضوها في الإعتقال واطلق سراحهم، ولكن جهاز الأمن ألقى عليهم القبض مرة ثانية وأعادهم معتقلين إلى كوبر. وبعد أن أصدر الحكم على سليمان بالسجن لفترة قريبة من الشهور التي قضاها في المعتقل وبعد نهاية فترة السجن حول إلى الإعتقال التحفظي لفترة تجاوزت الثلاث سنوات.

نسج جهاز الأمن وعملاؤه من خيالهم أحداثاً وأساطيراً جعلت أعضاءه ومنسوبيه يمدون أيديهم الي مواطنين ليس لهم شأن في عالم السياسة خاصة اولئك اولاد البلد الذين استضافوا بعض المطاردين في بيوتهم رغم التهديد والوعيد ونقلوهم بسياراتهم واعدوا لهم كل وسائل الاختفاء والسفر خارج البلاد. ويخشون كثيراً عناصر الشباب من غير المعروفين بالنشاط السياسي المكشوف ويعتقدون انهم كوادر سرية تعمل تحت الأرض مما جعلهم يلاحقون بعضهم حتى في مناسبات الزواج التي تجمعهم للطرب والترويح ، وكذلك في صيوانات العزاء فتعرضوا بذلك للتجريح وكشف هوياتهم الاستخباراتية.

وكانوا يعتقدون أن عناصر الشباب هم اكثر خطورة من السياسيين المعروفين وكثيراً ما ذهبوا لاعتقال بعض المواطنين الذين فارقوا الحياة وكانوا يدبجون التقارير حول نشاطهم. وقد آلمني أن سمعت أن الأمن قد اقتحم منزل الشهيد حسن دفع الله زميلنا في شالا وسألوا والدته عنه لأنهم يودون التحقيق معه في نشاط ضد ثورة مايو فأنكأوا جراح والدته فقد توفي قبل عام متأثراً بمرض اليرقان الذي أصابه في سجن شالا وحينما حولوه الي الخرطوم كان الوقت متأخراً كان نوعاً فريداً من المرض وصفه لنا أهل الفاشر بأن هذا النوع يدعي اليرقان الأبيض أي انه لا يظهر في العيون باللون الأصفر ولكننا لم نحفل بملاحظاتهم خوفاً من العلاج المقترن بالكي وتركنا الأمر لجهود المستشفى وقد بلغ به الأمر مراحل متقدمة لم يسعفه التحويل الي المستشفى بالخرطوم، رحمه الله كان رقماً مميزاً في السجن بمشاركته الفنية وروحه الزاخرة بالطرف والنوادر.

إلى سجن شالا 1975-1978م:

وبدأ جهازالامن مرة أخري يبعد المعتقلين عن كوبر وقد انهارت كل أساليبه ليحد من نشاط السياسين بالاعتقالات المتكررة والمتابعة.

وظلت أقسام كوبر خلايا من النشاط والحركة.. وبدأت الدفعة الأولي بقيادة المناضل قاسم أمين إلى سجن الأبيض ومجموعتنا بقيادة الأستاذ سليمان حامد، والشهيد عبد المجيد شكاك إلى سجن شالا. أما بقية المعتقلين فقد وزعوا إلى أقسام مختلفه داخل كوبر .وكان السبب في تلك التحركات تعاظم النشاط وتجمع المواطنين بالقرب من السجن لسماع الأناشيد والأغاني الثورية أضف إلى ذلك أن المعتقلين على مختلف إنتماءاتهم السياسية والعقائدية تضامنوا وأبدوا صموداً ومواجهة لتلك الظروف، فسعى جهاز الأمن إلى تفتيت قواهم وإضعاف مقاومتهم بابعادهم عن أسرهم وأطفالهم وتجفيف أساليب حصولهم على المواد الغذائية والأدوية وخلافه.

خلقنا علاقات حميمة مع ضباط سجن شالا بالفاشر

(الحلقة الـ (26))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

في صباح 15 يوليو 1975م أخذت مجموعتنا إلى مطار الخرطوم حيث كانت تنتظرنا طائرة الأنتينوف العسـكريه وعند إستعدادنا لإقلاع الطائرة إلى مطار الفاشر وصلت رسـالة بأن المطـار لا يستطيع إستقبال الطائرة نسبة لهطول الأمطار، فجلسنا بداخلها نتغنى بالأناشيد والقصائد الثورية . كانت مجموعتنا من الرفاق .. عبد المجيد شكاك - سليمان حامد - عباس على- دكتور محمد سليمان - دكتور عبد القادر الرفاعي- دكتور عبد الجليل الشيخ - بخيت مساعد - السر محمد شبو ، السر النجيب - حسن دفع الله، كمال يعقوب - عبد المجيد بطران- سيد على طه - محمد عمر فضل - يوسف حوار- عباس محمد طاهر- عوض شرف الدين - أحمد عبد الله هلال - فاروق مطيع- سامى طه- عبد الله أحمد سليمان- الخاتم عدلان- حسن خالد- محجوب خالد- محمد سيد أحمد جعفر عبد المجيد ـ محمد عثمان محجوب ـ خليل الياس ـ حسن قسم الله لاحظت أن قائد الطائرة كان منسجماً مع الإيقاعات ويضرب بأرجله على الأرض مما يوحي بالإهتمام به ، همست في أذن الشهيد شكاك لعل هذا الضابط من بقايا تنظيم الضباط الأحرار الذين لم تمسسهم يد السفاح نميري، وأقترحت أن نطلب منه تحويل الطائرة إلى أسمرا حيث نعقد مؤتمراً صحفياً عالمياً نفضح فيه نظام جعفر نميري ونطالب فيه بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، فلم يتفق معي شكاك وقال: مثل هذا الإجراء سيعقد الأمور لرفاقنا في المعتقلات وربما حرمهم من الخروج إلى المستشفيات ومنعهم زيارات أسرهم ، فأرجو أن تكف عن هذه الفكرة وأن لا تبوح بها لأي أحد، صرفت النظر . ثم إتجهت إلى الكابتن وسألته أليس بالطائرة مضيفة قال إن الطائرات العسكرية لا توجد بها مضيفات . قلت له سأتولى أمر الضيافة ، ورحت أطوف على المسافرين بما توفر لدينا من بلح وبسكويت وفول سوداني .

وصلنا إلى سجن شالا الذي يبعد عن مدينة الفاشر بنحو ثلاثة كيلو مترات معزولاً تماماً عن المدينة ولا تحف به مباني مأهولة بالسكان ولا تتوفر فيه مياه نقية . ويبدو في تلك الصحراء جزيرة لا زرع فيها ولا ضرع وليس بها تيار كهربائي . وكغيره من المعتقلات أسرته من البروش والبطاطين . ولما كان مستوى الطهي ضعيفاً ، وبيننا عدد من المرضى الذين يحتاجون الى وجبات خاصة خالية من الدهون والملح وبعض التوابل وهي لا تتوفر في سجن شالا ، اتفقنا مع إدارة السجن على تسليمنا مواد الأكل طازجة نتولى طهيها بأنفسنا وجعلنا اثنين من المعتقلين وردية مرة كل اسبوع وأصبحنا نتحكم في الطريقة التي نتناول بها وجباتنا وكان هذا مريحاً بدوره للإخوة الطباخين

وجنبهم مشقة الاحتجاج والإضراب عن الطعام ، وقد كان السبب في ابعادنا الى شالا والأبيض وتوزيع من بقى من المعتقلين .
وجدنا لإستقبالنا في مطار الفاشر العقيد محمد حسين الرفاعي مدير السجن بعد نقله من سجن كوبر والنقيب محمد عثمان مأمور السجن والملازم حجازي إضافة إلى الجنود الذين رافقونا من الخرطوم . ملأنا مطار الفاشر أناشيد وهتافات طافت أصداؤها مدينة الفاشر إعلاناً بوجود معتقلين سياسيين . وكما هي وسيلتنا في تنظيم الحياة داخل المعتقل كونا مكتبا يتولى شؤون المعتقلين مع الإدارة واعددنا (الكوميون) بما حملناه معنا من مواد تموينية وسجاير وخلافها . وفي المساء جمعنا اكبر قدر من رمال الفاشر لنبني منها سراير تعلو قليلاً عن سطح الأرض في محاولة لمنع تسلق الحشرات . ومن أهم واجباتنا في بداية الأيام أوضحنا للجنود والضباط أننا ندرك جيداً أنكم لستم طرفاً فيما نحن فيه وأنكم تنفذون التعليمات التي يصدرها جهاز الأمن ، وكل ما نرجوه منكم أن لا تحرمونا من الأشياء التي تسمح بها قوانين السجون .. وظللنا نتعامل معهم بقدر من الاهتمام والانضباط وقد كانت أذهان الجنود البسطاء مشحونة بمعلومات غير صحيحة عن الشيوعيين واليساريين وصاغوا لهم عن سلوكهم قصصا وحوادث كاذبة ونسبوا إليهم أعمالا لا يتصورها عاقل مستغلين جهلهم وسذاجتهم ، مما جعلهم في البداية يفرون من التحدث إلينا إلا في الشأن الرسمي بدون زيادة ، وكانوا يهربون من اللقاء غير الموصول بشئون السجن والسبب في ذلك أن الأحزاب اليمينية الرجعية ملأت رؤوس هؤلاء المواطنين كذباً عن اليساريين وعملوا على تهميش تلك المناطق بل وأحجموا عن تأسيس المدارس والمعاهد التعليمية حتى لا تتسع معارفهم فيدخلون الحياة الحديثة فيكون لهم رأيهم الخاص وإهتمامهم وإدراكهم لما يدور من حولهم فحاربوا الروابط والمؤسسات الإجتماعية والتعاونية التي أنشأها المتنورون من أبناء تلك المناطق لكي تخدم قضايا ذويهم هناك وتدافع عن إحتياجاتهم واتهموها بالشيوعية ليسلخوا البسطاء عنها. واصبحوا بهذا الجهل معيناً لا ينضب في الانتخابات مما جعل قيادة تلك الأحزاب اليمينية ترشح أشخاصاً لا علاقة لهم بمواطني غرب السودان ويقف شاهداً على ذلك ترشيح حزب الأمة إلى عبد الله خليل سكرتير حزب الأمة الذي يسكن الخرطوم فرشحوه في أم كدادة حيث فاز بأصوات أولئك البسطاء ، ولكننا كسرنا ذلك الحاجز بطول النفس والصبر والتعامل الإنساني والسؤال عن صحة أسرهم وأطفالهم ودراساتهم وفيما يختص بشئونهم الصحية ، تجاوب الأطباء لطلبنا الإهتمام بهم كثيراً، وكنا نمدهم بالأدوية التي نحصل عليها من المستشفى أو ما يصلنا منها من الأسر حتى أننا أعطيناهم كثيراً من الملابس إثر الأزمة التي واجهتهم في الزي الرسمي، فكانوا يرتدون القمصان البيضاء التي أهديناها لهم وحين يصحبوننا خارج السجن إلى مستشفى الفاشر لا تميزهم عنا إلا الأسلحة التي كانوا يحملونها. ورويدا رويدا توطدت العلاقات بيننا وبدا لهم ما شاهدوه من تعاملنا معهم أمراً مختلفاً تماماً عن المعلومات التي أغشت أبصارهم ، وهدأت الخواطر وراحوا يقصون علينا كثيراً من المقولات الخرافية، وأصبح التفاهم بيننا سمة جعلت بعضهم يدمع حين جاءتهم الأوامر من الخرطوم بان نعود إلى سجن كوبر، قال الشاويش وهو يودعنا في ذلك المساء الأخير منفعلاً : لولا علمنا بأنكم ذاهبون لرؤية أهلكم وأبنائكم لأبقيناكم معنا هنا، وتواصلت علاقاتنا بهم حتى بعد أن أطلق سراحنا، وخاصة مع مأمور السجن محمد عثمان والضابط حجازي.
وامتدت الصلات الحسنة بيننا، اصبح النقيب محمد عثمان والملازم حجازي يشاركاننا في لعب الكشتينة والكرة الطائرة، وكثيرا ما بادر النقيب محمد عثمان بمساعدة الزائرين من الخرطوم ووفر لهم مهمة السكن والترحيل بعربته الخاصة ، وكثيراً ما أوصل الرسائل لأسرنا في الخرطوم وردودهم إلينا. وكنا نساهم مع الجنود في المناسبات المختلفة كالزواج - الولادة - الختان - المستشفى - نشارك بما تيسر من مال في الكشوفات لتلك المناسبات . وساعدنا على ذلك أن في بعض الأحيان لا توجد مواد تموينية في الفاشر مثل السمك والساردين أو بعض المعلبات مما كان يكتبه الأطباء للمرضى فنستلم قيمتها نقداً نتصرف فيه وفقاً لحاجتنا من السوق كشراء السكر والزيت والطحنية ولبن البدرة وأشياء أخرى . ولا يفوتني أن اذكر بتقدير وامتنان موقف الأطباء في الفاشر الدكتور محي الدين عبد الرحمن والدكتور احمد بلال وزير الصحة الاتحادي وزملائهما الذين قدموا لنا كل المساعدات الطبية من علاج وفرص للراحة بالمستشفى حتى أصبحت دورية لكل المعتقلين الشئ الذي استرد به بعضنا صحة وحيوية وعافية . ولن ننسى ما قدمه المواطنون في مدينة الفاشر خلال زيارتهم للمرضى كانوا يعودون المرضى من المعتقلين السياسيين حاملين المأكل والمشرب وبعض الأدوية التي لا تتوفر في المستشفى وكم مرة استضافوا بعض أسر المعتقلين الذين تيسرت لهم الزيارات إلى ذويهم فكانوا يأخذونهم إلى منازلهم ويصطحبونهم إلي المستشفى أو السجن حتى يعودوا ثانية إلى الخرطوم . ووفروا لنا الصحف والمجلات وهم يزعمون للحرس أن هذه الصحف خاصة بذويهم المرضى وخلت أنفسهم مما علق بها من دعايات واتهامات باطلة راحوا يقدمون مساعدات قيمة نذكرها لهم بتقدير كبير، وكان بعضهم يخطروننا بزيارات جهاز الأمن المفاجئ للمستشفى فنلزم أسرتنا في هدوء وإنضباط .
وبعد أن اصبح البساط احمدي مع حرس السجن خاصة أولئك الذين يتواجدون في الجرة عند مدخل العنبر الذي نقيم فيه وبالتحديد ود الحاج وكان ودودا وذكيا وصريحا وكثير حب الاستطلاع يتحدث ببساطة ويسأل ويستفسر بدون حرج قال لي يوماً: كانوا يحدثونهم عنا بأننا ملحدون لا نصلي ولا نصوم ونبيح الزواج من أخواتنا ، ولا نؤمن بالله ورسوله ، وأننا سنهدم المساجد والخلاوي ونحولها إلى حانات ومراقص ويمنعون الدراسات الدينية في المدارس مما جعلنا ننفعل ونتفادى الاحتكاك بكم . وأصابته الدهشة حين رآنا نصوم ونرفع الأذان ونقيم الصلاة بل أن النبطشية المسؤولين عن طعام اليوم يعدون وجبة الإفطار خلال شهر رمضان وعصير التانق والحلو مر للحرس قبل إعداده لرفاقهم المعتقلين إضافة إلى أننا وفي نهاية (الوردية) للجندي الذي يقضي الليل في السجن نمده (بكيس) ملئ بالسكر وكمية كبيرة من بدرة لبن كاني . وعند التمام في الصباح يجلسون معنا لشرب الشاي بالحليب . وصرح الشاويش موسي بأن

حضورهم لتمام الصبح ما هو إلا ذريعة لتناول كوب الشاي . وفي دردشة مع الحارس ود الحاج سألني بحياء وإشفاق : صحي كان مسكتوا الحكم بتكسروا الجوامع؟ قلت له : تعرف يا ود الحاج لو جينا في الحكم ما فيكم زول يأخذ شريط ورتبة أعلى إلا بعد ما يحفظ ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم ، قال لي : عاد كمان ما تسووها صعبة كدي خلوها سورتين تلاته ولا حتى أحاديث شريفة.

كنا مجموعة من المعتقلين السياسيين في كوبر قضينا فترات طويلة بعد أحداث شعبان دخلنا بعدها في إضرابات عن الطعام لأيام قصيرة أثمرت عن بعض التحسينات في المعتقل وانتظمت الزيارات والعلاج عند المستشارين الطبيين ولكن الاعتقال استمر طويلاً ثم اضربنا ثانية لأكثر من أسبوع وكذلك كل المعتقلين في سجون السودان في يوم واحد وساعة واحدة مما أذهل إدارة السجن وجهاز الأمن، أدهشهم التنسيق الدقيق الذي جعله إضراباً ناجحاً وشاملاً. بعض المعتقلين لم يشاركوا وبعضهم خدعتهم أجهزة الأمن بأن من يبقى غير مضرب سيطلق سراحه، وهذا ما لم يحدث. أحدث إضرابنا الطويل صدى في الداخل والخارج وحشد وفود الأسر واعتصمت بوزارة الداخلية وضغطت على جهاز الأمن مطالبة بإطلاق سراح أبنائها والوقوف على سلامة صحتهم، واضطر جهاز الأمن للاعتراف بلجنة أسر المعتقلين والتفاوض معها والسماح لها برؤية بعض أبنائها فاطمأنت على سلامة صحتهم كما تم الإتفاق على منح أسر المعتقلين جزءا من رواتبهم في حدود خمسين جنيهاً شهرياً أو نصف الراتب الأساسي أيهما أقل. وتضاعفت على المستوى العالمي حملات التضامن ونشطت منظمات حقوق الإنسان مطالبة باطلاق سراح جميع المعتقلين أو تقديمهم لمحاكمة عادلة.

وكان مندوبونا في المنظمات العالمية قد ضاعفوا جهودهم وبادرت منظمات الشباب والطلاب والعمال في فرنسا وايطاليا واليونان بتنظيم لقاءات جماهيرية حشدت لها الشباب بمختلف اتجاهاتهم السياسية وبعثت بمئات البرقيات إلى جعفر نميري تستنكر فيها سياسة العداء للقوى الديمقراطية وتطالبه بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ودفعوا منظمة حقوق الإنسان فأرسلت مندوبيها تتفقد حال المعتقلين في السجون وتمكنوا من تصوير بعض أقسام المعتقلات ووقفوا على سوء الظروف المعيشية التي يعانون منها وملأت بالصور المجلات والصحف في غرب أوربا وخصصوا يوماً كاملاً للتضامن مع المعتقلين السياسيين... حدثني أحد المصورين من بودابست بأنه عندما دخل السجن كان يحمل جهازين للتصوير وضع واحداً حول عنقه وأخر حمله في يده وحينما كان يحاول التصوير لبعض مواقع في السجن كان الضابط يمنعه فيستجيب له ولكن في ذات اللحظة كان يضغط على الآلة الأخرى فتمكن من تصوير الخيام والجالسين على الأرض والأواني الصغيرة التي كان يستخدمها المعتقلون.

القضية الدستورية:

كان القانون وفقاً للدستور الجديد أن يبقى المعتقل لمدة ستة شهور وعشرة أيام يطلق سراحه بعدها فوراً. ونفذ فعلاً وخرج كثيرون بعد هذه المدة، ولكن السلطة لم تتحمل هذا التدبير وكنت أول من تلظى بخرق الدستور، ويوم ميعاد مغادرتي المعتقل جاءني ممثل جهاز الأمن وصحبني إلى مكاتب الرئاسة حاملاً حقيبتي ووجدت بعض أفراد أسرتي أمام جهاز الأمن في انتظاري ولوحت لهم مهللاً وشيقاً، وبعد ساعة من جلوسي في غرفة الانتظار جاء رجل أمن أخر ليخبرني بأنني سأعود ثانية إلى كوبر معتقلاً، قلت له أن هذا أمر مخالف للقانون، قال والله هذه تعليمات صدرت لي من رئيسي المباشر وما علي إلا تنفيذها، طلبت مقابلة هذا الرئيس قال: انه رفض مقدماً وغادر مكتبه من الباب الآخر، أخذت حقيبتي وعدت إلى كوبر وكان الأخوة قد استقبلوني: عائدون عائدون، ولم تكن عودتي مفاجأة لهم فقد أفادنا الدكتور محمد سليمان عندما زاره شقيقه بأن اللواء الباقر وزير الداخلية آنذاك اخبره بأن لا أحد سيغادر السجن بعد ستة شهور وعشرة أيام، أي انهم ما عادوا يلتزمون بهذا القانون وكان الدكتور محمد سليمان دقيقا في أخباره ولذلك كنا نخشى حين عودته من الزيارة أن تكون لديه (أخبار حارة). وهنا يمتد شكري وامتناني إلى نقابة المحامين التي تبنت الأمر ورفعت قضية دستورية، وجاءني الخبر في شالا بأن التاسع عشر من سبتمبر قد حدد موعداً للنظر في القضية، ولكن مستشاري الحكومة أكدوا أن المحكمة ستقرر إطلاق سراحي، وحفاظاً على هيبتها نصحوها أن تفعل ذلك قبل ميعاد المحكمة، وسعدت كثيراً بأن الانفراج صار وشيكاً وظللت أترقب كل جندي يأتي إلى السجن حاملاً ورقة القرار. ولكن أحلامي من لم تتحقق.

انقلاب 5 سبتمبر 1975م:

وفي صبيحة الخامس من سبتمبر عام خمسة وسبعين ونحن نستعد عادة لبرنامج المباريات والتسليات الداخلية جاءنا النقيب محمد عثمان مأمور السجن مصحوباً بضباط وصف ضباط وجنود وعلى فمه ابتسامة عريضة مغموراً ببهجة وفرحة تملأن وجهه، وقبل أن نفوق من دهشتنا لحضورهم في ذلك الصباح لحظنا انه وجنوده في لبس خمسة وهي البذة العسكرية التي يرتديها العسكريون في حالة الحرب أو إعلان الطوارئ، وظل النقيب لحظة يرمقنا مثيراً فضولنا وتساؤلنا، وقد تعودنا على دعاباته وروحه المرحة، فقد كان شاباً خفيف الظل شفيق القلب قدم لنا كل ما سمحت به إمكانات السجن أو توفر في سوق الفاشر من احتياجاتنا، بل كان يشاركنا العاب الكتشينة والكرة الطائرة، واخيراً وبعد أن أحس بأنه تمكن من إرهاق حب استطلاعنا أفصح مبشراً بأنه جاء ليخطرنا بأن نعد أنفسنا لمغادرة السجن لان انقلاباً عسكرياً قد وقع هذا الصباح بقيادة ضابط يدعى حسن حسين أمر باطلاق سراح المعتقلين، وأنهم الأن ذاهبون لكي يرتبوا أمر سفرنا للخرطوم، ثم صحب جنوده وغادر السجن وهو ممتلئ سعادة بما حمله من أخبار أثيرة على المعتقلين.

وتحول المعتقل إلى خلية من النشاط، ورحنا نتساءل عن هوية صاحب الإنقلاب وبرنامجه، ولم يكن بيننا من زامله في الدراسة أو تعرف عليه، وانتهينا إلى أن النتيجة أننا سنعود إلى أسرنا وإلى ديارنا. أخرجنا حقائبنا وملأناها بالملابس والأشياء الضرورية وأعددنا من

الكميون ما تبقى لنا من المواد التموينية وأخبرنا الحرس عند باب العنبر أن يقتسم هذه المواد مع زملائه عند خروجنا، وتزينا وارتدينا كل جلباب أنيق في انتظار المأمور، وطال انتظارنا لساعات طويلة ولا أثر له، ولم يعد واحد من ضباطه أو صف ضباطه. لم يكن لدينا راديو لمتابعة الأخبار ولم يكن من أيام الزيارات، وعادة ما يكون يوم الجمعة عطلة من كل نشاط حتى المرضى لا يذهبون إلى المستشفى في هذا اليوم، وكانوا مصدر أخبارنا، إذ انهم يطلعون على الصحف فيأتوننا بالأخبار، وبينما نحن في تقديراتنا وتقييمنا للأحداث جاءنا أحد السجناء للخدمة فقال انه استمع في الراديو إلى الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم يعلن فشل الانقلاب وعودة نميري إلى الحكم، وتم القبض على قائد الانقلاب وزملائه، لم تكن المفاجأة كبيرة فقد كانت واحدة من احتمالات تصورنا ولكن بالتأكيد أفسدت بهجتنا ورجعنا نفرغ حقائبنا ونعيد مواد التموين إلى الكميون مع تقديم وصلة صغيرة للجندي على الباب الذي وعدناه بالخير العميم، واستأنفنا برنامج الجمعة وكأن شيئاً لم يكن، ودخلنا في منافسة الكرة الطائرة وضربناها ضرباً مبرحاً أما أنا فقد كنت أكثر المعتقلين (دبرسة) إذ عاد قانون الاعتقال المفتوح وضاع يوم المحكمة الموعد الذي حدد في اليوم التاسع عشر أي بعد أسبوعين من تاريخ الانقلاب، وتواصل بقائي مع الآخرين إلى شهر مايو 1978م. وهكذا امتدت الدقائق الخمس التي وعدني بها مندوب جهاز الأمن يوم الاعتقال في أغسطس 1974م إلى أربع سنوات وللمرة الثانية يقع انقلاب عسكري ونحن في المعتقل وجاء عباس برشم وهو أحد كوادر الجبهة الوطنية إلي سجن كوبر حيث أشرف على إطلاق سراح معتقلي الجبهة الوطنية وفي طريقه خارجاً من كوبر توعد الشيوعيين بأنه عائد ليصفي كما قال حساباته معهم ولكنه لم يعد لان إنقلاب حسن حسين قد فشل وراح برشم مع ضحايا الإنقلاب الذين أعدموا في خور الحمار بعطبرة.

الشيخ الخير كان «نوارة فريقنا» فـــي شــرق أوروبا

(الحلقة الــ (27))

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

لائحة المعتقلين:

حينما كنا في سجن كوبر كانت الإدارة تعتذر عن الاستجابة لعدد من احتياجاتنا مثل الأقلام والراديو والكراسات بحجة أنه ليس للمعتقلين لائحة تنظم التعامل معهم في الوقت الذي يتمتع فيه السجين الذي تدينه المحكمة لما ارتكب من جرائم بكل احتياجاته بما في ذلك زيارة بعضهم إلى أسرهم في المنازل وخاصة (المضامين) يقضون أغلب الوقت خارج السجن وما عليهم إلا أن يعودوا قبل ساعة (التمام) ولكن

البعض من الجنود كان يتعاطف معنا بإحضار ما نحتاجه دون علم الإدارة. وفي هذا الشأن وكنا في أيامنا الأولى في سجن كوبر لا ندرك خطورة إطرائنا لبعض الجنود وعند مرور (الكمندان) الأسبوعي كان يسألنا عن حالنا وتعامل الجنود معنا وحين نذكر أحدهم بالخير لا نراه مرة ثانية فعلمنا فيما بعد أنهم يصفون هذا الجندي بأنه (مختلس) مع المعتقلين ليبعدوه الي قسم آخر، فطنا الي هذه الحقيقة وأصبحنا نشكو من الذين نتعامل معهم فيبقون معنا. وأخيراً أثمرت احتجاجاتنا وإضراباتنا عن الطعام بإصدار لائحة للمعتقلين السياسيين تضمنت الملابس والراديو والأقلام والتلفزيون والسراير وأصبحت المعتقلات مأوى معقولاً. ورغم السماح بالزيارات إلا أن كثيرين بيننا تعذرت زياراتهم لصعوبة الطريق وتكاليف السفر بالجو ومشكلة السكن في الفاشر رغم ما قدمه المواطنون من مساعدات قيمة فأصبحت صلاتنا بالأسر عبر الرسائل التي نبعثها عن طريق إدارة السجن بعد أن يقرأها الضابط المسئول ويطمئن أن ليس بها غير التحية والسؤال عن الجميع في المنزل، ولكننا لم نفقد قناة نبعث عبرها الرسائل الأخرى بالكيفية التي أشرت إليها في موضع آخر. ويرجع الفضل في تحسين المعتقلات إلى الشيوعيين والديمقراطيين الذين ظلوا يناضلون بإستمرار في ثبات وصبر ودخلوا في العديد من الإضرابات عن الطعام وواصلوا الإصرار والضغط بالمذكرات على إدارات السجون وجهاز الأمن حتى اضطروا إلى إحداث تغيرات إيجابية في حياة المعتقل، حتى أن مدير السجون في إحدى زياراته قال: أصبح سجن كوبر فندق خمسة نجوم.

وبدخول السراير والمراتب بعد هذه الغيبة الطويلة وكان المعتقلون قد ألفوا النوم فوق البرش والتزحلق يميناً ويساراً وكثيراً ما خرج بعضهم من النمرة وقضى الليل قريباً منها، وظن بعضهم انه ما زال نائماً على الأرض وسقط مرات عليها، منهم من استيقظ ورجع إلى السرير ومنهم من قضى ليله مستلق على الأرض، وأخيراً استقر الجميع وبدت الحياة أكثر راحة من أيامنا الأولى وتم هذا في جميع معتقلات السودان وأصبح السجن سكنا مريحاً نسبياً ويمكن منحه بعض (النجوم) الفندقية مما أوحى إلى الأستاذ هاشم سوركتي ان يطلق عليه (كوبر هاجن) بدلاً عن سجن كوبر واقترحه عنوان هذا الكتاب (كوبر هاجن والذكريات).

انقلاب الجبهة الوطنية 1976:

وفي شهر يوليو عام 1976م وبلا مقدمات لما سماه نظام مايو غزو المرتزقة اعتقلت مجموعات كبيرة من الشباب ووضعوا في العنبر الذي يجاورنا، حاولنا التعرف عليهم واكتشاف هويتهم فلم يستجيبوا وذهب بعضهم للقول : ما عندنا (مخلط) مع الشيوعية، كان واضحاً انهم في عمر متقارب ولهم بنيات نسيقة ورشيقة، لم نيأس من التقرب إليهم واقتنعنا أنهم مدربون تدريباً عسكرياً وذلك لكلمات الضبط والربط التي كنا نستمع إليها من أحد قادتهم، ويبدو أنهم كانوا مرهقين لما بدأ عليهم من الإعياء والسعال المستمر. قدمنا لهم ما توفر لدينا من أدوية ومضادات حيوية وبعض مواد من الكميون لبن وسكر وطحنية..الخ، فهدأت قليلاً خواطرهم واصبحوا يردون التحية ويتحدثون إلينا ولكن بمقدار مـعلوم ، أكد تقديرنا بأنهم منضبطون. ولكي نتأكد من ذلك الاعتقاد طلبنا من مساعد الحكيم أن يختبرهم خلال توافدهم عليه للعلاج. وكنا قد رجوناه الاهتمام بهم لما لحق بهم من إعياء ونزلات. وفي إحدى زياراتهم إليه وكان عددهم كبيراً احدثوا بعض الضوضاء. فوقف المساعد وهو رجل عسكري وصاح فيهم (انتباه) وبحركة عشوائية انتظم جمعهم وتأكد له أنهم مدربون عسكرياً. وظللنا نتفقدهم ونمدهم بالأدوية التي نحصل عليها من المستشفى واستطعنا أخيراً إقناعهم بأننا اليوم جميعاً في خندق واحد وعلينا أن نجعل من السجن مكانا يجمعنا لا يفرقنا. واستمرت لقاءاتنا معهم ولكنهم كانوا شديدي الانضباط لم يدلوا بأي تفاصيل فيما هم مقدمون عليه غير انهم كانوا يرددون إن شاء الله نمرق كلنا.. كان اعتقادنا ان عملا عسكريا سيكون في الخرطوم وأن مجموعتهم هذه جاءوا بها لتبدأ (مناوشات) تؤدي إلى إرسال قوات عسكرية لتخمد الحركة التي تقوم بها هذه القوات، وتوجه أنظارهم وقواهم وإعلامهم نحو الفاشر. وبذلك تضعف المقاومة وتتشتت جهودها مما يسهل الحركة العسكرية في العاصمة.وعند دخولهم مدينة الفاشر قادمين من ليبيا لفتوا الأنظار بعددهم الكبير واستئجار أماكن السكن بمبالغ اكبر مما هو متعارف عليه في المدينة .ولعل ذلك هو الذي لفت نظر جهاز الأمن فارتاب في أمرهم واعتقلهم جميعا واودعهم سجن شالا وظلوا في المعتقل حتى بدأ القتال في الخرطوم واستمر لثلاثة أيام انتصرت فيها القوات المسلحة وعاد (جعفر نميري) مرة أخرى إلي السلطة. كان أكثر ذعراً وجذعاً وطوح بمئات الشباب دون محاكمة أو تحقيق. ولم يسلم جيراننا في عنبر شالا من تلك المجزرة رغم انهم لم يشتركوا ولم يحملوا السلاح في وجه أحد. وحملوهم إلى الطائرة مكتوفي الأيدي مما يتنافى وقانون الطيران المدني لان ذلك يعرضهم إلى الهلاك إذا حدث للطائرة أمر طارئ يستوجب الخروج الاضطراري. علمنا أن الطيار رفض نقلهم بتلك الحال، ولكنهم أرغموه على الإقلاع!! رغم أن بعضهم كان يعاني من النزلات والملاريا وتحت إشراف طبي ولم يشفع لهم ذلك فراحوا جميعاً إلي (الدروة).. ولم يصرحوا لنا خلال المعركة مع نظام نميري بأي تفاصيل غير ان بعضهم كان دائماً يردد : القدر، وربنا يجيب العواقب سليمة!!

ضيوف جدد في شالا:

وبنفس الجنون والهستريا التي أصابت (نميري) بعد إنقلاب هاشم العطا امتدت يده إلى كل قيادات وكوادر الجبهة الوطنية التي قامت بالمحاولة العسكرية وادخلها المعتقلات والتحقت بنا في سجن شالا مجموعة من الحزب الاتحادي الديمقراطي ?حزب الأمة- جبهة الميثاق. وبعض لا ينتمي إلي أي من هذه الأحزاب ولكنهم ينحدرون من أقاليم في غرب السودان يعتقد جهاز الأمن أن غالبية من اشتركوا في ما سموه (الغزو الليبي) هم من تلك المناطق. وآخرون بنفس الاعتقاد سيقوا من الشارع وأطلق عليهم الرصاص ولم تتح لهم فرص الدفاع عن أنفسهم أو الاستعانة بمحامين تماماً كما حدث في مجزرة (الشجرة) عندما فشل انقلاب هاشم العطا.

اصبح السجن في شالا مماثلاً لظروف (كوبر) عام 1974 عندما جمعت أجهزة الأمن المعتقلين من كل الاتجاهات السياسية في قسم واحد هادفة إلى خلق مشاكل ومشاحنات بينهم ولكنها لم تستفد من تلك التجربة التي أفادت في مناقشة قضايا مختلفة وساعدت في خلق جو أدى إلى فترة مستقرة أفادت في تحويل المعتقل إلى تجمع نتبادل فيه وجهات النظر المتباينة وتقريب أو توضيح بعضها. وبطول المدة في المعتقل ومرونة التعامل مع إدارة السجن والجنود أيقنت الإدارة أن لا أحد ينوي الهروب، وأن المعتقلين على مختلف اتجاهاتهم السياسية يمارسون حياة اجتماعية هادئة تنطوي على قدر كبير من الود والتفاهم، فتركت أبواب الأقسام مشرعة مما مكننا من تبادل الزيارات وممارسة أنواع مختلفة من الرياضة بما في ذلك كرة القدم في الفضاء الذي خصص لبناء قسم للسجينات. ونشطت الحركة الثقافية والسياسية وفتحت فصول لتلقي الدراسات المختلفة .وقد لعب الأستاذ سليمان حامد دوراً كبيراً في الدراسات السياسية وخاصة المحاضرات في وثيقة (حول البرنامج) وتحمل في صبر متواصل كثيراً من المشاكل التي كانت تنشأ بضيق البعض من طول الاعتقال .وافتتح الدكتور محمد سليمان فصلاً لتعليم اللغة الألمانية وبعد أن قطع الدارسون مرحلة متقدمة في اللغة الألمانية أطلق سراحه. وزعمنا أن هذه (مؤامرة) من جهاز الأمن. ثم واصل السر شبو من بعده ولكنه هو الآخر لم يستمر طويلاً فقد أطلق سراحه. وتولي الأستاذ عباس علي تدريس اللغة الإنجليزية وكان موفقا في تعليم مجموعة كبيرة من الدارسين ولكنه لم يحظ كزملائه المعلمين بإطلاق السراح إلا مع مجموعتنا فتفوق الدارسون في اللغة الإنجليزية.

وهكذا فشلت سلطة مايو للمرة الثانية في أن تجعل من المعتقلات المشتركة وضعاً منفراً يحد من نشاط المعارضة التي اتسعت حركتها وجذبت أقساماً كبيرة من المواطنين من أجل إسقاط النظام العسكري.

بعد المصالحة مع نميرى:

وبعد فشل محاولات الجبهة الوطنية في إسقاط نظام مايو في 2 يوليو 1976 وما أصابها من الإرهاق والضعف وتعطيل كوادرها بالإعتقالات المتزايدة لجأت إلي مصالحة النظام المايوي وتم لقاء بين الصادق المهدى وجعفر نميرى في 26 يوليو 1977 في بورتسودان تواصلاً لمفاوضات ومباحثات تمت في بداية نفس العام وتم الإتفاق على المصالحة الوطنية وكانت السعودية قد لعبت دوراً مهماً في إنجاح مفاوضات المصالحة بل وأعدت الترتيبات بالسفينة التي جمعت بينهما في بورتسودان وكان من بين ما اتفقوا عليه إطلاق سراح معتقلي الجبهة الوطنية. وجاءنا في شالا الضابط يحمل ورقة ونادى على كل كوادر الجبهة الوطنية معلناً خروجهم من السجن وبقينا نحن والديمقراطيون حتى مايو 1978 أي بعد تسعة أشهر. وكان من بين شروط سلطة مايو لإطلاق سراحهم أن يؤيد معتقلو الجبهة سياستها وقد فعلوا فإطلق سراحهم.

في هذا السياق حول أحداث المحاولة الفاشلة في 2 يوليو1976 جاء في إصدارت الحزب الشيوعي في عيده الأربعين: صبيحة الثاني من يوليو 1976 وطائرة السفاح تلامس ارض المطار في رحلة العودة من أمريكا بدأ الضرب في المطار وفي القيادة العامة للجيش وفي أماكن أخرى متفرقة من العاصمة هرب السفاح ناجياً بجلده كما كان يفعل دائماً.

مجموعات المقاتلين في ثيابهم المدنية كانت تنتمي إلى الجبهة الوطنية يقودها الضابط المفصول الشهيد محمد نور سعد. قوات الجيش إستفزها الهجوم المدني فاتحدت وصدت المقاتلين وهزمتهم. وبدأت واحدة من ابشع حملات الإبادة الجماعية والتعذيب الوحشي في تأريخ السودان.. قبور جماعية، أحياء يدفنون, أياد ورؤوس تطل من تحت التراب بعد الدفن. أبرياء اخذوا دون ذنب بناء على اللون واللهجة والسنحة.. دماء غزيرة تغطى حوائط الزنازين.. الأشجار تزدحم بالأجساد البشرية المعلقة لإستخلاص الإعترافات.. ظروف فظيعة في كل السجون، وحملة هستيريا تظل تتصاعد.. قبض على قائد الحركة محمد نور سعد قرب الدويم وحكم بالإعدام ونفذ الحكم بصوره جماعية مع مشتركين آخرين.. دفنوا في قبر واحد في مكان ما غرب أم درمان.

شكلت محكمه لمحاكمة الصادق المهدى والشريف الهندي غيابياً وحكمت عليهما بالإعدام. كانت تلك هي المحاولة الثالثة والأخيرة للجبهة الوطنية للإطاحة بنظام مايو بدأت بعدها في التفكير في المصالحة مع النظام.

بعض مفارقات ونوادر :

لم يخل المعتقل من طرف ونوادر أخذت حيزًا كبيراً من أيام المعتقلات. وعندما وقع إنقلاب حسن حسين في 5 سبتمبر 1975م أطلق سراح جميع المعتقلين من الجبهة الوطنية كان من بينهم أحد النقابيين الإسلاميين ولكن الإنقلاب لم يستمر طويلاً وعاد نظام نميري مرة أخرى كذلك عاد (النقابي) إلى السجن وعندما سأله ضابط السجن أين كان قال : مشيت البيت أجيب موية رمضان وأعيد مرة أخرى إلى (النمرة).

في الأيام الأولى للاعتقالات بعد فشل انقلاب 19 يوليو 1971 وكانت الغالبية العظمى من المعتقلين يدخلون السجن لأول مرة ولم يكن بمقدور أحد أن يتنبأ بالمدة التي سيبقون بها. وفي تلك الأيام جاء أحد الشبان وكان يجلس بالقرب من الأستاذ/ سيد على طه المحامي فسأله عن ظروف الاعتقال وكيفية التعامل مع الحياة وكم من الزمن سيبقى معتقلاً فقال الأستاذ/ سيد : تصور نحن بالحالة دي وفي الأرض لينا اسبوعين، ولم يدر (أبو السيد) أنه سيغادر المعتقلات في عام 1978 من سجن شالا بغرب السودان.

شيخ الخير:

في رحلتنا إلى شرق أروبا مع جعفر نميري كان برفقتنا شيخ الخير أحد قادة إتحاد المزارعين شخصية لا تمل الحديث معه ويتمتع بروح

مرح ودعابة لا تغيب عن تعليقاته كان خفيف الظل وأكثر شباباً من عمره متديناً وله(حيران) ومرضى يعالجهم بالآيات الكريمة فيتم شفاؤه. كان (نوارة فريقنا إلى شرق أروبا). أذكر مرةً عند زيارة قمنا بها إلى مصنع أدوات كهربائية في بولندا أعجب بإحدى العاملات وطلب مني ترجمة حديثه إليها فقال: أنا معجب بيك شديد وعاوز أتزوجك وأسوقك معاي السودان أيه رأيك؟ فإبتسمت الشابة وقالت : وهي تضحك : شكراً جزيلاً أنا متزوجة وعندي طفلتان فقال: معليش القسمة مابتدي شقي الحال وإنتي والله ظريفة وجنتل مان (GENTEL MAN)0

وفي رحلتنا إلى برلين بألمانيا الديمقراطية أخبرنا المترجم بأن برنامجنا غداً صباحا إلى مزرعة تعاونية وعلينا أن نكون في صالة الإستقبال الساعة التاسعة صباحاً ونزلت في ذات الوقت فسألني المترجم عن شيخ الخير وإنتظرناه حتى التاسعة والربع ولما لم يظهر صعدنا إلى غرفته فوجدناه ملقىً على السرير وملتحفاً ببطانية وكانت الأمطار تنهمر بشدة فبادرنا بالسؤال: خلاص المطر وقفت ؟ فضحك المترجم فقال له: لو أن المطر تمنعنا من الخروج لكنا في عداد الأموات.

تعددت الكشوفات لإطلاق سراح المعتقلين ومثلها لتنقلاتهم إلى السجون خارج العاصمة وتواترت الإشاعات بأن كشفاً كبيراً أعده جهاز الأمن لإطلاق سراح عدد كبير من المعتقلين ونقلت تلك الإشاعة جدة أحد المعتقلين التي أكدت (رؤيتها) لإسم صهرها في قائمة لدى ضابط الأمن في مكاتب الجهاز حينما ذهبت طلباً للتصديق لها بالزيارة وامتلأت جوانحنا بهجة وفرحاً وظللنا نرقب باب السرايا في انتظار الحارس (البخيت) حاملاً الكشف الموعود. وصدق حسنا وجاء الشاويش وراح ينادي على الأسماء ويطلب منهم حمل أغراضهم. وتصادف أن يكون اثنان من المعتقلين تتفق أسماؤهما حتى الجد. فبادر أحدهما حاملاً أمتعته مع الآخرين وراح الخارجون من المعتقل في كرم ونكران ذات يوزعون ما لديهم من سجاير وعلب طحنية (مؤمنة) وبعض الملابس من عراريق وجلاليب، فهي أشياء تتوفر لهم مضاعفة عندما يعودون إلى منازلهم. ولم يدركوا الأمر إلا على أبواب الطائرة العسكرية التي نقلتهم إلى الفاشر حيث ينتظرهم سجن شالا فأحتج (.....) وقال انهم جاءوا به خطأ وتأكد ذلك عند الاسم الرابع فكان مختلفاً ولكن فرحته لم تدم طويلا وعاد إلى سجن كوبر يسب الحظ التعيس وصب جام غضبه على زميلهم ذي اللهجة المصرية وظل يردد مقولته عندما عاد من الزيارة: (نينه) ما تكدبش أبداً، هي شافت الكشف بنفسها عند الضابط عندما راحت تطلب تصديق الزيارة.

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

محمد أبو الوفاء:

كان محمد أبو الوفا شاباً ضخماً ثقيل الوزن ولكنه امتلأ ظرفاً وروحاً مرحاً تمتع بخفة الدم وزخرت أحاديثه بالطرف والنوادر، وحين يذهب للرياضة مشياً حول السرايا ننتهز فرصة بعده عن فرشه (النمرة) ونضع ملابسنا بعد الغسيل تحت البطانية فيعود من مشواره الرياضي ويستلقي على ظهره فيضغط على الملابس فإذا بها مكوية بدرجة ممتازة. وذات يوم بلغ (ع م) بزيارة من خطيبته وأراد أن يعد ملابسه الأنيقة لإستقبالها فوضعها تحت بطانية أبو الوفا وعندما جاء الجندي يخطره بالزيارة كان أبو الوفاء يغط في نوم عميق فأصابته الحيرة كيف ينزع ملابسه من تحته، فنادي عليه للزيارة فنهض سريعاً وأراد أن يخرج ملابسه فإذا به يفاجأ بكمية هائلة من الملابس وحين تفقدها لاحظ أن مقاساتها صغيرة جداً لا تتلاءم مع حجمه لكنه لم ينفعل وأطلق ضحكة عالية وطلب نظير ذلك الأجرة من السجائر. وكانت الصدفة أن جاء جندي أخر ليعلنه بزيارة حقيقية في ذلك الوقت. وتم بعدها إطلاق سراحه ففقدنا بغيابه (مكوة هامة) (للهندمة).

القومندان ميرغني أبو الروس

كان رجلاً إنساناً ود بلد يسهل كل ما يمكن تطويعا وتصرفا بلوائح السجن لكنه لم يسلم من جهاز الأمن، اتهموه بالتواطؤ مع المعتقلين

وبدأوا في الضغط عليه وزعموا انه سمح بحركة غير عادية من نشاط مما دعا المواطنين للوقوف بعرباتهم قرب حائط السجن ليستمعوا إلى الأناشيد التي يرددها المعتقلون كل مساء وينتشون بسماع أغنيات وردي التي اعتقلتها الإذاعة وأوقفت بثها. تحت هذا الضغط اضطر (القمندان) إلى توزيع المعتقلين إلى أقسام أخرى بعيدة عن جدار السجن الخارجي. وحين عاد السجناء إلى السرايه وخلال تنظيفهم لحوش السرايا عثروا على (زير مدفون) فحملوه إلى (القمندان) زاعمين أن المعتقلين السياسيين هم الذين قاموا بذلك. والحقيقة أن المساجين اعتادوا على تجميع أقراص (الجرايه) إضافة إلى بعض المواد التي تساعد في (التخمير) ثم يفتحون (الزير) فتتوفر لديهم كمية من المشروب يقضون به ليلة حمراء في نهاية الأسبوع وكنت أحد المتحدثين باسم المعتقلين لدى الإدارة في شؤون حياتنا اليومية ولا أدري ما الذي دفعه ليجوب الأقسام معلنا للمعتقلين أن القومندان خليل الياس مخليكم هنا وقاعد هناك يشرب في (المريسة) وكان يرافقه الحراس والمساجين حاملين ذلك الزير يجول به من قسم لآخر.

اجتمعت اللجنة وطلبنا (مكتب) وهي صيغة معروفة للتحدث مع إدارة السجن ولان الأمر كان يمسني شخصيا بادرت بالقول: يا عم (ميرغني) ما وفقت في الحملة، أنا شخصيا لا بشرب ولا بدخن وأنت راجل مشهود ليك بالمعاملة الطيبة مع المعتقلين اليساريين خاصة، وعارف انهم ناس منضبطين ومقدرين للمساعدات التي كنت بتقدمها ليهم خصوصاً لما كنت في الجنوب. وكان الأمل فيك انك تشوف كيف تساعد في الإستجابة لبعض المطالب المعقولة. ولسه نحن راجين منك الكثير. وأنا أعلم أنه شديد الإنفعال فرد قائلاً: هي الحكومة لو عندها زول عاقل مش كان يخلونا ندخل التلفزيون هو فيه شنو غير ناس (أبو قبورة وبت قضيم) يعني لا يجيب لندن ولا موسكو. وتابع قائلاً: أنا حاشوف ليكم موضوع السراير... واحسن ليهم يحسنوا المعتقل لان الدنيا ما معروفة، اليوم حاكم وبكره معتقل، على أي حال نحن عندنا مفاتيح السجن البجينا في الأول يدخل ونفتح ليهو ويطلع وانتهينا من حدوته (الزير).

الزائر الجديد:

وبعد عام من الاعتقال جاءنا وافد جديد يمشي مكباً على وجهه اعتقدنا أنه معاق ثم انتصب فجأة عندما رآنا وقوفاً لاستقباله فقال مندهشاً: الستم موجودين داخل نفق؟ ظن ذلك لان باب السراية به فتحة صغيرة غير المدخل الرئيسي لدخول وخروج المساجين بعد انحناءة واضحة. وعند سؤالنا عن أسباب هذه (الكوة) قالوا أنهم يخشون أن يعتدي أحد النزلاء على الحرس ولكنه هو منكفئ يسهل الانقضاض عليه وضربه فوق رأسه. وجلس (الزبون) الجديد مرتديا قميصه وبنطلونه فأحضرنا له من (الكوميون) عراقي وسروال لزوم الاستعداد (للنمرة) قال: شكراً أنا طالع بعد خمسة دقائق بتاع الأمن كلمني وأنا جاي عليكم، قلنا له لا بأس لان دقائق الأمن تربو على العام أو أكثر. فأرتدي هذه الملابس حتى يأتيك كشف إطلاق السراح. وأمتدت دقائقه الخمس إلي 365 يوماً أي ما يعادل 52560 دقيقة.

سجن شمس الدين:

وخلال تواجدنا في حوش السرايا ونحن ما زلنا نستمع إلى إشاعات حول محاكم ميدانية سوف تعقد لمحاكمة المعتقلين السياسيين دخل علينا مساجين بصحبة الشاويش يحملون معدات خيمة نصبوها في الحوش فخيل إلينا أنها بداية للمحاكم المزعومة. واتضح في النهاية أنها عنبر إضافي نقل إليه بعض المعتقلين من قسم آخر. في هذه الأثناء جاء (شمس الدين) ليحمل أغراضه فعلمنا منه أنه حوكم بستة أشهر سجنا. أصابتنا نوبة من الحزن وقلنا مسكين سيبقي في السجن كل هذه المدة؟ وإذا بنا نبقي لعامين من بعده. وكان قد قدم إلي محكمة قبل انقلاب هاشم العطا.

السر (سلكه):

كانت مجموعتنا.. الشيخ عووضة، علي سعيد، عباس علي، السر شبو، وشخصي، نمارس رياضة المشي في السرايا في الصباح الباكر ونختمها بالجري السريع والدش البارد وكان الشتاء قارساً، ثم إنضم إلى مجموعتنا (السر) الذي لقبه زملاؤه (السر سلكه) لشدة نحافته، وبإنضمامه لفرقتنا الرياضية لفت أنظار زملائنا المعتقلين سألني أحدهم مندهشاً نفهم أنكم تودون تخفيف الوزن فما سبب السر الذي أوشك أن يبقى له من جسمه العظم فقط قلت لهم..! أغلب الظن أنه يود الهروب من السجن عبر فتحة الجدول التي تنقل ماء الخريف إلى الشارع.

أمباشي داؤود:

في سجن شالا كان الامباشي داؤود مسؤولاً عن احتياجاتنا من المواد التموينية مرة كل أسبوع وقبل نهاية اليوم يأتي لاستلام المبالغ فيذهب بها الى السوق ليحضر في صبيحة اليوم التالي ما كتبناه له من احتياجات (للكميون) وقد امتلأ مخزوننا من صفائح الطحنية والزيت والجبنة وجوالات السكر وكراتين لبن البدرة (كاني). جاءنا داؤود على غير العادة بعد إغلاق السجن بدون ورقة إطلاق سراح فاندهشنا لمجيئه، سألناه: خير إن شاء الله؟ قال: أيوه خير أنا جيت أشوفكم جاهزين ولا لسه؟؟ أنا سمعت في الرادي أنكم خلاص مارقين. ابتهجنا كثيراً للخبر وكنا قد تجاوزنا العامين. سألنا كل المعتقلين؟ فلم يؤكد أحدهم أنه سمع الخبر من (الرادي)!! سألته يا داؤود (الرادي) قال شنو؟ قال: إطلاق سراح كافة المعتقلين من كافة عموم السودان!! الطريف أنه كان ينطق كلمة المعتقلين بالكسرة على القاف. كررنا السؤال مرة ثانية: يا داؤود الكلام سمعته بأضانك ولا جابه ليك زول؟ قال: سمعته براي في إذاعة الساعة أربعة. وللتأكيد سألته ثانية قلت (الرادي) قال كيف؟ قال: إطلاق سراح كافة المعتقلين من كافة عموم السودان!! وظللنا نقدم له كميات من الطحنية ومشروب (التانق) وكذلك وجبة دسمة للعشاء في الوقت الذي لم تغب الشمس بعد، كل ذلك إمعاناً في إكرامه لهذا الخبر الجميل ولو لا

لطف الله على الكوميون، أوشكنا على إهدائه ما تبقى من صفيحة الطحنية وكرتونة لبن (كاني) ولكننا أرجأناه لصبيحة اليوم التالي عند خروجنا بعد تناول وجبة الفطور. وشرعنا في تستيف حاجاتنا وحلاقة الدقون وشعر الرأس وغسل الملابس. وقضينا الليل نرسم خطواتنا وبرامجنا ومفاجآتنا السارة للأسر وحدوداتنا المثيرة التي أعددناها للأطفال وبعض الذكريات الطريفة التي تثير فضولهم وتدخل عليهم البهجة.

وحين أصبحنا وجاء داؤود كالعادة مع (زفة) المرور للتمام ولا أحد يشير إلى خبر إطلاق سراح أو يعيد ما قاله داؤود بالأمس سألناهم عن الأخبار فقال الشاويش موسى: استعدوا للذهاب إلى المستشفى ميعاد العيانين الساعة عشرة. علمنا فيما بعد أن الامباشي داؤود ينسج من خياله أموراً كثيرة مماثلة ظناً منه أن ذلك يدخل البهجة على مستمعيه. لم يعتذر ولم يبد عليه الأسف وقضى يومه وكأن شيئاً لم يكن!!

أفرغنا ملابسنا من حقائب اليد ووضعناها تحت المراتب ورجعنا في هدوء رهيب وكانت تلك صدمتنا الثالثة.!

في إحدى الأمسيات ولم يبدأ البرنامج اليومي بعد، تناقل المعتقلون خبراً مفاده أن انقلاباً قد وقع ودللوا على ذلك بأنهم لم يشهدوا أية طائرة تقلع أو تهبط لان (السرايا) في خط مستقيم مع مدرج المطار. وهذا يعني أن المطار قد أغلق. ومار المعتقل موراً وكل يسبح في الخيال بما يؤدي النبأ الي الإنفراج . البعض راح يقترب من الحائط يستنط إلى صوت الدبابات وآخر يسترق النظر من ثقب الباب المؤدي الي بهو الإدارة مراقباً حركة الحراس وضابط السجن. ولم تدم لحظات الترقب والانتظار وقتاً طويلاً حتى أفادنا أحد العاملين بمطار الخرطوم أن يوم الثلاثاء يخلو تماماً من حركة الطيران. والسفريات الداخلية لغير بورتسودان ولا تقلع إلا صباحاً لان المطارات الأخرى لا تتوفر فيها إضاءة كافية للهبوط، وران على السرايا هدوء مشبوب بالدبرسة وكسر الخاطر.

إشاعات موضوعية:

كان الاعتقال مفاجأة لعدد كبير من المواطنين وتجربة أولى لم يعتادوها من قبل ولم يدر أحد متى وكيف سيغادر السجن إلى ذويه وكان بينهم العريس الجديد والخاطب والذي ترك طفله في أول أيام ميلاده ومنهم من التحق بوظيفة لأول مرة بعد تخرجه ومن حصل على بعثة دراسية في إحد البلدان الاشتراكية والذين تركوا أسرهم في منازل بالإيجار ومشاكل كثيرة تستدعي تواجدهم خارج السجن لحلها. في هذا الشأن سعى كل من نالوا خبرة في المعتقلات أن يطمئنوهم بأن الفترة لن تطول وأن هناك ضغوطاً كثيرة على السلطة لإطلاق سراح المعتقلين وعليهم ان يملأوا فراغهم بالقراءة والتسلية والمساهمة في المناشط المختلفة والا يركنوا لليأس والقنوط.

صالح البحر:

إضافة الى توجيه هؤلاء الشباب بما يساعدهم على الثبات والصمود كنا ننمي بعض الإشاعات التي تصلنا عن أخبار تصفية المعتقلات من العناصر الجديدة والتي لم يعرف لها نشاط خطير على السلطة. ولعب الأخ صالح البحر دوراً مميزاً في ذلك. وقد تمتع بعلاقات واسعة في المجتمع خاصة بعد دخوله عالم التجارة. وكانت زياراته كثيرة وأخباره مثيرة وكان مخرجاً رائعاً. وحين يعود من إحدى الزيارات نلتف حوله في العنبر فيطربنا بالأخبار التي كان يسميها (الكلوزات) وهي أخرجها من الانجليزية (Close) ويعني بها أخباراً خاصة. ومن بين أخباره المثيرة انه قال : ان السرايا ستخلى من المعتقلين لان عدد السجناء قد تضاعف وليس لدى إدارة السجن أمكنة كافية لاستيعابهم فيها. وانتشر الخبر في كوبر وتفاءل الناس بانفراج قادم. وفي إحدى الزيارات قال : أخبروه أن جعفر نميري ونتيجة لشعوره بالذنب من مذابح الشجرة أصابته نوبة عصبية حادة أفقدته القدرة على العمل فنصحه الأطباء بمراجعة ملفات المعتقلين واطلاق سراح اكبر عدد منهم وإعادة المفصولين الي اعمالهم وفي ذلك تخفيف لما يشعر به. وظل (أبو البحر) يطربنا بأخباره الأثيرة واستجار الشباب بالأمل والصبر واعتادوا على حياة المعتقل وخرجوا منه مرفوعي الرأس لم يهتزوا ولم ينهاروا.. ورحنا ننسب إليه ما قاله وما لم يقله إشارة لزيارة نزعم أنها جاءته.

الأستاذ محمد حمزة:

انطوى الشيوعيون والديمقراطيون على قدر عال من ضبط النفس والموضوعية فلم يتعاملوا مع الذين سبوهم وحرضوا (نميري) على ضربهم وتصفيتهم حتى دارت الأيام فالقى القبض عليهم وأودعهم السجن. كان من بين هؤلاء الأستاذ/ محمد حمزة الذي وقف في ميدان السباق أمام جمع كبير في حضرة (نميري) مخاطباً الجماهير وموجهاً حديثه الي نميري: عفا الله عنك لماذا أذنت لهم. وعندما وقع انقلاب هاشم العطا بعث ببرقية تهنئة الي زميله الاستاذ مصطفى محمد صالح وكانت هي السبب في اعتقاله ووجد نفسه بين الشيوعيين في كوبر.

قدموا له كل العون مما تيسر لديهم وكانوا يعدون له النمرة وابريق الوضوء والشاي ويمدونه بما تيسر من الوجبات. ولما طلبت أسرته من إدارة السجن تحويله الي مكان بعيد عن الشيوعيين رفض بإصرار شديد وقال انه يعيش مع اولاد بلد يتمتعون بالخلق والمروءة واني آسف لما لحقهم مني أذى ولا اريد أن احول الي مكان آخر ولم يطل اعتقاله كثيراً وخرج بعد ان ودعناه وداعاً حاراً مصحوباً بأيام مضت لن ننسى ذكراها.. لن ننس أياماً مضت مرحاً قضيناها.

شالا وذاك الفجر المظلم 1977م:

في موقع آخر ذكرت كيف تقاسمنا أيام الأسبوع لطهي الطعام، وكان نصيب كل شخصين يوماً واحداً في الأسبوع واستثنينا المرضى وكبار السن. كانت مهمة سيد على طه عمل شاي الصباح يومياً.. وكان يصحو مبكراً ويدخل (الراكوبة) التي أعدت لنا مطبخاً مؤقتاً فيوقد نار الحطب ويجهز الشاي ويعود مارا وسط اسرتنا ليواصل نومه. كنت وبخيت مساعد ننام قرب المطبخ ونصحو مبكرين لممارسة

الرياضة، وفي صباح ذلك اليوم وقبل قليل من أذان الفجر دخل الشهيد/ عبد المجيد شكاك الراكوبة واعتقدنا انه سيد.. اراد ان ينهي مهمته مبكراً فلم يلفت نظرنا. ولكن طال انتظاره على غير العادة فالتفت بخيت نحو الراكوبة فأبصر لهبا كثيفا يتصاعد من سقفها فنهض مسرعاً الي المطبخ وسمعته يصرخ : ليه يا شكاك.. ليه.. فاندفعت خلفه فإذا بشكاك في وسط بحر من اللهب لا يظهر منه الا عنقه ووجهه، وقد جمع حوله طاولة الطعام واحاط ذراعه ب (شعبة) المطبخ ليتعذر الوصول إليه، واستيقظ الباقون من المعتقلين وحملنا البطاطين والمياه في محاولة لاطفاء النار وبذل (بخيت مساعد) كل جهده لينتزعه من ذلك الجحيم فلم يستطع وظل ممسكاً بالشعبة حتى تعرت عظامه من اللحم الذي بدأ يتساقط على الأرض. ثم راح يهتف : (عاش نضال الحزب الشيوعي عاش نضال الطبقة العاملة- أنا عبد المجيد النور شكاك عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والشهيد الرابع... اقدم على هذا العمل باختياري وبكامل قواي العقلية من أجل اطلاق سراح المعتقلين السياسيين ومن أجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي وختم هتافه قائلاً : أنا أبوك يا أحمد... وبعد أن انهارت قواه البدنية وبح صوته وفقد وعيه حملناه الي مستشفى الفاشر وحاول الأطباء إنقاذه وطلبوا منا الاستعداد لنقل الدم لإسعافه ولكن الدكتور محي الدين عبد الرحمن أخصائي الجراحة- جاءنا بعد ان فحصه ليفيد بأن لا حاجة لاي نقل دم فقد صار الوقت متأخراً وأصبح شكاك في ذمة التاريخ.

كان قبل يومين من ذلك الحادث سعيداً مبتهجاً عندما شاركناه الاحتفال بختان ابنه احمد كان متألقاً يحمل صورته ويريها لكل الحاضرين.. وكان ليلة استشهاده يجلس مع أحد المرضى يناوله أقراص الدواء ويقص عليه بعـــــض النوادر والطرف ولم يبرح مكانه حتى غلب على المريض النعاس.

كان شكاك مناضلاً جسوراً صبوراً متواضعاً لا يأنف عن أداء أية مهمة توكل اليه، مشاركاً في كل المناشط السياسية والفنية والرياضية.. لم يتحدث يوما عن مهامه الحزبية وانطوى على كثير من مسئوليات وأسرار الحزب رغم أننا لم نكن ملمين بتفاصيلها ولكن كنا على البعد نحس بدور كان يضطلع به وتجلى ذلك عندما جاءنا مامور السجن مصحوباً بجنوده فعلق بأن الذي يرتديه هؤلاء العسكريون يؤكد أن البلد في حالة طوارئ أو أن انقلاباً عسكرياً قد وقع.

وقد نما إلى علمنا إن ادارة السجن وجهاز الأمن كانوا يعلمون انه مريض وفي حاجة إلى عناية طبية متواصلة ولكنهم لم يحــولوه الى مستشفى تخصصي ولم يطلقوا سراحه فدخلنا في إضراب عن الطعام لمدة يومين احتجاجاً على هذا الإهمال المتعمد.

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

شكاك في أدب الحزب الشيوعي:

ولم نتبين حقيقة مهامه التي كان يؤديها إلا حين صدر تقرير السكرتارية المركزية للحزب الشيوعي عن حركة 19 يوليو التي أصدرتها والتي ورد ذكره فيها مرات عدة. جاء في صفحة 50: (ووصلت لشكاك رسالة من عبد الخالق عن بعض الإجراءات التي يجب أن تتخذ لتأمين الحركة في الفضاء الواقع جنوب مصنع الذخيرة. فرد شكاك بضرورة تأجيل التنفيذ حتى تتوفر وسائل سكن واقامة مأمونة بعد الهروب لان السكن والاقامة يتطلبان درجة عالية من التأمين أمام الهجوم الذي ستشنه السلطة على كادر الحزب ومواقع العمل السري وعلى كادر العمل السري كشفته العناصر المنقسمه لجهاز الأمن، وأن المشكلة ليست تنفيذ العملية لتهريب عبد الخالق بل المحافظة عليه وتأمينه واستقراره بعد هروبه).

وفي صفحة 51: (صدق حدث الشهيد شكاك فقد طالت الاعتقالات التي تمت بعد هروب عبد الخالق مباشرة علاقة بذلك المنزل كما

كشفت كادرا كان علي صلة بمهمة تأمين المنزل).
وفي ذات الصفحة: (اضافة الي أن خطة شكاك الاولي كانت أكثر تحوطا بأن يسافر العريف الي الخارج فورا ، لم يكن العريف نفسه مهيئا ذهنيا أو نفسيا للاختفاء لمدة قد تطول). وكذلك : (وعاود هاشم العطا مرة أخري وأخطر بالتروي لبعض الوقت ومرة ثالثة طلب الشروع في التنفيذ وضرورة تحديد يوم لهروب عبد الخالق، وكان الرد بالتأجيل أيضا... في هذا الوقت كان شكاك قد أتصل بعبد الخالق وعرض عليه أقتراح هاشم ومحجوب إبراهيم فوافق عليه طالما أنه يوفر الحد الأدنى).
وفي صفحة 60: (وطلب تنظيم مقابلات مع الشفيع جزولي تجاني والشيوعيين المسئولين عن تنظيم الحزب في مديرية الخرطوم ثم مع شكاك للاستنارة برأيهم وتقديراتهم عن الوضع في النقابات ووضع الحزب في العاصمة، ولكي يستكمل من شكاك صورة الأوضاع وسط الجنود. تمت المقابلة مع الشفيع وحضر هاشم جزءاً منها وحددت المواعيد للقاءات مع جزولي والتجاني وشكاك).
وفي صفحة 64: (كان عبد الخالق ينتظر موعداً مع التجاني والجزولي وشكاك وتحديد موعد ثان مع الشفيع للتشاور حول ما توصل اليه.
شهداء شالا 1977:
وكان الدكتور عبد القادر الرفاعي أكثرنا إنفعالاً لفقد الرفاق : عبد المجيد شكاك وحسن دفع الله الشامي وكمال يعقوب، فكتب يقول:
الصراع الذي لا ينتهي هو الصراع بين الحياة والموت، بين هذا الصراع وذاك تمتد رحلة شاقة يكتشف الإنسان فيها أسرار الحياة والموت وقد لا يكتشفها. وهكذا وفي هذا الخضم أنهى المناضل عبد المجيد النور شكاك حياته في سجن شالا بمحافظة شمال دارفور حرقاً بعد أن صب الكيروسين الذي يستخدمه المعتقلون لإنارة القسم الذي يعيشون فيه في السجن. كان العنبر المطبخ الذي حرق فيه المرحوم شكاك نفسه يقبع في نهاية الجرة. كان المعتقلون ثلاثين معتقلاً تقريباً جميعهم أعضاء الحزب الشيوعي مما قضوا أربع سنوات متصلة أو تزيد بعيداً عن أسرهم وأهلهم وجيرانهم، لم يكن من بينهم معتقل واحد من أبناء دارفور.. ليس رحيل عبد المجيد شكاك إلا رحيل مناضل سياسي رافق كفاح السودانيين ونضالهم خلال فترة الإستعمار، وبعد نيل شعبنا إستقلاله في يناير 1956م وشارك في النضال النقابي لتأسيس حركة الموظفين والمهنيين من موقعه خبيراً للإرصاد الجوي وأنتمى للحزب الشيوعي حتى بلغ عضوية اللجنة المركزية التي إختارها المؤتمر الرابع للحزب في أكتوبر 1967 وتولى المسؤولية في المدن والقطاعات التي كان اخطرها مسؤوليته الحزبية الإدارية عن تنظيم الضباط والصف والجنود والقوات المسلحة السودانية. قضى عبد المجيد شكاك انضر أيام عمره وشبابه في سجون ملكال وسنجة خلال دكتاتورية الفريق إبراهيم عبود، تنقل بين سجون كوبر وزالنجي وشالا خلال دكتاتورية جعفر نميري. الرجولة والشهامة والشجاعة والأخلاق تهذيب النفس التضحية الثقافة الإقدام كلمات ومفردات لها معانٍ كانت حياة شكاك تجسيداً لها. لا أوهام لا إستخفاف لا أنانية بل جدية وإلتزام تجل عن النظير هذا ما تمتع به عبد المجيد شكاك من دون الكثيرين، ولكن لماذا مضى بهذه الطريقة وقتل نفسه؟، كي أجيب على هذا السؤال لأنني ببساطة لا أستطيع ولا أعتقد أن غيري يستطيع ولو كانت في روحه آلية ممكنة لتكلمت وباحت بأسرارها. كان الظلام يودع سماءنا في حوش السجن وبدأت خيوط النور تتسلل في الأفق وزادها شكاك بالنار التي اضرمها في جسده اشتعالاً... وقدر لي أن أقول إذا رحل عبد المجيد شكاك بهذه الطريقة أقول لقد جسد شكاك بما فعله أن الواحد لا يكون شيئاً من غير الآخرين وفي الحكمة الصينية يرمز إلى الإنسان بأنه جبل لأن الجبل شامخ لكنه ينضح بالسكينة ويتناغم مع الطبيعة بسلام رغم قوته وجبروته، ومثل الجبل صمد شكاك صموداً بطولياً في مواجهة المرض، ورغم وطأته لم يفصل ذاته وهمه عن هموم الناس ولا عن محيطهم ولم يسلخ رغباته وأشجانه عن هواجسه، فكانت الحكمة عنده دائماً تعني التوازن والإنسجام مع آلام الناس وطموحاتهم. هل ترى كان عبد المجيد شكاك يئساً كل هذا اليأس؟ فقتل نفسه؟ أم تراه كان مثالياً حاول أن يبحث عن صورة شخصية صنعها بنفسه ولما لم يجدها قتل نفسه بحثاً عنها. ترى هل رحل شكاك رحيلاً فلسفياً أم أنه لم يعد يحتمل الحياة في ظل القهر والإستبداد فهجرها قبل ان تهجره.
سيظل رحيل عبد المجيد شكاك عملاً إنسانياً هائلاً وسراً من الأسرار التي تصخب بها ذاكرة رفاقه الذين حضروا إقدامه الشجاع على رحيله المأساوي وسيظل سراً من الأسرار التي تصخب به ذاكرة الوطن. ولم يتوقف رفاقه وكل من عرفه عن طرح تساؤلاتهم عن غيابه المفاجئ إذ مهما لازم ذلك من تساؤلات فإن رحيله بتلك الطريقة ستظل علامة من علامات المرحلة، بكل ما تعني من حزن وقهر وموت وصمود ثم إنتصار.
بعد غياب عبد المجيد شكاك تعطل بعد شهر كبد حسن دفع الله الشامي المحاسب وعضو الحزب الشيوعي في ذات المكان شالا الذي شهد مأساة رحيل شكاك وبقى شهراً يقاوم الموت في بسالة وبذل الأطباء د. محي الدين عبد الرحمن إستشاري الجراحة والمسالك البولية ود. أحمد بلال عثمان (وزير الصحة الآن) والممرضون بمستشفى الفاشر، إنقاذ حياته دون جدوى، فحين دمر المرض كبده وإستحال إلى صديد مات بعد أسبوع من نقله من سجن شالا إلى سجن كوبر... عاشت والدة الشهيد حسن دفع الله وحيدة إذ لم تنجب بنتاً ترعاها.. ظلت تعيش في بيت إبنها حسن في حي كوبر في الخرطوم بحري حتى عاد إليها إبنها حسن دفع الله جثة هامدة ولسان حالها يقول :

كل نسوك ولم يعودوا يذكرونك في الحياة
إلا فؤاد ظل يخفق في الوجود إلى لقاك
ويود لو بذل الحياة إلا منيته وأفتداك

أعرفت هذا القلب في ديجوره هاتيك الوجود هو قلب امك السكرى بأحزان الوجود (الشاعر أبو القاسم الشابي). ظلت أم حسن دفع الله

حزينة وحيدة في ضريح إبنها حتى إستحالت إلى جسد من غير روح... ققز إلى دارها لصوص علموا بأنها وحيدة فقتلوها بقصد السرقة ونهبوا ما لديها وتركوها فقد خرجت إلى المرافق البعيدة لتستقر مع ولدها حسن دفع الله في قبره مجاورة ولسان حالها يقول

فقد آن لي أن انكس قلبي

كسارية أنهكتها الرياح

وأطوي بنفسي شراعي

ليس ينقصني اليأس

كما أدرب روحي على حزنها المتعاظم ألقاك وفي هذه اللقيا عزاء وسكون...

ولحق بهم المناضل كمال يعقوب المعلم بالتدريب المهني الذي ظل معتقلاً بسجن شالا قرابة الأربع سنوات بعد أن تعطل كبده أيضاً ليسلم الروح في ألمانيا التي سافر إليها بعد أطلاق سراحه بعدة أشهر. كان كمال يعقوب مثل حسن دفع الله وشكاك... كانوا شباباً فتياً مقاتلاً

وظلوا يرددون في ليل السجن البهيم

إلى زحل بصعيد مصر

وأم ما تزال مريضه

لكنهم يؤمنون بالغد والإنسان

من إهداء لطفي الخولي من كتابه (رجال من حديد)

الشهيد قاسم أمين:

ظل الرفاق والأصدقاء ضحايا كوارث السجون والمعتقلات وبعد إطلاق سراحه المرة الأولى اعيد إعتقاله في عام 1979م وزج به مع الآف الشيوعيين والديمقراطيين والنقابيين في سجن كوبر حيث أصيب بنزيف في الدماغ وبقى خمسة أيام دون علاج فقد كانت تلك الفترة إجازة العيد وظل النزيف متواصلا في المخ حتىأصيب بالشلل الكامل وفقد القدرة على النطق مما جعل الأجهزة الأمنية تسرع بإطلاق سراحه وقاسم أمين بين الحياة والموت.

نقل قاسم أمين إلى بريطانيا للعلاج ثم إلى (براغ) حيث اجريت له عملية في الدماغ إزيلت خلالها الجلطة الدماغية وفارق بعدها الحياة في الثاني من فبراير 1980 ليعود جثمانه إلى أرض الوطن ودفن في مقابر حلة خوجلي.

عندما أكمل قاسم أمين دراسته بمدرسة أمدرمان الأهلية الوسطى إلتحق بمدرسة الصنائع بمدينة عطبرة مهد الحركة العمالية وكان قد زامله بالدراسة فيها القادة الوطنيون الشفيع أحمد الشيخ وهاشم السعيد وأرباب العربي وكذلك القائد الراحل إبراهيم ذكريا وأديب جندي أطال الله بقاءه .

بعد تخرجه من مدرسة الصنائع بعطبرة إلتحق بالعمل في قسم الورشة في السكة حديد وشارك في تنظيم حركة الطبقة العاملة وكان ضمن مجموعة ضمت الجزولي سعيد ومحمد السيد سلام وهاشم السعيد وإبراهيم ذكريا وأرباب العربي الذين شكل نضالهم مدرسة سياسية ديمقراطية ذات تأثير معروف في تاريخ السودان الحديث الذي نشأ متزامناً مع تأسيس الأحزاب السودانية بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام 1945 . وقبل أن ينصرم عام 1947 إنتظمت هيئة شئون العمال وتأسست كأول تنظيم نقابي في السودان وكونت لجنتها المركزية ولجانها المصلحية وهي لجان الورش والهندسة والإدارة والمخازن والوابرات .وكونت لجان فرعية لهذه اللجان المصلحية على إمتداد خطوط السكة حديد وتشكلت القيادة من الحاج سليمان موسى رئيساً ً والطيب حسن الطيب سكرتيراً عاماً وتولى قاسم أمين مهمة نائب السكرتير . كما ساهم في نشر الفكر الوطني الديمقراطي المعادي للإستعمار البريطاني . وخاض قاسم أمين العمل السياسي وكان عضواً في الجبهة المعادية للإستعمار التي حظيت بتأييد اليسار السوداني والمثقفين آن ذاك . وخاض الإنتخابات في دائرة عطبرة مرشحاً للجبهة المعادية للإستعار.

وأصل قاسم أمين نضاله وسط الطبقة العاملة دون هوادة وحين أصدرت الإدارة البريطانية تشريعات جديدة لم تنل قبول الحركة النقابية أصدر قاسم أمين كتاباً بعنوان (نقد وتحليل لقانون العمل) وقد عبر هذا الكتاب عن وعي حركة الطبقة العاملة الوليدة وإمكانيات قادتها في التعبير عن تطلعات العمال وأمآنيهم.

كان قاسم أمين في أربعينيات القرن العشرين من أجيال اليسار الشابة الذين إلتذموا بالفكر الإشتراكي الباحثين عن كيفية حل مشاكل المجتمع وإقامة العدل الإجتماعي وعن إيجاد حل لمشكلات الحياة اليومية وإيقاظ ضمير الشعب والدعوة لحب الوطن، فالمناضل في نظرهم يتوجب عليه أن يفعل ذلك حتى ضد مقاصده ورغباته، وقاسم أمين كواحد من الذين رأوا ذلك بوضوح فتعاملوا معه بأمانة دون تقديم أية تنازل فأرتبط بقوة بالحركة التقدمية في السودان ووجد نفسه محاصراً مع رفاقه وسط القنابل والحواجز والأحذية العسكرية تدوس على الفكر والمبادئ والحرية وعصا المطاط والزنزانات الموحشة .

لقد تمتع قاسم بهدوء نادراً ما يقاسمه معه أحد وكان مهذباً واسع المدارك وعطوفاً بغير حد وقد تكونت لديه القدرة على الحديث خطيباً مفوهاً ومتمكناً من تعقب الفكرة المطلوبة بموقف ما دون تغيب الموضوعات الأكثر جوهرية وتقدمها من ثم طبق دليلا على قدرة المناضل السياسي على إدراك حقائق السياسة وحقائق الحياة.

تدفق قاسم أمين كالينبوع طوال حياته القصيرة الطويلة مناضلاً فذاً وإنساناً عظيماً ولم يغرق تحت وطأة الهزائم والأهوال المفزعة ولم يستسلم لتشاؤم ولم ينخرط في(ذفة عابرة أو يستسلم لرغبة خاصة أو غرض زائل حتى لفظ أنفاسه) أميناً لمبادئه وللإنسان.

عودة من شالا إلى كوبر 1978م:

وحين توالت الضغوط محلياً وعالمياً على نظام نميري وإشتدت المعارضة وتوحدت أقسامها على إسقاط النظام ولما فشلت الإعتقالات وحملات التشريد في أن توقف نبض الحياة بدأت تصفية المعتقلات وأطلق سراح جميع معتقلي الجبهة الوطنية وبعض من زملائنا في شالا وكوبر وجاء القرار بعودتنا إلى الخرطوم.. وفي تلك الليلة الأخيرة إجتمع بنا بعض من إدارة سجن شالا وأبدوا شعوراً إنسانياً راقياً وتمنوا لنا عوداً حميداً لأسرنا ولم يخف الشاويش إنفعاله وأقسم إنه لولا أننا سنعود إلى ذوينا وأسرنا لأبقيناكم معنا.

ليلة في سجن الأبيض:

أخذنا طائرة الخطوط الجوية السودانية متجهين إلى الخرطوم وفي طريقنا علمنا أننا سنتوقف في مطار الأبيض لنصحب معنا من تبقى من المعتقلين من زملائنا في سجن الأبيض، وعندما بدأت الطائرة بالهبوط إنفجر أحد إطاراتها وأوشكت أن ترتضم بمدرج المطار، ولكن مهارة قائد الطائرة حالت دون تلك الكارثة، وقلق زملاؤنا المنتظرون في المطار قلقاً شديداً بل إن بعضهم أدمع وهم يبصرون مصرع زملائهم بعد طول هذه الفترة من الاعتقال، وأسرهم على أحر من الجمر ينتظرونهم في الخرطوم. لم يكن بالطائرة إطار آخر يستبدلون به الإطار المنفجر، وكان لابد من إحضاره من الخرطوم فعدنا مع زملائنا إلى سجن الأبيض حيث قضينا تلك الليلة معهم وفي الصباح أعدت الطائرة فاقلتنا جميعاً إلى الخرطوم، وبقينا بداخلها فترة حتى جاءوا بالحافلات على سلم الطائرة تحوطاً من خروجنا بالهتاف كما حدث في رحلتنا إلى شالا عام 1975. و كنا قد إتفقنا بأن نكمل رحلتنا إلى الخرطوم بهدوء تام وكان امراً حار بشأنه جهاز الأمن وتساءلوا : ماذا يخبئ المعتقلون خلف هذا الهدوء فقد إختلف مسلكنا عن سالفه الذي أقلق مضجعهم. حفاظاً على سلامة رفاقنا المرضى وخوفاً عليهم من عقوبة السجن الإنفرادي. دخلنا سجن كوبر في هدوء تام لأول مرة.

وساطة نسائية اطلقت سراحنا .. أنا وابني من السجن

الحلقة الأخيرة

مؤلف كتاب «كوبر هاجن» الأُستاذ خليل الياس من الرعيل الاشتراكي المميز الذي عاصر كل الانشقاقات والاختلافات داخل الحزب الشيوعي السوداني، وكان رئيساً لإتحاد الشباب السوداني، أقوى تنظيم شبابي سوداني في الستينيات؛ ثم إختلف مع «مايو» إثر إنقلاب يوليو 71 .. فاعتقل لفترات طويلة بكوبر وتنقل في معظم سجون السودان إلى أن هاجر الى الخارج وعاش في عدة بلدان منها السعودية في الفترة الأخيرة.. وهو في هذا الكتاب ينقل العديد من الحكايات والذكريات السياسية خلال حقبة «مايو» وما قبلها، خاصة الفترة التي أمضاها في سجن كوبر والتي اسماها في الكتاب «كوبر هاجن».. الكتاب طُبع بالقاهرة وقدم له القطب الشيوعي المعروف محجوب عثمان، وقد خص الأُستاذ خليل الياس «الوطن» بنشر هذا الكتاب على حلقات لربط الأجيال وتقديم معلومات حول فترة «مايو» وما قبلها وبعدها.

*خليل الياس

لقاء مع النائب الأول:

وتصفية المعتقل:

وبعد أيام قلائل أخطرتنا إدارة السجن بالذهاب إلى مكاتب الأمن للقاء نائب رئيس الجمهوريه حيث وجدنا أبو القاسم محمد إبراهيم النائب الأول وبصحبته زين العابدين محمد أحمد عبد القادر وعبد الوهاب إبراهيم وزير الداخلية. وأدهشنا التحضير لهذا الإجتماع الذي غطته المرطبات وتساءلنا ما الذي حدث.. وتسبب في هذا الإستقبال؟! بدأ أبو القاسم بالحديث عن إيجابيات وإنجازات (ثورة مايو) وقال : أنتو إذا بتفتكروا إننا بقينا يمينيين ووقعنا في أحضان اليمين، أنا أوكد لكم نحن ثوريين وسنظل ثوريين وما ساءلين في الصادق وغيره عايزين نسمع رأيكم في الإنجازات الحققتها ثورة مايو في المشاريع الإنتاجية في الزراعة والصناعة، يالله إتكلموا قولوا رأيكم. وكنا قد إتفقنا أن يتولى الرد نيابة عنا الشهيد المناضل قاسم أمين فقال له: إستمعنا الي حديثك بإهتمام ولكن نحن قيد الحبس ولا نعلم ما يدور في الخارج. فالتفت أبو القاسم إلى عبد الوهاب إبراهيم وزير الداخلية وقال له: أطلق سراحهم، ثم توجه إلينا وقال: أنتو الآن مطلق سراحكم. ورد عليه قاسم أمين: نقول رأينا بعد ما نشوف الإنجازات. وواصل أبو القاسم حديثه: سأضع لكم برنامجاً لزيارة النيل الأزرق وكل مواقع التنمية التي تحققت فيها الإنجازات. وعند خروجنا من المعتقل وفي نشرة اخبار الراديو أعلن المذيع أن جميع المعتقلين أطلق سراحهم بعد لقائهم بالنائب الأول وأبدوا إعجابهم بالإنجازات واتفقوا على وضع برنامج لزيارات المشاريع. وهذا ما لم يحدث ولم يكن قاسم أمين قد أشار في رده على أبو القاسم بشيء حول إنجازات مايو أو إستعدادنا لجولة كما ذكر بل أكد له أن تقييم الحزب تقوم به قياداته في الخارج.

اعتقالات قصيرة 1979م:

بعد أن خلت كوبر وشالا في عام 1978م جرت بعض الاعتقالات لا أذكر ما هي الدوافع الحقيقية ولكن الفترة لم تتجاوز الشهرين، كنت في قسم يسمى الكرنتينة (ج) وكان معنا في ذات الوقت الأستاذ قاسم أمين وصلاح مازري وبعض القادة النقابيين: محمد المبارك وعبد الوهاب صالح وآخرون لا أذكر اسماءهم، وبعد أيام من خروج قاسم أمين وكان يوم الزيارة العادية جاء الشاويش سيد احمد يحمل ورقة وهو يبتسم قائلاً: فيكم زول طالع تعرفوه منو؟ وبدت الترشيحات للمرضى والذين بلغتهم أسرهم باطلاق السراح ولم يجرؤ أحد منهم على ترشيحي، وكانت مفاجأة لنا عندما قرأ سيد احمد الاسم الوحيد في الورقة التي جاء بها.. كان الموقف في غاية الاحراج، إذ كنت الوحيد الذي خرج في ذلك اليوم وكانت الأسر محتشدة في انتظار الزيارة وقد بقى بالمعتقل عدد كبير من الطلاب والشباب، وفي طريقي خارجا وبلغة جادة بلغت أسر المعتقلين أن مجموعة أخرى في طريقها إلى الدار، وحقيقة كنت (مكسوف) لخروجي وحدي وكدت أعتذر وأطلب البقاء.. ولكن رؤية الشارع لا تقاوم وكان السبب في خروجي منفرداً وقبل إعداد كشف الامن أن بعضاً من زملائي أصدقاء الدكتور بهاء الدين ضغطوا عليه ليضغط بدوره على عمر محمد الطيب بمبادره من العميد احمد ابو الدهب أحد الاصدقاء من أبناء شندى.

إعتقال مع ابني عادل 1980م :

كان عادل ابني قد حصل على منحة دراسية في الاتحاد السوفيتي وكان الوحيد من أفراد أسرتي الذي درس في إحدى الدول الإشتراكية، وتمت كل تدابير سفره من تأشيرة خروج وتذاكر وخلافها، وتجاوز الجوازات والجمارك وفي طريقه للطائرة القى القبض عليه وحجز بمكاتب الأمن، وعند ذهابي والسؤال عنه وجدت ضابطاً يدعى عبد الله الامام هو المسؤول عن ذلك، وعندما استفسرته عن الأسباب قال : أنت ذاتك كنا بنفتش عليك، كان فظاً وعدائياً يختلف كثيراً عن الضباط الذين تعاملوا معنا بكثير من اللياقة والأدب، واضطرني للرد عليه بالمثل وزجرته حينما قال أنه يبحث عني وهو يعلم أنني ما زلت أعمل في البنك ولم يحدث أن جاء ليسأل أو يكلف نفسه بزيارة المنزل.. ثم أودعونا في زنزانتين متجاورتين في جهاز الأمن وقبل ذلك سألني : كيف تسنى لعادل الالتحاق بجامعة في موسكو وهو يحمل شهادة ضعيفة المجموع؟ قلت له : ألا تعلم أنه ابني وأن له خمسين درجة إضافية في أي بلد اشتراكي بمجرد وصوله مطار ذلك البلد؟ كان ردي استفزازياً ولكنه ينسجم مع الطريقة غير الودية التي تعامل بها الامام.. قضينا في زنازين الأمن نحو ثلاثين يوماً أكلنا خلالها كمية من الفاصوليا تكفي لفرقة من الجنود.. وكانت فترة رغم قصرها مليئة بالنوادر والطرف مع الزبائن العابرين من غير السياسيين. وسعدت كثيراً ان يكون ابني عادل برفقة الاخ العزيز (عبده هاشم) زميلي في بنك السودان يحتل الزنزانة المجاورة التي سبقنا اليها بعد اعتقاله مع الأستاذ التجاني الطيب القيادي بالحزب الشيوعي- فامضينا اياماً مليئة بالطرف والنوادر مع المواطنين الذين زجوا في ذات الزنازين من غير السياسيين... صرخ أحدهم مرة حين رأى زميله الترزي يعمل في جهاز الأمن.. وكنت أثير (عبده) الذي سبقنا إلى الجهاز بأسابيع كثيرة عندما يأتي الحارس يسألنا عن وجبة الغداء التي يحضرها لنا من (مشتل) الخرطوم فاطلب (فاصوليا) وكان (عبده) قد تناول منها كمية تكفيه لعام كامل..!

لقاء مع العميد (عنايات):

جاءني خلال تواجدى بالزنزانة مندوب من جهاز الأمن ليخبرني بالاستعداد لمقابلة العميد (عنايات) غداً في المكتب!! لم أصدق أن جهاز

الأمن به عميد سيدة سألته : قلت العميد منو؟ قال : العميد عنايات.. أدهشني وأطربني في ذات الوقت واستبشرت خيراً بأن الجنس اللطيف لابد أن يتعاطف مع والد وابنه، فقد تدفعها العاطفة إلى إطلاق سراحنا معاً، ومهما كان الأمر فإن لقاء سيدة في ذلك الجو الكئيب يزيل عنا وحشة الزنازين ويضفي علينا قسطاً من الراحة والبهجة وربما شفى جراحا من السقم والعزلة بخروجنا من تلك (الوكرة).
قضيت الليل أنسق القميص والبنطلون لكي أصبح بهما أنيقاً ولكي أبدو جاذباً للقاء الحسناء (عنايات) وأصبح الصبح وأنا في غاية (الهندمة) والاستعداد لذلك (الراندفو)، وجاءني مندوب العميد وأدخلني مكتباً وجدت به ثلاثة أشخاص بالزي المدني بدأوا معي التحقيق بأسئلة تعودنا عليها لا جديد فيها سوى السؤال عن سفر ابني إلى الاتحاد السوفيتي وكنت ارقب باب المكتب بفضول كثير متلهفاً لرؤية (عنايات لأني اعتقدت أن هؤلاء المحققين سيرفعون نتيجة التحقيق للعميد (عنايات) قبل لقائي بها وكانت دهشتي حين نطق أحدهم بكلمة عميد (عنايات) فغشيني الإحباط وصدمتني المفاجأة، لقد كان العميد (عنايات) ذلك الشخص الذي يجلس في الوسط رجلاً وليس امرأة ولكنه تحلى بشئ من الظرف وحقق معي بكل تهذيب وكلمات منتقاة، أما الشخص الذي جلس على يمينه فقد كان غير ذلك كان أحد القانونيين وكان قد عثر في إحدى مذكرات التلفونات عند تفتيش مكتبي في بنك السودان على بعض أسماء بينها موظفات وطالبات كن يتدربن في قسم المراجعة الذي كنت مسؤولاً عنه وأوضحت له ذلك حتى لا يلحق بهن اذى، قال انه لا يمكن أن يجرؤ على مسهن بأي ضرر.. ولكنه كان كاذباً وراح يبحث عن واحدة منهن وفتش منزل أسرتها ولم يترك الموظفة التي كانت تعمل معي في المكتب حتى حقيبتها الخاصة لم تسلم، منه وسألت رجل الأمن بسخرية : إن شاء الله تكون لقيت فيها الرونيو؟ وهو اليوم يعمل محام بالخرطوم!! أما العقيد الذي جلس على يساره فقد كان أنيق الحديث لدرجة أنني قلت : اللهم أعز حزبنا بأحد العقيدين وانتهت الزيارة وعدت ثانية إلى الزنزانة.

آخر الإعتقالات

إطلاق سراح عشوائي:

كانت زوجتي حزينة لاعتقال ابنها عادل وخشيت عليه من مصير والده في طول الاعتقال وضياع العام الدراسي، وكما هي حال الأمهات لم يتركن وسيلة بدءاً بالفقرا والبخرات والشيوخ اللاحقين الى ان عثرت إحداهن على إحدى قريباتها ذات صلة وثيقة بزوجة عمر محمد الطيب رئيس الجهاز ونائب رئيس الجمهورية ذهبن إليها في مجموعة من نساء الحي وطلبن منها التوسط لدى زوجها لإطلاق سراح عادل والاحتفاظ بوالده لأنه أي والده زبون عندكم.. وتحت ضغط زوجته وصديقاتها أمر الضابط علم الدين بأن يحضر عادل خليل الياس ولكن الضابط لم يسمع الاسم الأول ولم يخطر بباله أن لي ولداً في هذا العمر.. كان ذلك في المساء بعد الثامنة، جاءني الضابط وطلب مني حمل حقيبتي معي، قلت لعادل سأذهب أنا إلي كوبر وغالباً يطلق سراحك بعد التحقيق الذي أجرى معك أمس.. وركبنا (سيهان بيرد) وعندما نزلنا من الكبري لاحظت أن الإشارة إلى اليمين وليس اليسار في اتجاه سجن كوبر أدركت أنني ذاهب إلى منزل عمر محمد الطيب، ولكن لماذا؟ ربما لاجراء تحقيق عن سفر عادل، ولكني لم أتوقع اطلاقاً ما حدث بمنزله.. عندما رآني عمر أصابته الدهشة ولكنه رحب بي وأجلسني بقربه ثم سأل الضابط طيب وين عادل؟ وكانت مفاجأة له ثم أمره بالعودة إلى الجهاز وإحضار عادل، وكان الأمر صعباً فعلاقتي بعمر تمتد لعشرات السنين وإن هو أمر باعتقالي ثانية سيدخل في حرج شديد مع الاخوة الذين طلبوا منه إطلاق سراحي وابني خاصة العميد احمد أبو الدهب الذي اخبره عندما قابله في الجامع بعد صلاة الفجر.. وبدأ يسألني عمر هل أنا مصر على سفره إلى موسكو؟ قلت له أنا أحوج الي بقائه هنا ولكن مجموعه لم يؤهله قال سأسعى مع جامعة القاهرة الفرع عندك مانع؟ قلت له: يا ريت، قال: سوف اتصل بهم وسوف أفيدك بذلك ثم دخل إلى الصالة التي احتشدت فيها النساء وخاطب زوجتي بأنك الآن ستأخذين ولدك عادل ومعه والده. وخرجنا من منزل عمر محمد الطيب في سيرة من النساء بعد أن قدمت لهن الشكر الجزيل. وبعد أيام اتصل بي المرحوم صديق عفيفي الذي يسكن في نفس حي كوبر مجاوراً عمر محمد الطيب- ليخبرني بأن مولانا عمر يود مقابلتك ولكن في منزلي وعند حضورك نستدعيه!! وكان صديق يسكن في نفس الشارع قريباً منه ولكني لم أوافق على استدعائه واصطحبته إلى منزل مولانا وتركني معه وعاد الي منزله سألت عمر محمد الطيب لماذا أراد مقابلتي بمنزل جاره صديق عفيفي؟ وقبل أن يجيب على سؤالي قلت له هل تعتقد أن الحراسة التي حولك لحمايتك فقط؟ إنهم كذلك يراقبون تحركاتك ونشاطك وربما يفسرون لقاءك معي في منزل جارك بأنك كادر سري ولعل سادية نميري أنه لم يخطر عمر محمد الطيب بتعيينه نائباً أول لرئيس الجمهورية حينما كان معه في القصر حتى الساعة الثانية بعد الظهر وإنما أرسل له خطاب تعيينه مع الضابط بمجرد وصوله إلى المنزل. مما أزعج عمر وكان يعتقد أنه خطاب إعفائه.. قلت له ألا يفسر إجراؤه هذا لعدم ثقته في من حوله ولكن عمر لم يعلق.. وأسترسل في الحديث عن محاولاته لجامعة القاهرة وقال إنه إتصل بهم لإستيعاب عادل بالجامعة لكنهم اعتذروا لأنهم الآن قد بدؤا في الامتحانات.. ثم سألني هل أنت مصر على دراسته في الاتحاد السوفيتي؟ قلت له ليس لدي مانع ان امكن الحاقه بأي منحة أخرى الي المانيا أو انجلترا او أي بلد في غرب أوروبا.

وواصلت الحديث:

وبهذه المناسبة أود أن أؤكد لك ان عادل ليس عضواً في أي حزب سياسي وذهاب الطلاب للدراسة في البلدان الاشتراكية ليس بالضرورة انتماءهم الي الحزب الشيوعي فهناك أعداد من الإسلاميين وتنظيمات الأخوان المسلمين يدرسون لأن تكاليف الدراسة والإقامة هناك قليلة جداً إذا ما قورنت بالبلدان في أوربا الغربية ولان الحياة بسيطة وآمنة. وعندما أكدت له إصراري على سفر عادل إلى موسكو لان

إمكاناتي المالية لا تسمح لي بدراسته في أي بلد آخر في اوروبا الغربية قال : على بركة الله عادل يسافر، وما تقول شئ تذكرة السفر علي أنا، شكرته وقلت له: عادل لما كان ماشي على الطيارة كانت معاهو تذكرة مش ابونيه ! ثم أردفت قائلاً: لولا انك وافقت على سفره ما كنت ناوي احكي ليك مأساة اخذ الناس بالشبهات حتى لا يتبادر إلى ذهنك أنني أساومك ثمناً لإطلاق سراح عادل والسماح له بالسفر خارج البلاد وواصلت: تذكر يوم اقمنا مهرجان الشباب في الجنوب بجوبا وكنت انت نائب القائد؟ وقدمت لنا مساعدات متعددة من خيام وعربات وخلافه، وبعد المهرجان جئت اليك في المكتب وشكرتك على تلك المساعدة التي ساهمت في إنجاح المهرجان، كانوا وقتها ينادونك: مولانا؟؟ وفي تلك الأيام رجعنا للخرطوم استعداداً للسفر مع نميري إلى شرق اوروبا، وكان على أعضاء الوفد الحضور الي وزارة الداخلية لبعض إجراءات تتعلق بتلك الرحلة.. حضرت مبكراً الي مكتب ابو القاسم محمد ابراهيم وجلست معه في طاولة صغيرة تحيط بها مقاعد لشرب القهوة والشاي، كانت امامه قائمة باسماء لمحت فيها اسمك، وعلى شمو وفضل الله حماد، سألت ابو القاسم عن هذه القائمة قال : انها اسماء الأخوان المسلمين عاوزين نفصلهم من الخدمة.. قلت : له لا معرفة لي بفضل الله ولكني اعرف عمر محمد الطيب وعلي شمو، ولا علاقة لهما بهذا التنظيم.. وحكاية مولانا هذه لقب اطلقه عليه بعض معارفه من حيران الشيخ الجعلي، فسألني أن كنت أتحمل هذه المسؤولية، قلت بلى فامسك بالقلم وشطب الاسم، فأخذته منه وجعلت امرر القلم حتى اختفى الاسم تماماً قائلاً له الدنيا ما معروفة يمكن زول بعدك يشوف الأسماء دي تاني! قلت لعمر كانوا سيأخذونك بالشبهات وهذا ما حدث لابني عادل ولم يخف عمر محمد الطيب انفعاله، وقال أنه لا يعجب فإن العلاقة الأخوية بيننا تسمح بذلك.

انتفاضة أبريل: ونهاية جعفر نميري

تنكر جعفر نميري للقوى التقدمية والوطنية التي آزرته وشدت قواه حين جاء مقتبساً برنامجها وأهدافها فأزل الشعب السوداني وأذاقه طعم الجوع والعوذ واستشرى الفساد وتدهور الإقتصاد وأصبح السودان في عهده مطية ذلولا للإستعمار الحديث وسآءت سمعته إقليميا وعالميا ولم يعد فقط رجل أفريقيا المريض بل صار في عهده جثة أفريقيا الملقاه على حافة الطريق لا تجد من يركلها أو من يواريها، وراح (المتأسلمون) يجملون له ما اسموه بحكم الشريعة فجلد النساء والشباب وقطعت أياديهم وأزلوا الشيوخ وأمتدت يده إلى المفكر الإسلامي المقتدر العالم وقد تجاوز الخامسة والسبعين الأستاذ محمود محمد طه فأعدمه بعد أن زعموا له أنه كافر زنديق وأصبح النميري في يد (المتأسلمين) أرجوزاً بلغت السخرية به حد إقناعه بأن المقاعد الفارغة في مكتبه يجلس عليها أولياء الله الصالحين في حضرته وراحوا يقدمون له الشيخ فلان والشيخ فلان فيمدد يده في الهواء مصافحاً طالباً (البركة والتاييد وحسن الخاتمة).

وبالرغم من ماعاناه الشعب من بؤس وفقر وإعتقال وتشريد ظل يناضل بوسائله المتعددة من إضرابات ومواكب ومصادمات حتى نجح في تنفيذ أداته الفاعلة (الإضراب السياسي العام) فأسقط سلطة مايو وذهب جعفر نميري غير مأسوف عليه.

وبعد أن أنتفض الشعب وضحى بالشهداء والمعاقين والجرحي وأنتزع من عمره عقوداً من العذاب والآلام والتشريد والتضحيات جاءت الجبهة الإسلامية القومية لتطفي على جعفر نميري حلة من البراءة والنقاء وتبعثه من ذلك المستنقع السحيق الذي أغرقه فيه الشعب وأنتشلته خالٍ من كل جرائمه في حق الشعب السوداني، فأرسلت مبعوثها في القاهرة يبشره ويطمئنه من عودة من منفاه سالماً غانماً وأعدت له مواكب الإستقبال في مطار الخرطوم حاشدة وسائل إعلامها المرئية والمسموعة والمكتوبة وخصوه بحراسة ملازمه ليلاً ونهاراً حماية ورفقه له، ومنحوه كل المخصصات وأحاطوه برتل من جهاز الأمن يصحبه ويحميه.

ولكن دماء أبناء شعبنا البواسل الذين أستشهدوا في السجون ومجازر الشجرة لن تذروها الرياح وستظل جُرحاً أبدياً غائراً في عنق السفاح جعفر نميري ومن حالفوه وساندوه وأقترب اليوم أو نأى سينالون جزاءهم من شعبنا الصامد الصبور الذي لن ينسى أبناءه الذين ضحوا من أجله.

ويبقى من الذكريات طريفها ونادرها دافعاً للراحة وصفاء النفس ويرشح منها بعض آخر فيه ما يوقظ خبئ الحزن والأسى ومرارة الحرمان ويلهب في الأفئدة جراحاً لا يمحوها الزمن ولا الصبر الطويل ولا تغسلها التوبة ولا يسلخها النسيان فهي رهينة بعفو أولئك الذين حاق بهم الظلم والقسوة والتشريد والإرهاب والحرمان والعذاب المهين.